LAWS OF JARTIN

قواعد چارتين 2

عمرو عبد الحميد

دقات الشامو

رواية



دقات الشامو



الكتـــــاب : دقات الشامو

المـــــؤلـــــف : عمرو عبدالحميد

تـدقيـق لغـوي: عمر جوبا

تنسيــق داخلي : سمر محمد

الطبعة الأولى: ينـــايــر 2019

رقـــم الإيـــداع : 2018/27097

978-977-6542-38-9 : I.S.B.N

المدير العام:محمد شوقي

مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس

00201150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com



عمرو عبد الحميد



إهداء

إلى:

رانيا خالد

(١)

فاضل

ظل اختفاء سبيل أرملة حيدر مسار الحديث في وادي النسالى لأيامٍ كثيرة، قبل أن يتلاشى يومًا بعد يوم حتى صار كأنه أمر تناساه الجميع، عدا غفران التي بدا على وجهها أنها لم ولن تنسى ما حدث أبدًا، وإن كان حديثها عن ذلك الأمر لم يعد كثيرًا مثلما كانت تفعل بالأيام الأولى بعد اختفاء تلك الفتاة .. ما كان باديًا للغاية أن الجهد الذي ستبذله لاحقًا لبثِّ الأمل من جديد في القلوب اليائسة سيكون أضعافًا مضاعفة من الجهد الذي بذلته خلال السنوات الماضية في ذلك الوادي.

أما بالنسبة لريان فكان يظهر بين الحين والآخر ويختفي إن جاء أي من ضباط الأمن برفقة أحد الأشراف المشاكسين إلى الوادي .. شعرت من الحديث معه ذات مرة أن داخله بات يؤمن بأنه اقترب للغاية من الموت على منصة جويدا، مثله مثل ناردين التي أخبرتني عن امتلاكها الشعور ذاته ..

أما أنا فلم أتخذ قرارًا واضحًا .. لم أعلم للحظة واحدة إلى متى سأبقى في الوادي .. كذلك لم أجد عودتي إلى بني عيسى ستكون بالأمر المريح لي، بالطبع هناك عائد صار جيدًا بعد سنواتي هناك، لكن من أجل ماذا؟! .. أن تبقى مدى الحياة في تلك الدائرة، ماذا سيفيد المال وقتها ؟! .. كما أنني وعدت غفران بالبقاء معها، هي تستحق الدعم بكلٍ تأكيد وفي هذا التوقيت أكثر من أي وقت مضى .. وإنْ لم أجنِ شيئًا من بقائي هنا سوى الراحة التي سكنت داخلي مع البقاء جوار هذه المرأة القوية. كل ما كنت أخشاه أن أفقدهم جميعًا في لحظة واحدة .. هذا ما كنت أتوقعه، كذلك تتوقعه غفران .. سيأتي يومٌ ستكون فيه غفران أعلى المنصة من جديد، لكن هذه المرة لن تكون الرامي، ستكون هي المذنبة التي تتلقى طلقة البارود بين حاجبيها.

في النهاية اتخذتُ قراري بأن أبقى في چارتين إلى أجل لم أحدده، وأكملت وعدي لغفران بالذهاب إلى باحة جويدا كل يوم غفران من أجل مراقبة القائم الجانبي لعل آدم يفعلها من جديد ويتسلقه، أو أعثر عليه صدفةً بين المتزاحمين .. وذهبتُ إلى أيام الغفران يومًا تلو الآخر .. حضرتُ الأيام التي أعدم فيها باقي فتيان المدرسة الأحد عشر، ومن بعدها أيام غفران أخرى أعدم بها نسالى آخرون لم يكن جميعهم من الوادي الذي نسكن فيه، لكن القائم الجانبي بقي خاويًا كعادته، ولم يظهر الفتى من جديد.

مع كل مرة كنت أذهب فيها إلى الباحة كنت أرى كمَّ السعادة على وجوه الأشراف بتلك الإعدامات، كذلك إعجابهم بذلك الضابط ذي الشعر الرمادي والعينين الزرقاوين الذي اعتاد اعتلاء المنصة مع كل

يوم غفران دون أن يكون راميها، ليقف بطوله الفارع وكتفيه العريضين على جانب المنصة بكل فخرٍ وتباه .. كنت أعرفه جيّدًا بعدما كان سببًا في اعتقال فتية المدرسةً وكذلك تلك الندبة التي تركت أثرها على كتف غفران في تلك الليلة الحزينة .. سمعت في اليوم الأخير لي هناك امرأة شابة تنظر نحوه وتقول بسعادة لمن تجاورها:

- إنه الفارس كيوان .. سمعته يقسم ذات مرة أنه لن يعبر سنواته الخمسين إلا وقد قدّم كل النسالى المجرمين إلى المنصة وأولهم الخائنة.

كنت أعرف أنها تقصد غفران، قبل أن تكمل في إعجاب شديد لمن تحدثها:

- انظري إليه.

كان الشر البادي على وجهه الجامد يجعلني أشعر أن الأيام القادمة مع وجود ذلك الفارس الذي لم ينسَ لغفران قط تفوقها عليه في مدرسة الضباط واقتناصها منصب رامي المنصة منه ستكون صعبةً عليها للغاية .. حسنًا أيها الكيوان، لنرى ماذا ستفعل مع امرأة بذكاء سيدة النسالى، يساعدها رجل قذفته الأقدار من بلاد الهضبةً الوسطى إلى بني عيسى إلى وادٍ من المنبوذين هنا، فصار زاهدًا في الحياة لا ينتظر منها شيئًا.

هكذا مضت أيامى في وادي النسالى في إطار شبه ثابت بين العيادة التي بناها لي ريان وصارت وجهة مرضى النسالى، وأيام الغفران التي لم أفوّت منها يومًا واحدًا، ولقاءاتي مع غفران للحديث

معها عما تنوي فعله في الأيام التالية .. قبل أن يأتي ذلك المساء حين انتهيتُ من جميع المرضى، وأخبرني الفتى المساعد لي أنه لم يتبقَ أحد، وكاد يطفئ المصابيح لولا دلفت إليّ تلك الفتاة دون استئذان لتقول:

- الطبيب!

حدقتُ بملامحها .. كان ذلك الوجه ليس بغريبٍ عليّ، فبادرتني متسائلة:

- ألا تتذكرني؟! إنني مَن زرتك في بني عيسى ..

تذكرتها، بالفعل هي .. الفتاة نفسها التي أخبرتني عن تبدّل حال النسالى يوم جاءتني مريضة في بني عيسى، وكانت على السفينة ذاتها التي حملتني أنا وآدم إلى چارتين، قبل أن يقوم ضابط الميناء بالاعتداء على النسالى وعليها بشكلٍ خاص، لأفقد آدم حينها بعدما فرّ هاربًا من ذلك الضابط .. فقلت في سعادة:

- نعم أتذكرك..

وأشرت لها كي تجلس، فقالت:

- لم تخبرني يومها أنك قادم إلى وادي النسالى ..

ابتسمت وقلت:

- أردت أن ألحق بكِ يومها وأخبركِ، لولا ذلك الضابط ..

هزت رأسها ضيقًا وقالت:

- كان ذلك الضابط يكن لي من الغضب والكره ما يكفي أرض چارتين كلها .. لكن لولا طفلك لما نجوتُ أبدًا بعدما جذب انتباه الجميع حينما ركض، وبدوري استطعت الفرار أنا الأخرى بين المتزاحمين، غير أنني اختبأت طوال الأشهر الماضية بعيدًا عن الوادي حتى يُنسى وجهي، ظنًا مني أن ذلك الضابط المتعجرف سيأتي إلى الوادي بحثًا عني ليقدمني إلى المنصة بأي تهمة.

ظللت أتنقل من مكان لآخر، ولجأت إلى بعض بيوت الرذيلة التي كنت أعمل فيها قديمًا وأعرف أن أصحابها يمتلكون حيلًا كثيرة لإخفائنا .. أخشى كل هذا الوقت أن أعود إلى الوادي خاصةً بعدما علمتُ بما حدث لمدرسة السيدة غفران ولها وللفتيان في تلك الآونة ..

واليوم عدت ورأيتك منذ ساعات مع سيدتي .. وحين استفسرت من إحدى الفتيات عن وجودك علمت أنك جئت إلى الوادي منذ عدة أشهر .. ليتني عرفت ذلك منذ وقت مضى ..

سألتها متعجبًا:

- لماذا؟!

قالت:

- منذ أربعة أشهر قابلت طفلك من جديد .. عرفته من اللحظة الأولى ..

تساءلتُ في ذهول:

- آدم؟!

قالت:

- نعم ..

قلت:

- أين؟!

قالت:

- كان شريدًا بأحد الشوارع على أطراف جويدا الغربية .. كان خائفًا للغاية .. خشي مني في البداية لكني طمأنته وذكرته بي .. أدركت أنه فقدك .. وأدركت أنه من الصعب أن أجدك في جويدا خاصة مع قلة تحركي بالنهار، ظللت أبحث عنك خلسةً في حانات جويدا الشهيرة لكنني لم أعثر عليك .. لم يأتِ في بالي قط أن تتواجد في وادي النسالى ..

في الوقت ذاته كنت أخشى أن يعتقلني ضباط الأمن وآدم معي، فيظنون أنه نسليٌّ مثلي، فيُعتقل هو الآخر ويحمل وشمنا بدون ذنب، خاصةً أنه لا يملك أوراقًا تثبت أنه غريب عن بلادنا، وأنا أعلم أنه ليس نسليًا .. فلم أجد إلا أن أستمع إلى حديثها وأجعله يرافقها بعدما فقدتُ الأمل في إيجادك ..

تساءلت سريعًا:

- يرافق مَن ؟!

قالت:

- سيرين .. فتاة التقيتها في أحد بيوت الرذيلة في جويدا ..

وتابعت:

– وعدتني بأنها ستعتني به ..

قلت:

– لا تعيش بهذا الوادي ؟

هزت رأسها نفيًا .. فسألتها على الفور:

– بأي وادٍ تعيش؟!

قالت:

– لم تكن نسلية أيها الطبيب .. إنها امرأة شريفة ..

(٢)

سيرين

كانت الرحلة من جويدا إلى مدينة «بريحا» الشمالية شاقةً للغاية عليّ وعلى آدم، خاصةً مع اتخاذنا طرق جانبية كثيرة لاجتياز ذلك العدد الكبير من دوريات الفرسان المتناثرة على الطرق الرئيسية القريبة من جويدا، خشية أن يكون بإحداها ذلك الضابط الذي هشّم الطفل أنفه بالحجارة كما أخبرتني الفتاة النسلية التي عثرت عليه في شوارع جويدا.

اسمي سيرين، أربعة وثلاثون عامًا ، فتاة چارتينية شريفة من مدينة «طبيرة»، أقرب المدن الچارتينية إلى جويدا. على عكس شريفات چارتين لم أحظَ بحياة مرفهة قط منذ طفولتي، كان أبي سببًا رئيسيًا في ذلك، بعدما انفصل عن أمي قبل أن أكمل عامي التاسع، ليتركني أنا وأختي التي تكبرني بعامين في مواجهة الحياة بمفردنا خاصةً مع مرض أمنا وموتها بعد ثلاثة أعوام، لأجد نفسي في سن الثانية عشرة أحمل مطرقةً في إحدى ورش الحدادة، تغطي وجهي وثيابي طبقةٌ من الركام الأسود، وأعمل مرغمةً بالمهنة الشاقة

التي وفّرها لي أحد أقاربنا الذي أقرّ من نفسه بعدم حاجتي للمدرسة بعد، لتمضي الأيام بثقلها الشديد نحو بلوغي، أقصى ما أطمح إليه في هذه الدنيا هو أن ينتشلني أحدهم بالزواج ويريحني من تلك المعاناة، غير أن أبي النذل لم يترك لي تلك الفرصة حتى، بعدما فعل آخر شيء كان ينقص رحلة شقائي، واجتاز القاعدة الأولى، وهرب من المدينة دون أن يقدّم نفسه إلى وادي حوران عند بلوغه عامه الخمسين، ليعلن القاضِي إدانته بالنسلية، ويعلن اختصام الروح لأجنة نسله جميعهم، وأحرم أنا وأختي من إنجاب أطفال أحياء قبل أن أتم عامي الخامس عشر.

لم أفهم قسوة ما فعله أبي بنا إلا عندما عبرت عامي العشرين بخمسة أعوام كاملة ولم يتقدم شابٌ واحد للزواج مني أو من أختي، ومع سخافة الزبائن في تلك المدينة وانتهازهم ضعفنا وعدم كفهم عن التحرش بنا أخبرت أختي برغبتي في الانتقال للعيش في جويدا، المدينة الكبرى التي لا يعرف سكانها بعضهم بعضًا، وتتوه بين أخبارها الكثيرة التفاصيل الصغيرة مثلنا، رفضت أختي أن ترافقني وفضّلت إكمال حياتها في المدينة التي تعرفها، أما أنا فانتقلت إلى جويدا، وتزوجت بالفعل من شاب هناك في عامي السادس والعشرين دون إخباره بعلّتي، ظنًا مني أن حبي الذي سأقدّمه له قد يعوّض رغبته يومًا ما في إنجاب أطفال، لكن مع ولادة طفلي الأول ميتًا وكذلك الثاني لم أجد أمامي سوى الاعتراف له بعقوبتي، اعتقدتُ أنه قد يسامحني بعد السنوات الثلاث التي عشناها سويًا، لكنه لم يمهلني دقيقة واحدة، وجذبني من شعري بقوة دون تفكير، وجرّني إلى خارج البيت، قبل أن يلقي بي في الشارع، ويغلق الباب من خلفي دون أن يقول كلمةً واحدة، لأعود للشقاء من جديد.

لم أرغب في العودة إلى طُبيرة أوالعمل في الحدادة مرة أخرى بعد التوقف عنها لثلاثة أعوام، وبين حاجتي الماسة للمال وحالة اليأس التي أغرقتني من رأسي إلى أخمص قدمي، أوقعني القدر في أحد شياطين أشراف جويدا الذي أغواني بالعمل خلسةً في بيتٍ للرذيلة يمتلكه بعد عزوف كثيرٌ من النسليات عن العمل هناك في السنوات الخمسة الأخيرة، وأغراني بالأجر الكبير الذي سأتقاضاه كل ليلة والحماية التي سيوفرها لي، خاصةً مع اشتهاء زوار تلك البيوت للشريفات الباغيات أكثر من النسليات، لأقضي لياليّ في ذلك البيت لا فرق بيني وبين النسليات إلا وشم أكتافهن، أتحمل كافة أنواع الاعتداءات دون شكوى واحدة خوفًا من أن يشي بي أحدهم، وأُعتقل على جريمتي بممارسة الرذيلة وأصير نسليةً أنا الأخرى، لتمر خمس سنوات كاملة لي بين تلك البيوت رأيتُ فيها كافة أنواع الفاسدين من أشراف چارتين، واكتشفت مدى الزيف الذي تعيشه بلادنا المكتسية بالقواعد شكلًا ..

إلى أن التقيت شهد، الفتاة النسلية التي حدثتني عن آدم .. لا أعلم ماذا أصابني حين رأيت ذلك الطفل، ولماذا تعلّق به قلبي إلى ذلك الحد، وحين أخبرتني قصته وعما فعله معها بالميناء الجنوبي وحدثتني عن تخوّفها بأن يُعتقل معها فيكون وشم النسالى مصيره دون ذنب وجدت عقلي يفكر بالقرار الذي أجلته لسنوات، وبدأ داخلي يلح عليّ بأن الوقت قد حان لترك بيوت الرذيلة، بل ترك جويدا بأكملها والانطلاق بعيدًا عن هذه المدينة التي حملت لي كثيرًا من الأيام المؤلمة، فعرضتُ عليها أن أتولى رعايته بعدما يأستِ في الوصول إلى أبيه وتزايدَ شعورها بقرب اعتقالها مع الحملات الكثيرة الأخيرة ضد النسالى، فوافقت دون جدال .. ثم انتهزتُ معرفتي بفارسٍ فاسد

كان دائم التردد على بيت الرذيلة الذي كنت أعمل فيه، فساعدني على استخراج صك شرف مُزوّر باسم آدم على أنه ابن أختي بعدما تأكد بنفسه أن الطفل لاً يحمل وشمًا، ونال مني وعدًا بأن أغادر جويدا في خلال أيام .. انتظرتُ أن أرى الفتاة النسلية من جديد لأخبرها عن وجهتي، لكني لم ألتقيها مجددًا، فجمّعت ما اكتسبته من مال، واشتريت حصانًا وعربةً، وبدأت رحلتنا أنا وآدم إلى بريحا، أبعد المدن الچارتينية عن جويدا.

ظل الطفل صامتًا صمتًا غريبًا طوال رحلتنا .. حاولتُ أن أبادله أطراف الحديث أكثر من مرة لكنه كان ينطق بكلمات قليلة ثم يعود إلى صمته متأملًا جوانب الطرق أو جدار چارتين الذي بدأ يظهر في الأفق مع اقترابنا من مدينة «قبالا» التي تنتصف المسافة بين جويدا وبريحا .. حاولتُ أن أعرف منه أي شيء عن حياته السابقة، عن والده، عن الإقليم الذي كان يعيش فيه شمال بحر أكما، لكنه لم يجبني بشيء يُذكر، وواصل صمته الغريب .. قبل أن يخلد إلى نومه، ولم ينهض إلا مع وصولنا بريحا.

كان أكثر ما يميز هذه المدينة هو قلة عدد سكانها مقارنةً بأي مدينة أخرى من مدن چارتين، حتى أنني لم أجد أدنى صعوبة في شراء بيت صغير لنا، ثم دلني أحدهم بالأيام التالية على ورشة حدادة كبرى يمتلكها رجل يُسمى السيد عبود، قال بأنه سيعطيني عملةً نحاسية عن اليوم الواحد بعدما اختبر مهارتي في تشكيل المعادن، فوافقت. لأبدأ حياةً جديدة بعيدة عن الذل والقهر الذي عشته خلال سنواتي الماضية، يؤنس وحدتي آدم الساكت أغلب الوقت.

وعلى مدار الشهور التالية كان كل شيء يبدو طبيعيًا إلى حدٍ كبير، ولم أشغل بالي كثيرًا بتجنب الطفل لي، أو تجنبه للتحدث معَ أي من جيراننا ظنًا مني أنه يحتاج مزيدًا من الوقت لا أكثر .. قبل أن تحدث أكثر الأشياء غرابةً، عندما نهضت من نومي مفزوعةً على تلك الطرقات المستمرة وذلك الصوت الغريب الذي كان يأتي من غرفته ليتداخل مع عويل الرياح التي لم تهدأ في تلك الليلة المطيرة، وحين أسرعتُ إليه وجدته مُلقى على الأرض، مُمزق الثياب، بارز العضلات بشكل غريب، تسيل الدماء من قبضتيّ يده.

(٣)

غفران

مرت أربعة أشهر منذ ذلك اليوم الذي أعلنوني به نسلية، كان كل يوم منها يحمل حزنًا جديدًا .. صار قدوم أشقياء الأشراف إلى وادينا يرافقهم رجال الشرطة أكثر من أي وقت مضى، وصارت مضايقاتهم أكثر فظاظةً وقبحًا كأنهم يتعمدون إخراج أسوأ رد فعل لنا كي يجرّوا المزيد منا إلى منصة إعدامهم .. كنت أعلم يوم تزوج حيدر وسبيل أننا سنواجه المزيد من المتاعب لكن ما بات يحدث أن الأمر صار وكأنه انتقامٌ وتأديبٌ لنا على تلك الفعلة .. كأنها الجريمة الكبرى التي ارتكبناها وبات على كيوان ورجاله معاقبتهم لنا عليها مدى الحياة.

صارت ليالي الوادي أكثر ظلامًا وخواءً بعدما أصبح صوت بارود رجال الشرطة مألوفًا بسماء وادينا ليصيب كل من تسوّل له نفسه أو تسوّل لها نفسها حق الاعتراض على ما يطلبه الشريف، واضطرت أغلبية الفتيات ممن ترفضن ممارسة الرذيلة إلى الهروب مع غروب الشمس نحو وادٍ مظلم بالجوار حتى تنتهي ساعات الليل لضمان

مغادرة أولئك السفلة .. أما النهار فكان أكثر أمانًا وإشراقًا ربما لأن حرارة الشمس الحارقة كانت تقينا شر هؤلاء الأشقياء المدللين ..

لم يعترضني أحد من أولئك الأشقياء، لكني عزمت بيني وبين نفسي أنني وإن وُضعت في مثل ذلك الأمر، فلن أتوانى عن تكسير صفوف أسنانه العلوية والسفلية معًا وإن كان آخر يوم في عمري. على مدار تلك الأيام حاولت قدر المستطاع أن أواصل ما بدأته، وأن أحافظ على بث الأمل في قلوب النسالى، لكني وإن كنت أرى من الشبان والفتيات حماستهم الكبيرة لإكمال ما بدأناه .. كان الخوف والتشتت البادي في أعينهم واضحًا لعيني كل الوضوح، لأشعر داخل نفسي أن جهد السنوات الماضية صار حقًا في مهب الريح.

أكملنا العمل نهارًا يساعدني ريان ونادرين والطبيب الذي وعدني بالبقاء فاطمأن قلبي .. كنت في حاجة إلى كل مساعدة ممكنة، ووجود فاضل بيننا كان بمثابة دعم حقيقي جاء في موعده تمامًا .. وددتُ لو عثر على آدم في زياراته المتتالية إلى باحة جويدا أيام الغفران، لكنه لم يجده، وصارت معظم أحاديثنا عن تلك النظرات الحادة التي يراها في أعين الفارس كيوان وعن نواياه السيئة المُعلنة تجاهنا والتي تلقى قبولاً كبيرًا من عامة الأشراف .. كان جوابي له كل مرة بأنه ليس علينا سوى إكمال طريقنا الذي بدأناه وليحدث ما يحدث ..

ثم جاء صباح ذلك اليوم حين دلف إليّ ومعه الفتاة النسلية شهد التي عادت إلى وادينا بعد غياب، وأخبرني بنبرة محبطة بأنه لم

يعد هناك فائدة من ذهابه إلى الباحة، وأتبع قوله بأن آدم قد غادر جويدا .. تساءلتُ بعيني دون أن أنطق:

- كيف عرفت؟!

نظر إلى الفتاة، فقالت في حزن:

- نعم يا سيدتي، لقد كان معي قبل أن تأخذه فتاة شريفة مني كي تعتني به بعد فشلي في العثور على الطبيب .. أردتُ أن أرد له الجميل بعدما أصاب الضابط من أجلي، وخشيت أن يمسك به الجنود معي فيعاني طوال حياته .. لم أكن أعرف أنه نسلي..

وعندما عرفتُ من الطبيب بالأمس أنه نسلي مثلنا ذهبت على الفور إلى بيت الرذيلة الذي قابلتها فيه بحثًا عنها، فعرفت أنها تركت جويدا بأكملها دون أن تخبر أحدًا عن وجهتها ..

صمتُّ قليلًا، وأذنتُ لها بالانصراف وظل فاضل معي .. ثم قلتُ بعد فترة من الصمت:

- ربما يعود يومًا ما ..

أخرج فاضل زفيره ببطء، وقال:

- لايعرف أنه نسلي .. ولا تعرف الفتاة التي أخذته كذلك ..

فقلت بنبرة شاردة:

- على الأقل سيهنأ بعيشة كريمة معها إن لم تشك في أمره، ولم تقم بتسليمه يومًا ما إلى الجنود.

حاولت أن أتناسى الأمر، لم أكن أعلم حقًا حاجتي في مجيء آدم إلى وادينا .. وحاولت أن أقنع نفسي أن عودته لن تعني أبدًا عودة نديم .. وأن نديم قد مات بلا رجعة كمن ماتوا قبله .. ومرت أيام أخرى كثيرة لم تختلف عن الأيام الصعبة التي أحلّت بنا، قبل أن تُلقى في مياهنا الراكدة الصخرة الكبرى، وتأتي تلك الليلة حين طُرق بابي قُبيل شروق الشمس، وعندما نهضت من فراشي وفتحته وجدت سبيل زوجة حيدر التي اختفت قبل شهور تقف أمامي، وقبل أن أنطق بشيء من المفاجأة التي أصابتني، قالت وهي تشير إلى بطنها:

- إنني حبلى بجنين حصد روحًا خارج باحة جويدا.



أدخلت سبيل إلى كوخي على الفور .. كان ظهورها أمامي مفاجأةً كبيرة لم أكن لأتوقعها، أما حديثها عن جنينها فكان كبرى المفاجآت لي منذ قدومي إلى وادي النسالى أو ربما في حياتي كلها، قلتُ وأنا أبتلع ريقي من المفاجأة بعدما أجلستها أمامي:

- ماذا حدث؟

قالت:

- بعدما أُعدم حيدر أمام عيني في باحة جويدا كنت في حاجة إلى الفرار من كل شيء هنا .. فاتخذتُ قراري بالرحيل دون أن أعرف لي وجهة.. أردتُ الرحيل فحسب .. فكرتُ في العودة إلى الوادي الذي نشأتُ به، لكني خشيت أن أرى في أعينهم نظرات الشماتة بعدما تركتهم من أجل المجيء للتعلم على يديكِ من أجل تغيير مصيري .. فقررتُ في لحظة تغيير وجهتي والذهاب إلى نسالى الوديان الغربية، كنت أعرف بعض فتياتهم قديمًا .. كما أنهم بعيدون للغاية عن هنا ..

بعد أيامي الأولى هناك فكرت في العودة إليكِ يا سيدتي لكن مخاوفي من ذكرياتي السيئة ظلّت حاجزًا بيني وبين هذا المكان، فآثرتُ البقاء هناك .. في البداية كنت أقتات معهم من سرقاتٍ صغيرة لسفن البضائع، قبل أن أقرر بأن أبدأ في تعليم

بعضهم القراءة والكتابة كما فعلتِ يا سيدتي مع أبناء هذا الوادي، وبدأت بالفعل مع بعض أطفالهم وبناتهم ..

ذات يوم شعرتُ بإعياء شديد وأصابني الدوار والقيء .. ظننتُ الأمر عاديًا أو إرهاقًا من وقوفي المستمر أمام الأطفال، وأكملت يومي دون إعطاء ذلك التعب اهتمامًا، لكن إعيائي تكرر أكثر من مرة، وبدأت بعض التغيرات تحدث في جسدي لتبدأ شكوكي تتزايد بداخلي ..

حاولت أن استبعد تلك الأفكار من رأسي لكني في نهاية الأمر سألتُ امرأة تكبرني سنًا عما يحدث لي، فأخبرتني بأنها ليست إلا أعراض للحمل، لم أصدّقها كما لم أصدّق نفسي، وسألتُ أخرى عجوز فأخبرتني هي الأخرى كذلك ..

كادت الفرحة تصيبني بالجنون .. وخرجت أهرول وأصرخ بيني وبين نفسي: «معقول !! .. لقد فعلناها يا حيدر .. لقد فعلناها ..»

حين تمالكتُ نفسي كان كل تفكيري يدور عن كيفية حصاد جنيني لروحه .. تعودت نساء النسالى على الذهاب إلى الباحة من أجل حصد أرواحًا لأجنتهن .. أما طفلي فكنت أعلم أنه شرعي تمامًا .. لكني وإن كنت أعرف قواعد چارتِين، كنت أخشى أن تكمل الأرض ظلمها لي وألا يحصد طفلي روحًا نقية كما وعدتني يا سيدتي، وأن يكون الذهاب به إلى الباحة أيام الغفران هو السبيل الوحيد لينال روحًا تكون نسلية، كما وُلدت أنا وكل من أعرفهم ..

صرتُ في شك من أمري، إن كان جنيني هذا نسليًا لكوني أنا وحيدر نسليين؟! أم أنه حقًا شرعي لزواجنا في الباحة، وبدأت الحيرة تدق داخلي بقوة؛ يلّح أحد جوانبي بأن أذهب إلى الباحة كل يوم غفران لعلّه يضمن حصاد روح هناك وإن عاش نسلي، بينما يصرخ جانب آخر فيّ في غضب بأن أبقى بعيدة كل البعد عن الباحة في انتظار أن تسير الأمور كما خططنا لها ليُولد شريفًا .. ومع اقتراب نهاية كل شهر كانت تلك الحيرة تشتعل داخلي من جديد بعدما ظل الجانب الخائف مني يخشى أن أبقى بعيدة عن الباحة، فتمر أشهر الحمل تباعًا دون أن أحصد أي روح، ويُولد الجنين ميتًا وأفقد آخر ما تبقى لي من رائحة حيدر، وخاصة بعدما زارني أكثر من كابوس كنت أرى فيهم بأنني أضع جنينًا ميتًا لأنهض من نومي مفزوعةً ..

حتى قررت في النهاية بأن أنهى ذلك الصراع بداخلي، وأقسمتُ بروح حيدر بأنني لن أذهب بجنيني إلى الباحة مهما كانت النتيجة واضعةً أمامي مصير أبيه الذي أعدم ظلمًا.

وانفرجت أساريرها وهي تقول:

- إلى أن جاء الأمس، كنت في جلسة مع الأطفال أقرأ لهم عندما شعرتُ بتلك الحركة المفاجئة داخل بطني، لأدرك أن جنيني قد فعلها وحصد روحه بعيدًا عن الباحة وفي يوم ليس يوم غفران، مثل باقي أشراف چارتِين .. وقتها لم أخبر أحدًا، ولم أفكر سوى في شيء واحد فقط وهو العودة إليكِ ياسيدتي ..

وأردفت بحماسٍ كبير والدموع تلمع بعينيها:

- لقد أنصفتنا أرض چارتِين سيدتي ..

لا أستطيع أن أصف السعادة التي اجتاحت داخلي حين انتهت الفتاة من كلماتها حتى أنني نهضت واحتضنتها وأطلت احتضانها ثم قبّلت رأسها كأنني صرت أمتلك سعادة الدنيا كلها .. ثم أشرقت الشمس فسألتها أن ترتدي وشاحًا أعطيته لها فوق رأسها كي لا يعرفها أحد، واتجهنا سويًا في خفية إلى كوخ الطبيب الذي تعجب حين فتح بابه بعينين نصف مُغلقتين ووجدني أمامه في ذلك التوقيت المبكر جدًا من النهار.. لم أنطق بشيء لكني أشرت إلى سبيل كي تتقدم إلى الداخل، وحين نزعت وشاح رأسها سألني الطبيب في تشكك:

- أرملة حيدر؟!

هززتُ رأسي إيجابًا .. ثم أغلقت الباب من خلفنا، وقلت في فرحة كبيرة:

- لقد حدثت المعجزة .. إن سبيل حبلى بجنين شريف ..

اتسعت حدقتا عينيه كأنه لا يصدق ما أقوله، وسألها على الفور أن تصعد إلى سرير الكشف دون أن يسمع مني المزيد، وبدأ في سؤالها أسئلة كثيرة متتالية عن بعض الأعراض الطبية، قبل أن يستخدم سماعته الطبية ويمررها على بطنها في تركيز شديد، بينما وقفتُ مكاني أشاهد ما يفعله في ترقب، حتى انتهى فالتفت إليّ وقد انفرجت أسارير وجهه بدرجة لم أرها عليه من قبل، وقال في حماس كبير:

- لقد تغيّر مصير النسالى ..

لكنه صمت بعد لحظة واحدة، وتبدّلت ملامح وجهه كأنه فكّر فيما كنت أفكر به أثناء فحصه لها، فسألتُه بصوت يشوبه القلق:

- للأحسن، أليس كذلك؟!

نظر إليّ، وأومأ برأسه إيجابًا بدون أن يتحدث.



(٤)

سيرين

أصابني الفزع الشديد حين رأيت آدم مُلقى على الأرض تسيل الدماء من قبضتيّه .. وأسرعت نحوه وجثوت على ركبتي بجواره لأتأكد أنه لا يزال حيًا .. كان قلبه يدق بقوة حين وضعت راحة يدي على صدره فيما كانت أنفاسه هادئةً للغاية .. كان الوقت متأخرًا جدًا فلم أستطع الاستعانة بأحد خاصةً مع سوء طقس تلك الليلة وعدم توقف المطر عن هطوله، فحملته إلى سريره بعدما عادت عروق جسده المنتفخة وعضلاته إلى هيئتها الطبيعية .. وأخذت أناديه باسمه مراتٍ كثيرة في قلق حذر لعله يفيق، إلى أن فتح عينيه أخيرًا، فتنفست الصعداء ..

نظر إليّ متعبًا زائغ العينين، ثم نظر باستغرابٍ إلى الغرفة من حوله كأنه لا يدري ماذا حدث، بعدها نظر إلى يديه ووجهه يُعتصر من الألم .. فقلت محاولةً أن أهدئ من روعه:

- ستكون بخير يا صغيري ..

ثم نهضت وأحضرت إناءً صغيرًا من الماء وعشبًا طبيًا مهروسًا كان لديّ وقطعًا قماشية نظيفة، وعدت إليه، وبدأت أنظف جروح يديه بالماء، قبل أن أغطيها بالعشب المهروس وأضمّدها بقطع القماش. وكأن تضميدي ليديه قد خفّف من حدة تألمه، أغمض عينيه وغاب في سبات عميق.

جلست بجواره أراقبه وهو نائم، وأفكر فيما حدث له قبل قليل، سمعتُ كثيرًا عن غرابة بعض الأطفال، واعتقدت أن آدم مثلهم، لذا كنت أتجاهل عن عمد أي رد فعل غريب له تجاهي، لكن مع ما حدث تلك الليلة شعرت أن الأمر يتجاوز كونه طفلًا غريب الأطوار، وبقي تفكيري شاردًا في هذا الأمر إلى أن طلع النهار، فتأكدت أنه يغط في نوم عميق، ثم ارتديت ثيابي الثقيلة وحذاء المطر، وأسرعت إلى طبيبٍ شاب دلتني إليه إحدى جاراتي، وأحضرته إلى بيتنا ..

قام بإزالة الضمادة التي صنعتها بعدما أيقظت آدم .. تعجب حين رأى مدى إصاباته وسأله عما أصاب يديه بتلك الجروح البالغة .. قال الصبي أنه لا يتذكر كيف أصيب بها .. كان الصدق باديًا على وجه آدم فتعجب الطبيب وبدأ يفحص فمه ولسانه قبل أن يفحص يديه مجددًا ويقوم بتطهيرها وتضميدها من جديد، ثم التفت إليّ وقال:

- حين أخبرتني أنه قد أُصيب وهو فاقد للوعي جال بخاطري في الطريق أنها قد تكون نوبةً للصرع وجُرحت يده نتيجة السقوط .. أما إصابة مثل هذه ليست نمطًا معتادًا للإصابة بعد السقوط على الأرض ..

وتابع حائرًا:

- لا أعلم كيف يصيب المرء نفسه إلى هذا الحد دون الشعور بألم يجعله يتوقف عن إحداث المزيد من الإصابة ..

وعاد إلى آدم وسأله:

- ألا تتذكر حقًا كيف أُصيبت يداك؟

هز الصبي رأسه إيجابًا، فالتفت إليّ الطبيب وقال:

- قد يكون نوعًا من أنواع الهياج خاصة مع انتفاخ عروقه بالصورة التي حدثتني عنها، لكني لا أستطيع الجزم بذلك .. أعدك أنني سأبحث في كتبي عن اجتماع هذه الأعراض سويًا وسأخبرك إن وجدت شيئًا يفوتني .. سنهتم بهذه الجروح الآن ونتمنى ألا يكررها مستقبلًا، لكن عليكِ أن تراقبيه جيدًا ..

أومأت برأسي إيجابًا، وقلت:

- حسنًا، سأفعل.



في الأيام التالية انتقلت للمبيت معه في غرفته، لم يتكرر ما حدث له تلك الليلة خلال أيام مبيتي معه، فقررت أن أبقى معه ليلًا، وآخذه معي نهارًا إلى ورشة الحدادة التي كنت أعمل بها بعدما استأذنت السيد عبود صاحب الورشة ..

على عكس بقية الصبية كان آدم يجلس جانبًا ينظر إليّ وأنا أعمل دون أن يتحرك كثيرًا، حتى أن باقي النساء ممن يعملن معي قد لاحظن ذلك. قبل أن أنتبه إلى علامات الفرحة التي كانت تظهر على وجهه كلّما أتى أحد الزبائن بحصانه لأصنع لأقدامه حدواتٍ مناسبة .. كان ينظر إلى الأحصنة بشغفٍ كبير تدرك معه تعلق ذلك الطفل بالخيول، لذا لم أتعجب حين وجدته يومًا ينهض من موضعه ويحاول أن يطعم أحد الأحصنة عشبًا اقتلعه من فناء الورشة، قبل أن يربت بيده المضمدة على غرة رأسه دون خوف، وكأن الحصان قد ألفه لم يحرك أي ساكنٍ .. ما تعجبت منه حقًا أنه نظر إليّ وابتسم لي حين خضع له الحصان .. وقتها تركت ما بيدي ومسحت يدي المتسخة بملابسي واقتربت منه، ومررت يدي على رأس الحصان برفقٍ أنا الأخرى، فضحك لي من جديد ومرر يده هو الآخر.

صرت أحب قدوم الأحصنة إلى ورشتنا من أجل آدم، وصرت أحب صناعة حدوات الأحصنة عن صناعة السكاكين والخناجر وأى شيء آخر في الورشة، وتمنيت لو أتى حصان جديد كل دقيقة، ويومًا بعد يوم وجدته يشترك معي في بعض الأعمال من تلقاء نفسه .. ولاحظت أنا والجميع أنه يستطيع حمل أكثر مما يحمله أي طفل في سنه دون

أدنى عناء، حتى أن السيد عبود قال له محفزًا عندما رآه يحمل إطارًا حديديًا ثقيلًا لا يقوى الكثيرون على حمله:

- يبدو أنك خُلقت للأعمال القوية أيها الفتى .. سأعطيك قطعة فضية في نهاية اليوم.

لكن آدم لم يعطِ لحديث الرجل أي اهتمام، كان كل تركيزه مع طفلٍ آخر في مثل عمره دلف إلى فناء الورشة وهو يجرّ بصعوبة حصانًا عنيدًا .. كان ذلك الحصان هائجًا للغاية، يقاوم -بعناد كبير- التقدم خطوة واحدة، ولا يكف عن الصهيل، بينما كانت ملامح الضيق وقلة الحيلة على وجه الطفل تقول بأنه قد تورط في جلب ذلك الحصان إلينا، فنهضت من مكاني لأساعد الطفل في جر الحصان إلى الداخل، لكني ما إن اقتربت منه حتى باغتنا الحصان ورفع قائمتيه الأماميتين فجأةً، فسقط الطفل على ظهره خوفًا وأفلت لجامه، وفي لمح البصر كان الحصان قد استدار وركض فارًا إلى الخارج عبر بوابة الفناء في اتجاه الجبال وسط صراخ الطفل بأن أباه سيقتله، لأفاجئ بآدم يترك ما بيده ويركض بسرعة كبيرة وراء الحصان .. صرخت فيه خوفًا كي يتوقف، لكنه كان قد عبر السور الطوبي المحيط بالفناء.

ركضت أنا الأخرى وراءه، وكذلك بعض الرجال الذين شاهدوا الحصان يفر، لكننا كنا متأخرين للغاية عن الحصان وعن آدم الذيّن اختفيا مع انعطاف الممر الجبلي خلف الجبل أمامنا .. ثم توقفت حين صاح فيّ السيد عبود غاضبًا كي أعود إلى الورشة لإنجاز أعمالنا المتأخرة وأترك أمره للرجال الذين ركضوا خلفه.



عدت مضطرةً إلى الورشة وأنا أنظر بكل غيظ واحتقارٍ إلى صاحبها الذي منعني من اللحاق بآدم .. وحملت مطرقتي، وبدأت أدق الحديد المشتعل في غضب وعيني بالخارج تبحث عن عودته، كنت كل ما أخشاه أن يفقد الرجال أثره بين المنعطفات الجبلية المتشعبة التي لا يعرفها سوى أهل بريحا. كانت عيني تذهب بين الحين والآخر إلى الطفل الباكي أمام الورشة، والذي لم يكف عن العويل والصراخ بكلمات عن العقاب الذي ينتظره من أبيه إن لم يعد ذلك الحصان .. وكان قلبي ينخلع كلّما عاد أحد الرجال من وراء الجبل بمفرده مُعلنًا يأسه من اللحاق بالحصان الهارب بدون أن يتحدث عن آدم، ومع مرور الوقت عادوا جميعًا واحدًا وراء الآخر، قالوا بأنهم فقدوا أثر الحصان والفتى .. رجوت السيد عبود بأن يسمح لي بالذهاب، لكنه أقسم بأنني لو تحركت خطوة واحدة خارج الورشة لن أعود إليها مرة أخرى .. عدت إلى مطرقتي لأطرق الحديد بقوة كأنني أطرق جمجمة رأس ذلك الرجل، حتى فاض بي الكيل، فألقيتُ بالمطرقة جانبًا، وكدت أصرخ به لأخبره بأنني ذاهبة إلى خلف الجبل للبحث عن طفلي .. لكني لم أكد أخطو خطوة واحدة حتى وجدت الطفل الباكي قد توقف فجأة عن عويله، ونهض من رقدته على الرمال، ليصرخ إليّ فرحًا:

- لقد عاااد ..

قبل أن يركض مبتعدًا عنا، نظرنا جميعًا بعيدًا، كان آدم قد ظهر في الأفق يركب على صهوة الفرس بكل ثقة، ويسير به نحونا في تؤدة وهدوء بالغ وسط تعجب الجميع وأولهم أنا، حتى اقترب منه الصبي الباكي فنزل عن الحصان، وأمسك بيده ليربت بها على مقدمة رأسه

مثلما اعتاد أن يفعل مع الخيول .. مشيت بخطوات متسارعة نحوهما دون أن أستأذن السيد عبود .. كانا قد بدآ حديثهما وأنا في الطريق إليهما .. ثم اقتربت منهما عندما شبّك آدم يديه بجوار الحصان ليساعد الصبي الآخر على ارتقائه .. أتذكر نظرات الإعجاب في أعين ذلك الصبي تجاه آدم وهو يبتعد بحصانه عنا، بينما وقف آدم بجواري يودعه بيده مبتسمًا، ليصيرا منذ ذلك اليوم صديقين حقيقين لم أرَ في صداقتهما قط، الطفل الباكي زهير وطفلي آدم. لم يفترقا حتى وصلا سن البلوغ وحدث ما حدث.

(٥)

فاضل

لم أعرف ما أقوله حين سألتني غفران إن كان مصير النسالى قد تغيّر للأحسن أم لا بعدما تيقنَّا من حمل سبيل بجنينٍ حي، كل ما جال في ذهني هو ما قد يفعله أشراف چارتين بعد معرفتهم بأن هناك شريف سيُولد من نسل النسالى، وخاصةً بعد ما رأيته يحدث للنسالى خلال الشهور القليلة التي عشتها بينهم، حتى غفران التي جاءت مع سبيل يحمل وجهها كل حماس الدنيا، بدت وكأن حماسها قد انقشع عن داخلها، لتبقى الحقيقة التي لا بد وأن نعترف بها؛ لن يرضى سادة چارتين بوجود هذا الجنين أبدًا.

ثم كررت سؤالها لي مرة أخرى بعدما استغرقتُ في تفكيري ولم أجبها:

– تغيّر مصيرنا للأحسن، أليس كذلك؟

فنظرت لها، وقلت في ابتسامةٍ مطمئنة:

– بلى، للأحسن.

بعدها سألتُ سبيل أن تغطي بطنها المكشوفة، وتنهض من سرير الكشف، وتابعت كلامي وأنا أوجهه إلى غفران:

- ما زال أمام ولادة الطفل قرابة أربعة شهور، سأحسن العناية بسبيل حتى يُولد طفلها.

نظرت غفران إلى سبيل وهي تنهض من على سرير الكشف، وهزت رأسها إيجابًا في صمت، فسألتُها بعدما جلستُ على مقعدي:

- ماذا سيثبت أن هذا الجنين شريفٌ؟

نطقت سبيل بسرعة:

- أقسم أنني لم أذهب إلى الباحة بعد إعدام حيدر ..

قلت:

- لا أشكك في قولك يا سبيل، لكني أقصد كيف سنثبت للأشراف ذلك؟

قالت غفران:

- لا يوجد أيُ توثيق لدخول نساء النسالى إلى الباحة أو تسجيلٌ لمن تحصد روحًا لجنينها داخل أسوارها، لكن القواعد أوصت بانتماء المولود للأشراف إن كان هناك زواج شرعي لوالديه في باحة جويدا قبل ولادته على الأقل بسبعة أشهر، وهم يعلمون جيدًا وخاصةً كيوان أن ذلك الزواج قد تم بالفعل هناك وإن لم يتم على المنصة ..

تساءلتُ وأنا أعلم إجابة سؤالي:

- هل سيعترفون بذلك الزواج؟

سكتت لهنيهة ثم قالت:

- لا أعرف، لم يرضَ قاضي المنصة يومها بأن يتم الزواج على منصة الباحة قائلًا بأنها ليست مكانًا للأنجاس النسالى ..

وأضافت واجمة:

- يقولون أنهم يسيرون طبقًا لقواعد چارتين، لكنهم في الحقيقة يأخذون منها ما يخدم مصالحهم فقط، فإن عارضت قاعدة واحدة مصالحهم ضُرب بها عرض الحائط مبررين ذلك لضمائرهم بأنه لا مانع من تجاوزها في سبيل أمانهم ..

ونظرت إلى سبيل وهي تقول:

- يعلم الجميع هنا أن حيدر قد تزوّج من سبيل داخل الباحة، وأن هذا الجنين ليس إلا شريفًا طبقًا للقواعد ذاتها التي جعلتنا نسالى ..

وصمتت للحظة، ثم تابعت بنبرة قلقة:

- لكن كيوان الذي جرّ أحد عشر شابًا ليُعدموا ظلمًا على المنصة لن يتوانى عن تقديم اثنين آخرين إلى المنصة ذاتها، أو قتلهما بسلاحه الناري إن اقتضى الأمر، وهذا ما يشغل تفكيري ..

إن أعلنّا للنسالى خبر حمل سبيل سيزداد حماسهم ويستعيدون ثقتهم التي فقدوها بأنفسهم منذ يوم الحريق، وقد يقدم المزيد منهم على الزواج وتكرار تجربة حيدر وسبيل .. لكن سيكون هناك من يسرّب الأمر إلى الأشراف، ووقتها ستكون سبيل وجنينها في خطر حقيقي ..

وإن أخفينا الأمر قد نضمن سلامة سبيل وجنينها، لكنه سيُولد وسيعيش مثل النسالى إلى أجل لا نعرفه، ويبقى دم الأحد عشر الذين أعدموا قد ضاع هباءً.

وزمت شفتيها حيرةً وسكتت تفكر .. ثم نظرت إلى سبيل من جديد وقالت:

- ما رأيك يا سبيل؟

أجابت الفتاة:

- لو أردته نسليًا لذهبتُ إلى باحة جويدا لحصد روحٍ له دون أن أنتظر ..

ونظرت إليّ، وسألتني:

- ورأيك يا فاضل؟! .. إنني في حيرة كبيرة ..

سكتُ لبعض الوقت مفكرًا، ثم قلتُ:

- لنلقِ بالكرة في ملعب النسالى .. أعلم أنكِ تخافين عليهم وتخشين على سبيل وطفلها من معاناةٍ حقيقية قادمة، لكن أعتقد أن الأوان قد جاء ليختار النسالى مصيرهم ..

لا بد أن يعلموا بحمل سبيل .. ولا بد أن يدركوا أن معاناتهم ومعاناتك الشهور الماضية لم تضع هباءً، وأن أمامهم خيارين لا ثالثَ لهما .. إما أن يكون مستقبل أرواحهم كلهم مثل هذا الجنين .. أو يقضوا لياليهم فارين من أشقياء الأشراف وفرسانهم إلى أن تحصدهم طلقاتهم النارية واحدًا وراء الآخر.

لو أردتِ رأيي .. فأنا أرى أنه تبقى سبيل بيننا، وليعرف مَن يعرف، بل سنعمل نحن على انتشار خبر حملها بجنين شريف إلى كل أرجاء چارتين .. وأن يكون حملها مسار حديث كافة مجالس الأشراف.

لقد عشت بينهم لسنوات طويلة، وتعلمين أنهم يدّعون دائمًا أن القواعد لَا تظلم أحدًا، في كتبهم، في مدارسهم، في خطبهم، يتغنون بأن النسالى لهم حقوق الأشراف طالما ساروا على الصراط المستقيم ولم يرتكبوا الجريمة .. حسنًا، سيعلم كل شريف في هذا البلد أن هناك نسلية تحمل جنينًا شريفًا ..

سيسلطون أنظارهم نحو حكامهم ليروا ردة فعلهم ومدى صدق حديثهم فعلًا ..

وأكملتُ بهدوء:

– لن يستطيعوا فعل شيء لسبيل من أجل أن تبقى صورتهم في نظر العامة كمحققين للعدالة .. حان الوقت لنستغل عدالتهم المزيفة.

وأردفتُ لها باسمًا:

– لقد فعلتها من قبل دون أن تدري يا غفران .. حكى لي ريان عن قصتك أَنت ونديم .. كان خير ما فعلته وقتها أن خبر حبكما قد انتقل للعَامة، كان ذلك حمايةً له ..كان أمركما على وشك الإتمام لولا الجريمة التي ارتكبها نديم قبلها بشهر.

أومأت غفران برأسها إيجابًا، ثم قالت بنبرة قلقة:

- ربما لم يكن لكيوان هذا النفوذ وقتها ..

قلتُ:

- لو كنت مكان كيوان وعرفت أن إحدى النسليات تحمل جنينًا شريفًا سأنتظر خوف الفتاة مني وأن تختفي بجنينها، لأبحث عنها، وأقتلها هي وجنينها دون أن يدري أحد من الأشراف ولتكن عبرة للنسالى .. لكني لن أتوقع أبدًا أن يواجهني النسالى محتمين بترقب الأشراف لردة فعلي، سأصاب بالارتباك وسأفكر كثيرًا في كل خطوة قبل اتخاذها .. سأعمل فقط على ألا يتكرر الأمر .. سأزيدُ جرعة الظلم للباقين، سأجعلهم يكرهون اليوم الذي حملت فيه سبيل .. وفي الوقت ذاته سأنتظر فرصة خطأ واحد لتلك الفتاة .. وقتها سأقتلها بيدي على منصة الباحة ..

فقالت سبيل:

- وأنا لن أخطئ خطأً واحدًا إلى أن يأتي جنيني.

فقلتُ لها:

- سيجنّ جنون كيوان مع باقي النسالى، لكنه لن يقترب منكِ.

فنظرت إليّ غفران، وبدا على وجهها الاقتناع بما قلته، وقالت باسمة:

- حسنًا، لنستغل عدالة چارتين المزيفة .. ولنُعلم النسالى إذًا ما ينتظرهم.



مع منتصف النهار كان كثيرٌ من شبان النسالى وفتياتهم قد حضروا إلى الفناء الأمامي لمدرسة غفران التي بناها ريان ومن معه .. لم يكن يعرف أحد ما الأمر سواي أنا وغفران، حتى ريان الذي كان قد حضر وجلس في الصف الأمامي بجواري بدت على وجهه علامات التعجب من ذلك الاجتماع المفاجئ، وسألني عن الأمر .. فلم أرد أن أفسد له المفاجأة، وأجبته بأن هناك أمرًا هامًا تود غفران إخبارنا به، دون أن أقول أي شيء عن سبيل وطفلها.

امتلأ الفناء عن آخره بالنسالى، ووقف كثيرون آخرون في المنطقة المتسعة خارجه لعلهم يسمعوا ما ستتحدث به السيدة .. ثم خرجت إلينا غفران في ثوبها المنزوع الكتف يلمع وشمها الأزرق مع أشعة الشمس المتقدة فوقنا .. فأشار الشبان إلى بعضهم البعض كي يصمتوا، وهدأ ضجيجهم ..

ما كنت أحبه حقًا في غفران أنها قد تبدي قلقها أو تخوفها من أمر ما في حوارها معك بالغرف المغلقة، أما ما إن تظهر للعامة فلن تجدٍ إلا تلك الفتاة القوية، فتاة المنصة التي لا يعرف الارتباك موضعًا على وجهها. نظرت نحوي أنا وريان لثانيةٍ، فابتسمتُ مشجعًا لها، فحركت عينيها إلى الحاضرين وقالت:

- قديمًا كنت أوجّه حديثي إليكم وأنا ضيفة لديكم، أما اليوم فأحدثكم وأنا واحدة منكم، نسليةٌ يسري عليها ما يسري عليكم ..

كان حلم نديم قبل عشر سنوات أن تتحسن أوضاع النسالى، وسعى جاهدًا لذلك .. وبيدي أضعت ذلك الحلم .. ثم جئت إلى هنا لأحيي حلمه مرة أخرى .. سعينا إليه معًا .. يومًا وراء

آخر.. عامًا بعد عام .. كي نذيب ذلك الحاجز بيننا وبين أشراف چارتين، وأن نزيل القشرة التي لطالما غلّفتنا وغلّفت من سبقونا، والتي سمحت للأشراف بأن يكنّوا لنا كل هذا الاضطهاد ..

اقتنع الأشراف أننا الطبقة الدنيا في هذا العالم .. وعاشوا على ذلك الأساس ينقلون كرههم لنا من جيلٍ إلى جيل، في كتبهم، في جلساتهم، في حكاياتهم .. وانتقل ذلك الشعور إلينا، فقدنا الإحساس بأننا بشر وصدّقنا أننا بهائم نعيش من أجل الشهوة فقط لا غير .. قتل .. رذيلة .. قطع طرق .. سرقة، وفي النهاية نُقتل كالنعاج على منصة چارتين بذنب أو بدون ذنب، لنسلّم أرواحنا الآثمة إلى أطفال قادمين ينتهجون الطريق ذاته .. دائرةٌ لا تنتهي، كأنه المسار الإجباري الذي لم يكن علينا مخالفته قط .. إلى أن انحرفنا أخيرًا عن ذلك المسار بزواج حيدر من سبيل قبل خمسة أشهر ..

أعلم أنها كانت شهورًا صعبة للغاية .. عليكم وعليّ .. ولكني من اليوم الأول كنت أعلم أن تغيير مصائر الأقوام لطالما ارتبط بأكثر الآلام شدة .. وما زلت أؤمن بأن ذلك الأمر مهما طال سيمر.

وعادت خطوتين إلى الخلف، واستدارت لتشير إلى سبيل التي كانت متوارية بداخل كوخها، فتقدمت سبيل ووقفت أمامنا، فشهق الجميع وهمهموا غير مصدقين عودتها، فأكملت غفران بصوتٍ قوي:

- أيها السادة إنكم هنا اليوم لأخبركم بأن أرض چارتين قد أوفت بوعدها لنا، وتركت مصيركم بأياديكم .. إن سبيل تحمل بداخلها أول جنين شريف من نسل النسالى.

زادت الهمهمات إلى حدٍ غير مسبوق، واستحالت تعابير الوجوه من حولي إلى وجوه غير مصدقة وأخرى مشدوهة مترقبة، وأخرى فرحة، وأخرى قلقة، وأخرى متحمسة .. كنت تستطيع رؤية كافة تعابير الوجوه في ذلك الوقت، كان أكثرهم حماسةً ريان الذي احتضنني بعدما أردفت غفران:

- حصدت سبيل روح جنينها خارج أسوار الباحة في يوم غير أيام الغفران .. وأقر الطبيب فاضل سلامة الجنين ..

وأضافت في حماس:

- أيها السادة .. قبل هذا اليوم كنا نسعى نحو حلم كنا نراه صعب المنال ونشكك في وجوده .. أما اليوم فصار الحلم واقعًا بيننا ..

وأشارت بيدها في اتجاه جويدا حين قالت:

- الآن بات لديكم الخيار، إما نسلٌ يعيش بكرامته مثلهم .. أو نبقى للأبد بين كوننا فتيات للرذيلة ومرتكبين للجرائم، تسعدهم كثيرًا فقرة إعدامنا على المنصة.

ونظرت إلى سبيل وقالت:

- تعلمون ما سيحدث حين يعرف أشراف چارتين بأمر هذا الجنين .. اليوم يبدأ التاريخ كتابة فصلٍ جديد عنكم، اليوم يبدأ الألم الحقيقي، وإن كنا قد تحملنا ما لا يطاق خلال

الشهور الماضية .. فالقادمٍ سيكون ألمه مضاعفًا مرات المرات من أجل أملٍ انتظرناه طويلا.

جاءت الفتاة لتحموها وتحموا طفلها .. لن تحموا ابنها فحسب بل ستحمون نسلكم القادم .. بأياديكم سيُحدد مصير هذا الطفل، إما أن يصير مثلكم ويعاني الويلات على مدار سنوات عمره، أو يعيش بدون وشمٍ ليأتي يومٌ ننزع فيه جميعًا الأوشام عن أكتافنا ..

والتقطت أنفاسها، وقالت بنبرة هادئة مسموعة:

- قبل خمسة عشر عامًا تخرجتُ من مدرسة الضباط وأقسمت أن أدافع عن قواعد چارتين .. اليوم أقسم أمامكم أنني سأدافع عن هذا الجنين إلى آخر نفس لي حتى يحصل على حقوقه الكاملة مثله مثل أي شريف چارتيني ..

صاح صوت مفاجئ من الصفوف الخلفية:

- وأنا معكِ سيدتي..

ثم صاح صوت آخر:

- وأنا كذلك سيدتي ..

وصاحت أخرى:

- وأنا كذلك ..

صاح ريان:

- وأنا كذلك ..

صحت أنا الآخر:

- وأنا كذلك ..

صاح كثيرون من بعدي، وبدأت الفتيات يطلقن زغاريدهن، فيما وقفت غفران أمامنا بثباتها المعهود تنظر نحونا، ثم نهض النسالى من جلوسهم يحمسون بعضهم بعضًا، ويهنئون سبيل، وتوالت الفتيات على احتضانها، فاقتربتُ من غفران التي تحركت جانبًا لتفسح المجال للفتيات اللاتي التففن حول سبيل، وقلت لها باسمًا:

- فعلتِ الصواب.

فقالت بابتسامةٍ رائعة:

- اقتبستُ كثيرًا من حديثك لي بالصباح ..

قلت:

- إنكِ سيدة هذا الوادي حقًا ..

ضحكت وقالت:

- لنُرِ كيوان أن تفوقي عليه بالمدرسة العليا لم يكن محض صدفة.



(٦)

زهير

لا زالت السيدة سيرين تدعوني بالصبي الباكي منذ ذلك اليوم الذي عرفتُ فيه صديقي الأوحد وكاتم أسراري آدم، وإن مرّ على ذلك اليوم وقت طويل.

اسمي زهير .. الابن الأوسط لأبي، بين أخ يكبرني بعام واحد يُسمى كرم وأختٍ تصغرني بثلاثة أعوام تُسمىً فيروز .. صرتُ أنا وآدم صديقين بعدَ ذلك اليوم الذي أنقذني فيه من ضربٍ مُبرح كان في انتظاري عندما أعاد لي حصان أبي الهارب، ومن يومها ولم يمر يوم دون أن نلتقي ..

كنا نلتقي قبل غروب الشمس بعدما يفرغ من عمله، أحدثه عما درسته في التاريخ بينما كان حديثه كله عن المهام الجديدة التى كلّفه بها صاحب الورشة أو الخيول التي ركبها. في البداية كنت استغرب أنه شريفٌ ولا يلقى تعليمًا مثلنا، لكني مع الوقت عرفت مدى حبه للعمل في ورشة الحدادة عن القدوم إلى مدرستنا، كعادة الصبية

العاملين الذين يجنون أموالًا في سن صغيرة .. كذلك عرفتُ من الأيام الأولى أن أباه وأمه قد ماتا في جويدا، وتولّت تربيته خالته السيدة سيرين التي فرحت كثيرًا بصداقتنا بعدما كان يتجنب الحديث إلى الكثيرين، وصار طفلًا طبيعيًا على حد قولها ..

على عكسي تمامًا كان آدم بارعًا للغاية في ركوب الخيل .. وأدركت من اليوم الأول أنه لو استمر بهذه البراعة سيكون فارس چارتين الأول قبل أن يتم عامه العشرين .. كانت براعته تلك تذكرني ببراعة عمي كيوان .. أفضل من يصوّب بسلاحه الناري في چارتين، أرادني أبي دومًا أن أصير مثله وألتحق بمدرسة ضباط الأمن، لكني لم أُخلق لأكون ضابطًا للشرطة أو فارسًا أو حتى كيميائيًا مثل أبي، خُلقت لأدرس التاريخ .. أحبه كثيرًا وقرأت الكثير من كتبه رغم سني الصغيرة، وأعلم أن هناك المزيد والمزيد من بحر تاريخ چارتين ما زال في انتظاري لأسبر أغواره. وإن كان عمي كيوان في طريقه ليصير ضابط چارتين الأول، وأبي من خيرة كيميائي چارتين، فإنني سأسعى جاهدًا لأكون مؤرخ چارتين الأول قبل بلوغي الخمسين.

كان آدم فطنًا للغاية رغم أنه لم يتعلم القراءة والكتابة، ومع كل يوم كان ينال إعجاب السيد عبود فيعطيه مهامًا إضافية وأجرًا أكبر .. حاولتُ كثيرًا خلال مرات لقائنا أن أعلّمه كيفية كتابة الحروف وقراءتها لكنه كان سريع التململ ولا يدعنا نكمل، قبل أن يغيّر مجرى الحديث إلى أي شيء آخر أو ينهض ليركب فرسه التي اشتراها من

أجره، ويركض بها جيئةً وذهابًا بالسهل المنبسط أمام التلة الرملية التي كنا نجلس عليها .. كررتُ محاولاتي معه، كان يفعل ما يفعله كل مرة إلى أن يأست من رغبته في التعلم ..

في أحايين كثيرة عندما كنت أصحبه معي إلى بيتنا كان أخواي يسخران منه بسبب عدم تعلمه، إلا أنه كان يقابل سخريتهما بضحكة صافية، ذات مرة سخر منه أخي كرم قائلًا:

- إنك تشبه النسالى ..

وتابع:

- إنهم لا يتعلمون .. مثلك ..

وقتها احمرّ وجهي لما تسبب به أخي من إحراج صديقي وإهانته، لكن آدم نظر إليه حينها، وقال بعدما صمت لهنيهة:

- لا أعتقد أن هناك نسليًا يستطيع صنع سلاح ناري مثلي ..

نظرنا بانبهار نحو آدم أنا وأخي وأختي، وسألته أختي بتشكك:

- هل تستطيع حقًا صناعة سلاح ناري؟!

أجابها آدم هادئًا:

- نعم .. نقلني السيد عبود إلى ورشة الأسلحة النارية ..

فقالت متباهية:

- بدون أبي لا قيمة لأسلحتكم التي تصنعونها ..

كانت محقةً بعض الشيء، كان أبي كيميائيًا متخصصًا في صناعة البارود الذي تُعبأ به طلقات الأسلحة النارية وقذائف المدافع بشتى أنواعها ..

أومأ آدم برأسه إيجابًا، وقال:

- نعم .. هكذا خُلقت الدنيا لمختلف الأعمال .. سأكون صانعًا ماهرًا للأسلحة النارية .. والدك ومن معه يصنعون البارود .. زهير سيكون دارسًا للتاريخ .. وأنتِ ربما تصيرين طبيبة .. كلٌّ له عمل مخصص يخدم به چارتين وأهلها ..

وصمت لثانية وأكمل:

- أو لا يخدمها .. إن كان غبيًا متعجرفًا ..

كنت أعلم أنه يلمّح إلى كرم .. كان أخي يشبه عمي كيوان إلى حد كبير، متعجرف منذ صغره، كثير المشاكل مع زملائه بالمدرسة ومعلميه، يكره بريحا وينتظر اليوم الذي يذهب به إلى جويدا، وإن كان ذلك لا يعيبه فأنا أيضًا كنت أتمنى الذهاب إلى جويدا حيث المدينة الأكثر تحضرًا وتقدمًا عن مدينتنا الصغيرة البعيدة، والباحة التي حكى لي أبي عنها كثيرًا، والاحتفالات التي تدور فيها، ونساء النسالى السافلات اللاتي يحصدن أرواحًا لأطفالهن .. حكيت لآدم ذات مرة عن حلمي بالذهاب إلى هناك، كنت أعلم أنه عاش لفترة هناك قبل أن تأتي به السيدة سيرين إلى مدينتنا .. قال أنه يتذكر الباحة وروعتها، وحدثني عن القائم الجانبي الذي تسلقه ذات مرة كي يرى ما يحدث على منصتها .. سألته في ترقب وقتها إن كان قد رأى نسليًا يُقتل على المنصة، قال وهو يتذكر:

– بكل تأكيد .. لقد رأيت أحدهم يُقتل ..

كنا يومها نجلس فوق التلة ليلًا، وكانت السماء صافيةً ممتلئةً بالنجوم، فاستلقيت بظهري على الرمال، وقلت وأنا أنظر إلى السماء:

– سأذهب إلى جويدا يومًا ما .. هناك يُكتب تاريخ چارتين الحقيقي ..

ونظرتُ إلى صديقي، وقلت:

– هل ستأتي معي إلى هناك وقتها؟

قال ضاحكًا:

– أظن أن سيرين لن ترضى بذلك أبدًا ..

ضحكتُ، وحدثته عن عمي ضابط الأمن المُكلف بقضايا النسالى في جويدا، وعن سلاحه الناري الذي يردي من يعترض قتيلًا من تصويبةٍ واحدة، وعن حكاياته التي تصلنا مع القادمين من هناك، وقسمه على المنصة بألا يترك نسليًا واحدًا من نسالى چارتين، وقلت باسمًا:

– سأكتب يوما كتابًا كبيرًا عن چارتين .. ربما أذكر فيه فصلًا كاملًا عن عمي كيوان ..

وأكملت بعدما لاحظت أن آدم قد شرد بنجوم السماء:

– سأذكر الحقيقة لا غير .. لن أجامله وإن كان عمي ..

ابتسم صديقي وقال مازحًا وهو يلتقط حجرًا صغيرًا ليدحرجه من فوق التلة كعادته:

- لا تنسَ أن تكتب فصلًا عني أنا الآخر ..

ضحكت وقلت:

- حسنًا، فصلٌ كامل باسم آدم .. فارس چارتين الأول ..

فضحك، واستلقى بظهره هو الآخر إلى الرمال، ليواصل شروده بين أفكاره.

هكذا مرت أيامنا سويًا كأي صبيين في عمرنا تسير أيامهما في سلام بين مزيج من الجد واللهو .. ومع مرورها ازدادت معرفتي بمعلومات أكثر عن تاريخ بلدنا، كذلك ازدادت قوة آدم العضلية في ظل تكليف السيد عبود له بأعمالٍ أكثر قوةً وتعقيدًا، حتى صار ترويض المعادن أسفل مطرقته ليصنع به ما يشاء مسار حديث الجميع في مدينتنا وأولهم زملائي في المدرسة .. إلى أن بلغت عامي السادس عشر ومعه كانت زيارة عمي كيوان الأولى إلى بريحا منذ سنوات طويلة ..

أدركتُ من الوهلة الأولى أن زيارة عمي لم تكن مجرد زيارة عائلية لأخيه وأبنائه، بل بدا أن هناك سببًا آخر قويًا وراء تلك الزيارة، وخاصةً بعدما اجتمع بأبي في غرفته المكتبية بمفردهما لقرابة الساعتين بعد تناولنا الغذاء .. لأوقن وقتها أن شأنًا عظيمًا قد حدث في جويدا، ومعه احتاج عمي إلى الاستعانة برأي أبي أو ربما الاستعانة بما يصنعه في معامله .. لكن ما جعل الدماء تندفع إلى عروقي حقًا، حين سألتني أمي أن أقدّم لهما مشروبًا ساخنًا قامت بإعداده فدلفتُ إلى غرفتهما فجأةً دون استئذان، فوجدتهما يقفان حائرين أمام

مخطوطة جلدية قديمة بدا أن عمي قد أحضرها معه من جويدا، ثم توقفا عن الكلام لمّا دخلت عليهما بغتةً .. فأدركتُ أهمية ما يتحدثان بشأنه واعتذرت عن دخولي المفاجئ، لكن عيني ذهبت إلى الرسمة ذات الألوان الواضحة المرسومة بالمخطوطة ..كانت لشخص عارٍ تمامًا مفتول العضلات يبدو كوحش .. خاصةً مع عروق جسدهِ المنتفخة وفمه المفتوح عن آخره كحيوان يزأر .. كان مُكبلًا بسلاسلٍ حديدية غليظة من رقبته وأطرافه الأربع، فيما يمسك بأطرافٍ السلاسل الأخرى بضعة أشخاصٍ عاديين مثلنا يبدون أقل حجمًا بالنسبة له، وتظهر على وجوههمٍ ملامح الخوف منه .. قبل أن أنتبه إلى وشم النسالى المتواجد على صدر ذلك الوحش المرسوم.



(١١)

ريان

كان الوقت قد اقترب من غروب الشمس حين انصرفت آخر مجموعة من الشبان والفتيات الذين تجمعوا بمدرسة السيدة غفران، لم يبقَ غيري أنا وناردين وسبيل مع الطبيب والسيدة .. كان وجه السيدة لا يزال شاردًا بعض الشيء فيما وقف الطبيب جانبًا يراقب تعبيرات وجهها في صمت كأنه يعرف ما تفكر به، فقطعتُ ذلك الصمت قائلًا:

- سيسري خبر حمل سبيل كالنار في الهشيم بين أرجاء وادينا ووديان النسالى الأخرى ومن ثمّ إلى مدن چارتين .. ستعرف چارتين كلها هذا الخبر قبل شروق الشمس ..

فابتسمت سيدتي وقالت مازحة:

- لنحافظ على سبيل إذًا حتى شروق الشمس ..

قالت ناردين:

– تستطيع أن تأتي معنا إلى الوادي المظلم الليلة ..

قالت سيدتي:

– لن تأتي معكم سبيل بمفردها، سآتي أنا الأخرى، وقد يرافقنا الطبيب إن أراد .. علينا أن نحتفل بهذا الطفل الشريف ..

ورمقت الطبيب بطرف عينها وهي تقول:

– لا أعتقد أن الطبيب قد سمع موسيقا الشامو من قبل ..

ضحك الطبيب وأومأ برأسه نافيًا، فقلت فرحًا:

– حسنًا سأخبر الشبان بأننا سنرقص الشامو الليلة ..

قالت السيدة:

– من الغد ستبقى سبيل معي في كوخي .. أعتقد أنني ما زلت أستطيع ركل مؤخرة أحدهم إن حاول الاقتراب منا ..

ضحكنا جميعًا، ثم تركتهم لأسرع بإبلاغ الشبان أن السيدة والطبيب سيتواجدان معنا تلك الليلة بالوادي المظلم.

كان الطقس في تلك الليلة رائعًا خاصةً مع لسعة الهواء الباردة التي كانت تداعب وجوهنا، كأنه أراد أن يهنأنا هو الآخر بحدثنا الهام.

أُشعلت النيران في إطارٍ دائري في الوادي المظلم .. كان الشبان والفتيات قد حضروا قبل حضور السيدة والطبيب وسبيل ليكون حضورًا هو الأكبر منذ لجوئنا إلى الوادي المظلم .. فيما كان العدد الذي تبقى بوادي النسالى قليلًا للغاية بين رجال نسالى لم يرغبوا في القدوم معنا ونساءٍ أخريات كان أغلبهن أكبر سنًا، كنا نعلم أنهن لم يتخذن مسارنا قطٍ يومًا ما .. بل كنَّ من منتظري الأشراف لينالوا عملاتهم النحاسية مقابل ما يقدمهن لهم في المقابل، كما عودتنا السيدة غفران لم نحجر على فعل أحد .. كل واحد حر فيما يفعله وله الحق في اختيار حياته، غير أن بقاءهن تلك الليلة خصيصًا كان سيساعد في انتشار خبر حمل سبيل بطفلها الشريف إلى رجال الأشراف بقصد أو بدون قصد ..

كانت تلك الليلة المرةَ الأولى التي يُضاء فيها الوادي المظلم بهذا الشكل .. لطالما اعتبرناه مخبأً من عيون الأشقياء، أما ذلك اليوم فكان للاحتفال وحسب، وليأتِ مَن يأتي من الأشقياء الجبناء أو من رجال الشرطة إلينا .. كنت أعلم أن ذلك لن يحدث، هم جبناء للغاية، يعلمون جيدًا أن قدومهم إلى ذلك الوادي لن يكون نتيجته إلا لقاء حتفهم، ربما كانت تلك الميزة الوحيدة من سمعة النسالى السيئة .. وإن لم يرتكب أحد من الحاضرين جريمة قتل من قبل. لم نكتفِ بالنيران المشتعلة فقط بل انضم إلينا العازفون تاركين الحانة تلك الليلة، كان الجميع في قرارة نفسه يود أن يشاركنا فرحتنا، ثم حضرت السيدة والطبيب وسبيل فدقّت الموسيقا، كانت المرة الأولى التي تدق فيها موسيقا الشامو منذ ليلة الحريق الهائل بالوادي .. تلقتها آذاننا بشوقٍ كالظمآن الذي تذوق ماءً عذبًا بعد

أيام طويلة من تشقق حلقه عطشًا .. ثم نهض أول الشبان ومد يده إلى فتاة كانت تجلس على بعد خطوات منه فنهضت وتقدّمت معه إلى منتصف الدائرة أمامنا حيث غطى كل منهما عينيه بعصبةٍ قماشية ليبدآ رقصتهما .. ثم نهض فتى وفتاة آخران، وبعدها نهض كثيرٌ من الشبان والفتيات .. كان الطبيب يراقب حركات الراقصين وهم يتحركون بانسيابية بالغة دون أن يرتطم أحدهم بالآخر وهم معصوبي الأعين، بينما تصدح موسيقانا في سماء الوادي دون أيّ خوف أو قلق من قدوم مفاجئ لأشقياء الأشراف أو ضباطهم بعدما كلّفت السيدة بعض الشّبان بمراقبة الجهة المواجهة لوادينا والإبلاغ عن قدوم أي شخصٍ أو عربة.

كانت علامات الدهشة على وجه الطبيب تضحكني للغاية .. سابقًا رأيت تلك العلامات على وجه السيدة حين رأت رقصتنا للمرة الأولى، لكني فوجئت حقًا عندما وجدت الطبيب ينهض ويمد يده إلى السيدة غفران كي تنهض وترقص معه .. وقتها نظرت أنا وناردين وسبيل إليهما غير مصدقين ما يحدث في انتظار ردة فعل السيدة، فنظرت إلينا وضحكت، وقالت مازحة:

- يبدو أن الطبيب لا يكف عن تذكيري بكوني نسليّة ..

ثم مدت إليه يدها ونهضت، فصرخنا مهللين من الفرحة عندما تقدّما إلى منتصف الدائرة، حتى أن بعض الشبان قد أزالوا عصبهم القماشية عن أعينهم ليروا سبب ذلك الصياح المفاجئ، وهلّلوا معنا حين وجدوا السيدة والطبيب يقفان بجوارهم في انتظار بدء رقصتهما .. ألقيتُ عصبةً قماشية إلى الطبيب، وألقت ناردين عصبتها إلى

السيدة، وقام كل منهما بإخفاء عينيه، ثم بدآ رقصهما على موسيقا العازفين، فوضع باقي الشبان عُصبهم من جديد، وأكملوا رقصهم في حماس هم الآخرون .. بينما جلست أنا ونادين وسبيل وعدد قليل من الشبان والفتيات نشاهدهم وهم يرقصون .. ونضحك مقهقهين كلما ارتطم الطبيب بين حين وآخر بشاب أو فتاة بجواره .. غير أننا لاحظنا جميعًا أن السيدة غفران تجيد الرقص وكأنها وُلدت نسليّة .. كنت سعيدًا للغاية بتلك الضحكة البادية على وجهها وهي ترقص .. كنت أعرف أنها تستحق كل لحظة سعيدة بعد ما تكبدته من أحزان داخل وادينا ..

مع الوقت صار رقص الطبيب أفضل إلى حد ما وقلّ معدل ارتطامه بمن حوله إلى حدٍ معقول، فأطلقنا صفيرنا نشجعهما، وكأن ذلك قد أثار حماس السيدة ففاجئتنا بدورانها ليتطاير فستانها مع الهواء، فصرخت الفتيات فرحًا ..

نهضتُ ومددت يدي إلى ناردين لنرقص نحن الآخرين، لم نكن لنفوّت تلك الرقصة التاريخيّة من رقصة الشامو، ومكثنا نرقص جميعًا إلى أن تمكن التعب منا .. حين أزلتُ عصبتي القماشية كان العرق قد بلّل وجه الطبيب بينما ظلت ملامح السعادة منطبعة على وجه سيدتي، لمحتها تنظر إلى الطبيب بامتنان كأنها تشكره بعدما أتاح لها تلك اللحظات من السعادة، بعدها عدنا إلى أماكننا، وجلسنا نتحدث عن أمورٍ كثيرة بشأن ما نصنّعه حتى وقت متأخر من تلك الليلة.



مرت تلك الليلة والليالي التي تليها دون أي جديد يُذكر أو ردة فعلٍ مختلفة من الأشراف .. تولّت سبيل تعليم الفتيات الصغيرات مع ناردين نهارًا، أما ليلًا فواظبت على الحضور إلى الوادي المظلم مع السيدة، لكننا لم نشعل النيران أو نرقص الشامو مرة أخرى.

مع كل يوم كنا نتأكد أن خبر طفل سبيل ينتشر إلى مكانٍ جديد .. في الحقيقة ساعدت فتيات الرذيلة في انتشار ذلك الأمر بصورةٍ كبيرة، أمَّا العامل الأكبر لانتشاره فكان وجود يوم الغفران على بعد ستة أيام فقط من إعلان السيدة عن حمل سبيل، وخبر مثل هذا يكفيه أن ينطق به لسانٌ واحد داخل الباحة صباحًا لتجد كل الألسنة تتحدث به قبل حلول منتصف النهار .. أخبرني شابٌ نسليٌّ حضر إلى الباحة أنه لاحظ هبوط الفارس كيوان عن المنصة وصعوده مرتين في ذلك اليوم، على عكس عادته، بعدما عُرف عنه أنه يقف منتصبًا كالتمثال لا يغادر المنصة قبل انتهاء مراسمها ..

مع صباح اليوم الثالث من يوم الغفران حدث ما كنا ننتظره، كنت أقف على معصرة الزيتون اليدوية بالقرب من مدرسة السيدة حين صاح أحد الأطفال وهو يشير بعيدًا نحو غبار كثيف يتصاعد إلى السماء، فأدركتُ أن هناك صحبةً غير مستحبة في طريقها إلينا .. انتبهت السيدة غفران هي الأخرى فأمرت بإدخال المصنوعات وأدواتنا إلى كوخ التخزين الذي قمنا ببنائه قبل أشهر، حملتُ معصرة الزيتون إلى الداخل، كذلك حملت الفتيات سجاجيدهن غير المكتملة وخيوطهن إلى الداخل .. قبل أن يتجهن إلى أكواخهن حين جاءنا شابٌ يهرول وأخبرنا بأن فرسان الأشراف يركضون بخيولهم نحو وادينا بأعدادٍ كبيرة ..

لم يكن الفرار إلى الوديان المجاورة ذا فائدة مع أولئك الفرسان لذا لم أغادر مكاني .. أمرت السيدة بانصراف الأطفال وإدخالهم إلى الأكواخ القريبة بعدما سمعنا صوت بارود متتالٍ أطلق قبل وصولهم إلى الوادي .. لم أكن أعلم إن كانت تلك الطلقات إعلانًا منهم عن وصولهم أم أنهم قد أصابوا أحدًا حاول الفرار .. تأكدنا جميعًا أن أوشامنا ظاهرة، لم يكن يغطي نصفه العلوي من الرجال إلا الطبيب فاضل الذي يحمل أوراقًا تثبت انتماءه إلى بلدٍ آخر، غير ذلك كانت صدورنا جميعها عارية، وكذلك أكتاف الفتياتِ اليسرى بما فيهن السيدة غفران .. كذلك تأكدنا سريعًا أنه لم يبقَ أحدٌ من الأطفال خارج الأكواخ .. كانت لحظات ارتباك شديدة رغم أننا كنا ننتظر حدوث ذلك الأمر.

ظلت أصوات الطلقات النارية مستمرة على نحو منتظم بين كل طلقةٍ وأخرى مدة ثابتة من الوقت، كانت أصواتها تزداد أكثر فأكثر مع اقترابهم، إلى أن ظهرت المجموعة الأولى من الفرسان ومعهم أطلق وابل من الطلقات النارية إلى السماء .. لم أحضر الليلة التي حضر بها الفارس كيوان إلى الوادي للمرة الأولى حين اعتقل الأحد عشر نسليًا، لكنهم حكوا لي عنها كثيرًا، ومع تقدم الفرسان نحونا كنت أشعر أن ذلك النهار سيكون أسوأ وأسوأ ..

هبطت مجموعة الجنود الأولى عن خيولها، وبدأت في إخراج النسالى من الأكواخ بعنفٍ شديد، وأوقفوهم أمام أبوابها .. في خلال وقتٍ قصير كانت الفتيات قد أُخرجن جميعًا إلى الطرقة الممتدة أمام الأكواخ وكذلك الأطفال الذين حاولنا إخفاءهم قبل قليل ..كذلك

أُخرجت السيدة غفران وسبيل وأوقفهما أحد الجنود بغلظة أمام باب كوخ سيدتي، قام الطبيب من تلقاء نفسه بالوقوف أماماً كوخ عيادته، بينما وقفتُ مكاني أمام باب كوخ التخزين المغلق ..

أُمرنا جميعًا بالركوع فركعنا على ركبنا، لمحتُ بعيني مجموعة أخرى من الفرسان يتجهون إلى شارع آخر غير الذي نتواجد به، فعلمتُ أن ما يحدث لنا سيحدث لكافة نسالى الوادي ..

ظللنا راكعين على ركبنا لمدة طويلة دون أن يحدث أي جديد، راكعين مُسلطة الأسلحة النارية نحو رؤوسنا فحسب، بينما يركض أحد الفرسان بحصانه أمامنا جيئةً وذهابًا ليُترب وجوهنا وأجسادنا بغبار أقدام حصانه عن قصد، بين حين وآخر كنا نسمع صوت طلقة نارية بالجانب الآخر من الوادي، كنت أًخشى أن يكون مع كل واحدة منها قتيل، كان ذلك سيعني أننا فقدنا على الأقل تسعة منا خلال الوقت الذي ركعناه ..

مضى وقتٌ آخر لم يتغير فيه سوى أن عدد الفرسان الراكضين بخيولهم أمامنا جيئًة وذهابًا قد زاد من فارس واحد إلى أربعة فرسان، كان بينهم امرأة .. دون أي جديد آخر، حاول طفل لا يبلغ السادسة الركض، فركله أحد الجنود بقسوة، فسقط موضعه ينشج بصوت عال .. لم يستطع أحدنا فعل أي شيء، من ينهض من موضعه يعلم تًمامًاً أنه لن يتحرك خطوة واحدة إلا وقد اخترقت رصاصة أحدهم مؤخرة رأسه.

هدأ نحيب الطفل مع الوقت ولم تهدأ طلقات البارود الآتية من المناطق الأخرى من الوادي، كنت ألمح بعيني وجه السيدة غفران

المتجهم وهي راكعة تنظر إلى الفراغ أمامها دون أن تحرك رأسها يمينًا أو يسارًا خلال المدة الطويلة التي أركعنا بها الفرسان .. بينما كانت نظرات الطبيب تتجه بين حين وآخر إلى سبيل التي بدا وكأنها تقاوم الركوع بألم بالغ، خشيتُ وقتهاً أن يكون سر ذلك الركوع الطويل هو إجهاض سبيلٍ، وبدأتُ أصرخ إليها داخل نفسي:

- تمــــاسكي ياسبيـــل، اصمـــدي أرجـــوكِ ..

وكأن سيدتي قد تنبهت إلى الألم البادي على وجه سبيل، مدت يدها إلى فخذها وربتت عليها كأنها تناجيها هي الأخرى بأن تتماسك، فصاح إليها أحد الجنود لترفع يديها فوق رأسها، ففعلت سيدتي ما أمر به الجندي على مضض، وشبّكت يديها خلف مؤخرة رأسها، فهزت الفتاة إلينا رأسها إيجابًا بأنها بخير، فالتقطتُ أنفاسي ..

واصلنا ركوعنا لفترة أخرى طويلة حتى أنني لم أعد أشعر بأقدامي من الخِدر الذي أصابها .. ثم بدأت الشمس تأخذ مسارها نحو الغروب وظهر الشفق الأحمر بالسماء، فزاد عويل الأطفال الجوعى دون أن يحرك ذلك أي ذرة عاطفة لدى جنود الأشراف .. بالعكس تناوب معظمهم على ركل مَن يعلو نحيبه من الأطفال .. كذلك ضرب أحد الفرسان طفلًا يبكي بسوطه من فوق حصانه، قبل أن يواصل ركضه بفرسه كأن شيئًا لم يحدث ..

ثم توقفت الخيول الراكضة أمامنا عن حركتها أخيرًا وهدأت معها الجلبة التي كانت تحدثها، وسكت الأطفال عن نحيبهم كذلك عندما صاح جندي بكلماتٍ متسارعة اعتدل معها كافة الجنود الذين يقفون خلفنا في وقفتهم، ولم تمر لحظات إلا وظهر من بعيد على

فرسه الفارس كيوان .. يمشي حصانه الضخم إلى داخل الوادي بتؤدة، يتبعه من خلفه على بعد خطوات أربعةٌ من الخيول تحمل فرسانها فوق صهوتها، ثم توقف بحصانه وهبط عنه وتركه لأحد الجنود، فيما توقف مرافقيه من الفرسان عن التقدم دون أن يهبطوا عن أحصنتهم، ثم وجدته يتقدم بمفرده بين الراكعين المصطفين على الجانبين.

كنا في نهاية الطرقة وكنت أعلم أنه قد أتى من أجلنا نحن، أو من أجل سيدتي وسبيل على وجه التحديد .. كان الشر البادي في عينيّ ذلك الرجل يجعلك تشم رائحة الموت وكأنه قد خُلق مرافقًا لظله ..

كانت عيني تتجه إلى السيدة التي كانت تنظر إلى الأرض دون أن ترفع عينيها إليه وهو قادم، بينما بدا وجه سبيل مرتعبًا .. صرخ طفلٌ فجأة، فتوقف الفارس كيوان عن سيره، شعرتُ أنه سيلتفت ليخرج سلاحه الناري ليسكت ذلك الطفل إلى الأبد، لكنه واصل خطواته تجاهنا بعد لحظة واحدة، دون أن يلتفت إلى الطفل، ثم اقترب مني فخفضتُ عيني إلى الأرض مسرعًا، ولم أرفعها إلا عندما تجاوزني .. لم يعلّق على ارتداء الطبيب قميصه، كان يعلم كل شيءٍ عن وادينا، ويعرف أن الطبيب من بلاد أخرى فتجاوزه هو الآخر دون اكتراث، إلى أن وقف أمام السيدة غفران وسبيل الراكعتين .. ألقى نظرةً مطولة نحو الوشم المرسوم على كتف سيدتي، فرفعت سيدتي عينيها إليه في تلك اللحظة .. كانت نظرة التحدي في عينيها توحي بأن هزيمتها لن تكون بتلك السهولة التي يتصورها أبدًا ..

نظر في عين سيدتي لثوانٍ قبل أن يحرك نظره إلى سبيل .. لم يكن أحدنا يعرف فيما يفكر ذلك الرجل .. ظل واقفًا أمامهما لدقائق يحدّق في سبيل، قبل أن يحرك نظره إلى السيدة غفران مرة أخرى .. ثم فوجئتُ به يستدير ويعود مبتعدًا عن السيدة غفران وسبيل دون أن يصيبهما بمكروه، فنظرت نحو الأرض مسرعًا .. بكى طفل آخر أثناء عودته، لكنه لم يمهله هذه المرة، أخرج سلاحه الناري وبرصاصةٍ واحدة أسكت الطفل وأسكت جميع الأصوات من حوله، قبل أن يحضر له الجندي حصانه ويمتطيه ويغادر مبتعدًا .. ومن بعده غادر جميع الجنود والفرسان.



(٨)

ريان

كانت حصيلة الموتى في ذلك اليوم ثلاثةً من شبان النسالى بالإضافة إلى الطفل الذي لم يكمل الخامسة من عمره والذي قتله كيوان، أربعةٌ آخرون أصابتهم طلقات الجنود في أماكن متفرقة من أجسادهم لكنهم لم يموتوا، كان جميعهم بالشوارع الأخرى من الوادي وأتى بهم باقي الشبان مسرعين إلى كوخ الطبيب بعد رحيل الجنود، والذي قضى ليلته في إسعافهم وإخراج تلك الطلقات من أجسادهم وتضميد جراحهم، قال عندما انتهى بأن أحدهم سيظل عاجزًا عن استخدام قدميه باقي حياته بعدما أصابت الرصاصة عموده الفقري، بينما كان الثلاثة الآخرون أفضل حالًا ..

لم تعلّق السيدة على ما قاله الطبيب، كنت أشعر في قرارة نفسي أنها تحمّل نفسها مسئولية قتلى رجال كيوان، فلاذت بالصمت .. ثم تساءل الطبيب إليها وهو يخلع معطفه المُتسخ بالدماء:

- ألا يوجد بين القواعد قاعدة تجرّم قتل النسلي دون وجه حق؟

أجابته واجمةً:

- يُوجد، ولكن أسهل شيء في هذا البلد أن تقول لقد فعل النسليُّ كذا .. لقد قاوم الجندي، فاضطر الجندي إلى قتله ..

قال الطبيب مستنكرًا:

- وذلك الطفل، مَن قاوم؟!

قالت:

- سُيقال رصاصة طائشة كانت متجهة إلى أحد المقاومين أصابته بالخطأ ..

وأضافت في يأسٍ:

- لن نجرؤ على الشكوى، حتى وإن فعلنا فلن يُعتد بأي قولٍ لنا .. هناك قانون نشأ موازيًا للقواعد يقول بأن الشريف أصدق ..

قال الطبيب:

- إذًا يبقى هذا القانون أساس بلاء النسالى ..

أومأت برأسها إيجابًا، وقالت:

- ما حدث اليوم كان إشعارًا من كيوان بأنه لن يمرّر ما فعلناه .. تعمدَ بقاءنا طيلة اليوم راكعين ليذكرنا أننا نسالى وسنظل نسالى إن كنا قد نسينا .. لكنك محق، كانت نظرات عينيه

إلى سبيل تقول أنه تلقى أمرًا حاسمًا بعدم إيذائها .. رأيتُ الغيظ باديًا في عينيه كنارٍ مشتعلة يحاول بكل طاقته السيطرة عليها..

وتابعت:

- لن نغادر أنا وسبيل إلى الوادي المظلم مجددًا، سنبقى في كوخي من الليلة ولن يقترب منا أي شريف، على الأقل لن يقترب من سبيل، أما أنا فسأتولى أمر مَن يفكر فقط في الاقتراب مني، وإن كنت أعتقد أن كيوان قد أمر بعدم إيذائي أيضًا، إنه ليس من ذلك النوع الذي ينهي حربه مبكرًا .. سيودُّ أن يستمتع بهزيمتي ..

وصمتت للحظة، وأضافت:

- أتوقع أن يحاول إيذاءك قريبًا ..

ابتسم الطبيب، وقال مازحًا:

- إن ضايقه ارتدائي لقميصي فليأخذه إذن ..

قالت السيدة بجدية:

- سيحاول تجريدي من كافة سُبل دعمي هنا .. ويعلم أنك داعمٌ كبيرٌ لي ..

فقال الطبيب بلهجةٍ جادة:

- لن يختلف الموت هنا عن الموت في بني عيسى عن الموت في بلادي القديمة .. إني أؤمن بما تفعلينه يا غفران، وأؤمن تمامًا بحق هؤلاء البشر في حياة شريفة مثل باقي أهل چارتين .. لن أترك الوادي أو أتركك مهما حدث، ليواصل كلٌ منا عمله من أجل هذا الوادي وناسه، وليفعل ما في وسعه .. سيُولد هذا الجنين على يدي، وأنا أثق تمامًا أنه لن يكون المولود الأخير الشريف من نسل النسالى ..

في خلال الأيام التالية أصبحت أحاديثنا كلها عن الشهور المتبقية لولادة سبيل .. أعتقد أن كل نسلي في وادينا بدأ يشعر وكأن ذلك الطفل المنتظر هو طفله الذي اشتاق كثيرًا إلى قدومه .. في مدرسة السيدة كان الجميع يساعد سبيل على ألا تبذل أي جهد إضافي .. وإن حدث لها أي إعياء انتظر الجميع بكل قلق خبر تأكيد الطبيب فاضل بأنها بخير .. صار ذلك الطفل محور الحكايات في مجالسنا، عمّا سيشعر به تجاهنا حين يشبّ ليجد كل أهله نسالى، عمّا إن كانت سبيل ستذهب به إلى جويدا للعيش بين الشرفاء بعيدًا عن حياتنا المكفرة أم ستبقى به بيننا، عما إن كان سيتزوج إحدى بنات أشراف جويدا أم سيتزوج نسليةً مثل أبيه، فتصير زوجته شريفةً إكرامًا له .. أو يكون ذلك الجنين أنثى فتتزوج نسليًا، فيصير زوجها شريفًا إكرامًا لها.

وزاد بنا الأمر أننا تراهنّا إن كان ذلك الجنين ذكرًا أم أنثى ..كان رهاني أنه ذكرٌ، كذلك تراهن بعضنا على الاسم الذي قد تختاره له أمه سبيل أو السيدة غفران، إن تركت لها سبيل ذلك الأمر.

مع تلك الأحاديث صار الذهاب إلى الوادي المظلم أمرًا ممتعًا بالنسبة لنا، وباتت لياليه أفضل كثيرًا من أيام السهر في حانات وادي النسالى .. شعرتُ أن كثيرين قد بدأوا يفكرون في تكرار ما فعله حيدر وسبيل لكنهم آثروا انتظار مرور الأشهر التالية ليروا ماذا سيحدث مع ولادة ذلك الطفل، غير أننا فوجئنا صباح أحد الأيام بشابٍ نسلي من وادٍ آخر اسمه «زُردق» يأتي إلى وادينا ليخبر السيدة عن نيته في الزواج من فتاة نسلية تنتمي إلى واديه كانت قد أتت معه .. وأردف بأنهما تعلما على يد أحد الشبان الذين قد تعلموا بمدرسة السيدة غفران قبل أن يعود إلى واديهم .. أتذكر ملامح الفرحة التي ظهرت على وجه سيدتي وهي تقول بأن ذلك ما أرادته حقًا بإعلان خبر حمل سبيل، أن يقدم المزيد على تلك الخطوة، ثم قالت بعدما استغرقت في التفكير:

– لن نفعل ما فعلناه يوم زواج حيدر وسبيل ..

وأضافت:

– سينتبه الأشراف هذه المرة، وسيمنعون حدوث مثل ذلك الأمر مرة أخرى .. سيذهب سوار قاضينا الشاب فقط معهم، ولن نعلن عن الزواج إلا بعد عودتهم إلى وادينا ..

وتابعت بعد لحظة أخرى من التفكير:

– سنفوّت يوم الغفران القادم أيضًا .. على أن يذهبوا إلى الباحة يوم الغفران الذي يليه ..

وافقنا سيدتي فيما قالته، وبقي زُردق وعروسه المنتظرة «وداد» في وادينا خلال الأيام التي سبقت يوم الغفران الذي حددته السيدة ..كانا يعملان معنا نهارًا خاصةً أننا كنا نستعد لحزم بضائعنا المُصنعة من أجل إرسالها للبيع بأسواق بلدان الشمال، ويغادران معنا إلى الوادي المظلم ليلًا .. كان زُردق ذا وجه أبيض مستدير وجسد بدين لا ينبت بنصفه العلوي شعرةٌ واحدة، ولولا الوشم المنقوش على صدره، وبنطاله البالي الممزق لظننت أنه من مدللي الأشراف .. غير أنه كان يمتلك لسانًا لا يتوقف عن إلقاء المزاح والنكات أبدًا، أما خطيبته فكانت نحيفةً للغاية، قد يكون ذراعًا واحدًا منه أسمن من خصرها، كانت هي الأخرى تمتلك حسًا فكاهيًا جعلها لا تكف عن السخرية عن جسدها النحيف وساقيها الطويلتين الرفيعتين اللتين تشبهان عيدان الذرة على حد قولها .. كانت تلك الفتاة تمشي مهرولةً أمامنا أثناء ذهابنا إلى الوادي المظلم بسرعة كبيرة بينما يتحرك زُردق خلفنا بثقلٍ كبير وأنفاسٍ صاخبةٍ لاهثة تجعلك تندهش كيف تلاقى هذان الاثنان ..

أضاف هذا الثنائي نوعًا من المرح إلى جلساتنا في الوادي، ضحكنا حين قال زُردق ذات مرة أنهما قررا الزواج بعدما فشلا فيما خُلقا من أجله، وعندما سأله أحدنا مستفهمًا عما يقصده، قالت الفتاة:

– فشلنا في أن نبقى نسالى حقيقين .. هو بدينٌ جدًا لا يصلح للسرقة أو للهروب إن ارتكب جريمةً ..

وأضافت بلهجة مفتخرة:

– وأنا قبيحةٌ للغاية، يُصاب الأشراف بالقرف والاشمئزاز إن رأوا جسدي .. قال لي أحدهم ذات مرة أن رائحتي لا تُطاق وتركني ومضى، ومن يومها لم يزرني أي شريف .. أستطيع أن أبقى في واديكم كل ليلة دون المجيء إلى الوادي المظلم، وأراهنكم إن اقترب مني شريفٌ واحد ..

وقتها قفزت في رأسي فكرةٌ غريبة قد تغني فتياتنا عن الهروب كل ليلة إلى الوادي المظلم، وعدت بعدما انتهينا إلى وادي النسالى، واتجهتُ إلى كوخ الطبيب، وأيقظته من نومه فتعجب، فقلت:

– ماذا لو كره الأشراف ممارسة الرذيلة مع فتياتنا؟

فسألني:

– كيف؟

قلت:

– تُقام الشهوة على الرغبة، ماذا لو كانت رائحة فتياتنا كريهةً إلى حدٍ لا يُطاق فتزول عنهم رغبة هؤلاء الأشقياء؟

انتبه إليّ الطبيب كأنه يريدني أن استطرد في حديثي، فتابعت:

– ماذا لو انغمست نساؤنا كل ليلة في أحواض روث البهائم بعد انتهاء أعمالنا، أو ربما أحواض تجميع فضلاتنا .. تخيّل هذا، لن يقترب أي شريف من فتاة رائحتها كذلك ..

امتعض الطبيب مما أقوله، وقال:

- سينجين من الأشراف لكنهم لن ينجين من المرض .. ومع الوقت سيُصاب رجال النسالى بالامتعاض منهن كذلك، ولن يُقبلوا على الزواج منهن، سنكون قد رجعنا للخلف خطوات ..

لا تروق لي هذه الفكرة، و أعتقد أنها لن تروق لغفران أو لفتيات النسالى، يبقي هروبهن إلى الوادي المظلم مع حمايتكم لهن هناك خير الحلول إلى الآن ..

قلت:

- إلى متى أيها الطبيب؟ إلى متى سيظل هذا حالنا؟

قال:

- لا أعلم إلى أي وقت سيطول هذا .. لكن من قراءاتي القديمة للبلاد التي تغيّرت فيها أحوال المنبوذين .. لم يحدث الأمر بين ليلة وضحاها، استغرق الأمر جهد سنوات .. ما علينا سوى الحفاظ عما فعلته غفران وزرعته في هذا الوادي منذ مجيئها، ربما يأخذ الأمر سنوات لكننا سنواصل البناء، وأعني هنا بناء الأشخاص، أشخاصًا متعلمين يعرفون حقوقهم .. نستغل كافة الفرص التي قد تُتاح لتعليم كل صغير نسلي، وتربيته على كونه شريفًا داخل عقله، ليكون مصطلح النسالى ليس إلا كلمةً يمحوها الزمن مع تقدّم سنواته .. قد تتأخر النتيجة لكن طالما نسير على الصراط الصحيح سنصل لا محالة ..

قلت:

- ألم يأتِ موعد مقاومتهم بعد؟!

كانت المرة الأولى التي أصرّح فيها برغبتي الحقيقية في مقاومة الأشراف .. فقال الطبيب باسمًا:

- سيكون انتحارًا حقيقيًا لا مقاومة .. ستكون فرصةً لكيوان ومن معه لقتل المزيد والمزيد .. لن تفيد أيادينا العزلى ضد أسلحتهم النارية .. أرى أن غفران تدرك هذا جيدًا .

قلت وأنا أتذكر:

- حين كنت طفلًا في العاشرة كنت ارتعب للغاية من الحالة التي يبقى عليها السيد نديم وقتما كانت تثور روحه .. حين أتذكره هذه الأيام أتمنى لو كان بيننا بهذه الهيئة، ربما لصار حارسًا لهذا الوادي بمفرده ..

وبدأت أحكي للطبيب بإضافات من خيالي عن الهيئة التي كان يظهر عليها سيدي حين تثور روحه، فقال الطبيب مازحًا بعدما انتهيت:

- كان عليّ ألا أفقد آدم إذًا ..

وأضاف:

- على حد قولك وقول غفران كان نديم شابًا طيبًا يخشى أن تسيطر عليه تلك الروح .. ما بالك لو كانت تلك الروح قد انتقلت إلى آدم الذي وُلد لأم نسلية وتجري في عروقه دماء أبيه الغجرية ..كان الأمر ليصبح مغايرًا كثيرًا ..

وابتسم وهو يكمل:

- كنت وقتها لن تفكر بتلك الفكرة ذات الرائحة الكريهة أبدًا ..

ضحكنا ثم أكملنا حديثنا عن أمورٍ أخرى حتى طلوع الصباح .. لم أحدّث أحدًا بعدها بتلك الفكرة .. وسألتُ الطبيب ألا يخبر السيدة بأنني قد اقترحت ذلك الأمر، فوعدني بذلك .. ثم مرت الأيام تباعًا إلى أن حلّ يوم الغفران الذي حددته السيدة غفران لزواج زُردق وفتاته.

في صباح ذلك اليوم تيقنت سيدتي من سوار بأنه لا يزال يحفظ حديث الزواج فأجابها بأنه يحفظه عن ظهر قلب، وبدأ في ترديد كلماته أمامنا، فسألته أن يعقد قرانهما هذه المرة خلسةً أثناء احتفالات المهرجين على المنصة، وليس أثناء عقد الزيجات أمام القاضي الكبير، هز رأسه موافقًا، ثم غادر مع زُردق وعروسه، أما نحن فواصلنا عملنا في تجميع البضائع المُصنعة طوال النهار وعقولنا منشغلةٌ بما يحدث في الباحة، وخاصةً سيدتي.

كنا ننتظر حلول الغروب وعودة سوار مع زُردق وزوجته بفارغ الصبر، كان ذلك سيكون الانتصار الحقيقي الثالث لنا بعد زواج حيدر وسبيل وحمل سبيل بجنين شريف، ثم انتهينا من أعمالنا فأسرعنا قُبيل غروب الشمس إلى الوادي المظلم، وأعددنا أوجه الاحتفال هناك .. كانت سيدتي قد أخبرتني بأنها ستأتي بهم إلى الوادي بمجرد عودتهم لنحتفل جميعًا احتفالًا يليق بهذا الحدث السار، لكنهم تأخروا كثيرًا ولم يظهر أيٌّ منهم مع حلول الليل ..

هبطتُ الوادي إلى سيدتي لعلهم قد عادوا إليها وآثروا ألا يصعدوا إلى الوادي المظلم، فأخبرتني أنهم لم يعودوا إليها كذلك .. افترضتُ أن يكون زردق وزوجته قد عادا إلى واديهما الذي جاءا منه، فقالت في قلق بأن سوار لم يعد هو الآخر، أسرعتُ إلى الحانة حيث كان هناك احتفالٌ بإحدى نساء النسالى التي حصدت روحًا نسلية لجنينها ذلك الصباح، وسألتُها إن كان حدث شيء غريب في الباحة، أو إن كانت قد رأت سوار هناك، أجابت المرأة بأنها لم تلاحظ أي شيء غير معتاد بالباحة .. سألتُ غيرها ممن ذهبن إلى هناك كانت إجابتهن جميعًا الشيء ذاته .. عدت إلى سيدتي وأخبرتها بما قالته النساء .. سكتت تفكر، كنت أعلم أنها مثلي تفترض بداخلها أسوأ الظنون .. ثم مرت ساعات أخرى من الليل عاد معها معظم من كانوا ينتظرون الاحتفال بالوادي المظلم إلى كوخ السيدة، ولمّا علموا بعدم عودة سوار وزُردق وعروسه اقترح بعضهم بأن يذهبوا إلى جويدا لمعرفة الأمر، لكن سيدتي رفضت ذلك، وسألتنا أن نعود إلى أكواخنا لننال قسطًا من الراحة، وقالت في تجهم:

- ربما يحمل النهار الجديد أخبارًا تحتاج إلى كامل قوانا ..

ذهبتُ إلى كوخي وأنا أعلم أنها لن يغمض لها جفن في تلك الليلة، وجلستُ في انتظار طلوع النهار حتى غلبني النعاس ..

بالفعل حمل ذلك النهار خبرًا لا يُنسى إلينا، حين خرجنا مع شروق الشمس على صراخ إحدى نساء الوادي، لنجد رؤوس الثلاثة سوار وزُردق وعروسه مقطوعةً ومُعلقةً بحبالٍ تتدلى من عارضة خشبية ثُبتت بين قائمين مرتفعين عند مدخل وادينا .. لم تكن هناك رسالةٌ أوضح لنا من كيوان مثل تلك الرسالة.

وقفنا جميعًا نشاهد بوجوه مرتعبة تلك الرؤوس الشاحبة وهي تتأرجح لترتطم ببعضها مع اهتزاز الحبال بفعل الهواء.

(٩)

زهير

قدمتُ الشراب الساخن إلى أبي وعمي وتركتهما يكملان حديثهما دون أن أُظهر أنني رأيت ما كان مرسومًا بالقطعة الجلدية، ثم عدت إلى غرفتي وتلك الرسمة تشغل تفكيري كليًا، إلى أن أخرجت دفتري وقلمي الرصاص وحاولتُ أن أرسم مثلها. لم أكن جيّدًا بالرسم لكني على الأقل رسمت صورةً تشبهها وخاصةً وشم النسالى الذي كنت دائمًا أجيد رسمه.

في يومي التالي بالمدرسة سألت معلمي السيد «شقير» إن كان قد رأى رسمةً شبيهة لرسمتي من قبل، ابتسم بسخرية حين رأى وشم النسالى على جسد أكبرهم، وسألني عن التعبيرات الغريبة التي رسمتها على وجوه مَن يمسكون به، فقلت إنهم أشرافٌ خائفون، ضحك وهنأني على خيالي القوي، ونصحني ألا أريها لأحدٍ من زملاء صفي كي لا يسخروا مني، فأصابني الضجر من سخريته، وأخبرته كاذبًا بأن عمي كيوان مَن قام برسم تلك اللوحة، وأنه من أرسلني

خصيصًا إليه ليعرف إن كان قد قابل لوحة مثيلة لها من قبل، ارتعب حين سمع اسم عمي، وقال باقتضاب بأنه لم يرَ مثلها، ولكنه سيبحث في كتبه التي ورثها عن أبيه وأجداده إن كانت إحداها قد احتوت رسمةً تشبهها.

بعدها عدت إلى بيتي منشغل الذهن، وفي الطريق إليه لم يأتِ في بالي إلا صديقي آدم، مررتُ عليه في ورشة السيد عبود كانت جبهته مبللة بالعرق من تلك الحرارة التي تتصاعد من الكير أمامه، فأطلقتُ صفارتي إليه، وحين انتبه إليّ أخبرته بأنني سأنتظره في بيتي عندما يفرغ من عمله كي أريه شيئًا هامًا.

قبيل غروب الشمس جاء آدم إلى بيتي، وسألني متلهفًا عن ذلك الشيء الذي أردته أن يراه، تأكدتُ من انشغال أخويّ ودلفتُ به إلى غرفتي، ثم أخرجتُ دفتري وأريته رسمتي، فتساءل:

- ما هذا؟

قلت:

- أحضر عمي من جويدا مخطوطةً رسُمتَ بها رسمة تشبه هذه .. أشرافٌ يمسكون بنسلٍ غريب الشكل

قال:

- ما الغريب فيها؟! .. تعلم ما يحدث للنسالى على منصة الباحة نهاية كل شهر، يبدو أنهم يجرّونه إلى منصة الإعدام.

قلت محبطًا:

- يبدو أن رسمتي ليست واضحةً بالقدر الذي أردته، أو لم توضح الشيء الهام فيها ..كان النسلي المرسوم غريبًا للغاية .. بدا وكأن اعتقاله نصرٌ ثمين للأشراف ..

هز كتفيه، وقال:

- قد تأتي أخبارٌ من جويدا بشأنه خلال الأيام القادمة ..

أومأتُ برأسي نافيًا وقلت:

- لا إنها مخطوطةٌ قديمة، تبدو أثرية كالقطع الجلدية المعروضة في متحف «قبِالا» .. أعتقد أنها رسُمت منذ مئات السنين وعثر عليها عمي حديثًا.

فسألني متعجبًا:

- ولماذا تهتم بها إلى هذا الحد؟

قلت:

- أن يأتي عمي كيوان إلى أبي خصيصًا من أجل أن يريه شيئًا كهذا، ثم يتحدثان بشأنه دون أن يريدا أن يسمعهما أحدٌ آخر وإن كانوا أولاد أخيه، يعني أن هناك شيئًا هامًا يخص تلك المخطوطة ..

ابتسم آدم وقال:

- يبدو أنكم عائلة خُلقت لتنام وتصحو تحلم بالنسالى فحسب.

قلت:

- تمنيت لو أستطيع أن أريك الرسمة الأصلية لتفهم قصدي ..

ثم توقفتُ عن الكلام حين سمعت صوت أبي وعمي خارج الغرفة فعرفت أنهما قد عادا من الخارج، فقطعتُ الورقة التى رسمتها من دفتري على نحو سريع، ولففتها بإحكام وأعطيتها لآدم كي يبقيها معه خشية أن يراهاً أبي وهو يستذكر لي دًروسي فيعرف أنني قد تدخلت بأمور لم يكن من شأني التدخل بها، فدسّها آدم أسفل سترته، قبل أن أهًمس إليه:

- لا تخبر أحدًا بما أخبرتك به .. لا يعرف أبي أنني رأيت تلك الرسمة ..

فهز رأسه موافقني، كنت أعرف أنه لن يفعل بالطبع، ثم سألني أن يغادر كي لا يتأخر عن خالته سيرين، وخرجنا من غرفتي، كان أخي وأختي يجلسان مع عمي وأبي، ألقى آدم تحيته إلى الجالسين بخجل، فضحك كرم ساخرًا وقال:

- إنه حداد بلدتنا يا عمي ..

وتابع:

- يشبه النسالى الذين تقتلهم ..

ضحكت أختي، بينما لم يعجب أبي قول أخي ونهره بعينه، ثم فوجئت بعمي يتوقف عن شرب شرابه وينادي آدم، توقف آدم ونظر إليه حائرًا، فنهض عمي عن موضعه، وتحرك إليه واقترب منه، وسأله عن اسمه، رد أدم هادئًا:

- آدم.

ألقى عمي نظرةً مطولة على وجهه، وسأله:

- أي شئ تصنعه في ورشتك؟

قال آدم:

- كل شيء يا سيدي ..

مد عمي يده إليه فمد آدم يده، شعرتُ أن عمي يضغط بقوة على يد آدم، لكن تعبيرات وجه صديقي ظلت جامدة، فقال عمي:

- إنني أحب الرجال الأقوياء .. لماذا لا تنضم إلى جنود بريحا؟

قال آدم:

- إنني أحب عملي سيدي ..

ابتسم عمي ابتسامة باردة، وأشار إليه بسبابته وقال بصوتٍ سمعه أخي:

- لا تدع أحدًا يدعوك بأنك تشبه النسالى مرة أخرى .. إن قالها مرة أخرى لا تتنازل عن تحطيم فكه ..

اكتفى آدم بالابتسامة، وكاد يغادر لولا أن عينه قد تعلّقت بمشبك فضي يثبّته عمي على الجانب الأيمن من صدر سترته، كان رأس ذلكً المشبك مُشكلًا بحرفيّة على هيئة سلاح ناري. لاحظ عمي هو الآخر شروده وهو ينظر نحو مشبكه، فسأله باسمًا:

- يعجبك شعار رامي المنصة؟

فاحمرّ وجه آدم حرجًا، فتابع عمي:

- هل تستطيع أن تصنع مثله؟!

هز آدم رأسه، وقال:

- نعم يا سيدي ..

كنت أعلم أنا وأخواي وكذلك كل أهل چارتين أن عمي لم يشغل قط منصب رامي المنصة، وأنه تقلّد منصبه الكبير متجاوزًا عدة مناصب كان لا بد للفرسان أن يشغلوها كي يصلوا إلى منصبه الحالي، قالت لي أمي ذات مرة أن ذلك المشبك المميز ينتمي إلى ضابطة شغلت منصب الرامي قبل سنوات، كانت قد تركت سترتها العسكرية على المنصة بعدما ذبحت عريسها المُدان بخنجر أمام الجميع هناك وتم عقابها على ذلك، وأكدت عليّ بألا أذكر ذلك أمام أحدٍ كي لا أثير غضب أبي أو عمي.

غادر آدم وجلسنا نتناول طعام العشاء، تمنيتُ لو تكلّم عمي أو أبي عما تحدثا بشأنه بعيدًا عنا أمس ذلك اليوم، لكنهما تحدثا عن أمورٍ كانت جميعها عادية سواء عن مدارسنا أو طفولتهما أو أخبار مملةً تخص چارتين، كانت عيني بين الحين والآخر تذهب إلى المشبك الفضي رمز الرامي المُثبّت على سترة عمي، كان مُشكلًا ببراعة كبيرة حقًا، لآدم كل الحق أن يستولي ذلك المشبك على تركيزه، ولولا أنني أعرف صديقي جيّدًا لقلت أن الغيرة قد أصابت قلبه من صانعه .. قطع كرم تفكيري بسؤاله إلى عمي:

- كم تبقّى من النسالى؟

أجابه عمي وهو يقضم قطعة من اللحم:

- الكثيرون .. عددهم بالآلاف ..

قال أخي:

- وعدت الجميع من قبل بأنك ستقضي عليهم جميعًا ..

ضحك عمي وقال:

- لم أكمل عامي الخمسين بعد، ما زالت هناك ستة أعوام، إنهم كالفئران في الصحاري يصعب صيدهم.

ثم قال عمي موجهًا حديثه إليّ على حين غرة:

- عرفتُ أنك لا تحب الالتحاق بالمدرسة العليا للضباط، كنت ستستمتع كثيرًا باصطيادهم ..

قلت ضاحكًا:

- لا أستطيع ركوب الخيل حتى يا عمي، أعتقد أن كرم يتوق إلى ذلك، أما أنا فسألتحق بمدرسة الآداب العليا، أحب التاريخ ودراسته.

ثم سألته:

- ألم يتزوج أحدهم مرة أخرى؟

قال وقد توقف عن مضغ طعامه:

- منعتُ الباحة على رجالهم قبل سنوات، ولم يتقدم أحدهم بطلبٍ للزواج.

نطقت أختي بوجه متعجب:

- وكيف ينجبون؟!

ضحكت أنا وأخي ونظرنا إلى بعضنا خلسة من سؤال أختنا الطفولي، لم يجب عمي سؤالها بالطبع وغيّر مجرى الحديث، إلى أن قال أخي مازحًا:

- سآتي معك إلى جويدا ..

فقال أبي دون أن يرفع عينه عن طبقه:

- سنذهب جميعًا إلى جويدا غدًا.

توقف الطعام في حلقي متفاجئًا، وبدا التعجب على وجه أمي من اللهجة الجادة التي تحدث بها أبي كأنها تفاجئت مثلنا مما قاله، حتى أخي الذي نطق بجملته إلى عمى وهو يعلم صعوبة ذلك الطلب قبل انتهاء العام الدراسي تفاجأ من رد أبي، فقلت بعدما ساد الصمت للحظة:

- لا أستطيع أن أغيب عن المدرسة سيتسبب ذلك في رسوبي.

فقال أبى:

- سيساعدك عمك على الالتحاق بالمدرسة المتوسطة في جويدا..

زاد تعجبي:

- المدرسة المتوسطة في جويدا!!

هذا يعني أن مكوثنا هناك سيكون لفترة طويلة، شتتت تلك المفاجأة تفكيري تمامًا، ففلت لساني وتساءلتُ:

- ماذا حلّ في جويدا؟

رمقني عمي بنظرته من غير أن يتكلم، فيما قال أبي بنبرة جامدة:

- التحقتُ بعمل جديد هناك ..

قالها وهو يلمح بطرف عينه ملامح أمي، كنت أعرف أبي جيّدًا وأعلم أن طريقة إجابته تلك توحي بأن جوابه لم يكن صادقا تمامًا، فقالت أختي ساخرة مني:

- لا يريد أن يترك صديقه هنا ..

تبرّم وجهي من سخافتها، كنت أعلم أنني سأذهب إلى جويدا يومًا ما للانضمام إلى مدرسة الآداب هناك، لكن أن يأتي ذلك الأمر فجأة وأن يكون سفرنا بين يوم وليلة، أصابني ذلك بتشتت كبير، وابتسموا بسخرية حين رأوا الحيرة التي أصابت وجهي عدا أمي التي بدت مشتتة هي الأخرى، كانت مثلي، لسنا من ذلك النوع الذي يستطيع إخفاء تعابير وجهه أبدًا .. قال عمي معقبًا على كلام أختي:

- في چارتين لا توجد صداقةٌ للأبد، هذا أمر عليك معرفته الآن قبل أن تخبرك به السنوات .. تستطيع العودة لزيارته في الإجازة الموسمية.

هززتُ رأسي محبطًا دون أن أتحدث، وأكملت تناولي لحسائي، ولم أرفع عيني بعدها عن طبقي إلى أن انتهينا، ثم عدت إلى غرفتي فيما اتجه أبي وعمي إلى الغرفة المكتبية، جلستُ في حيرة بالغة أمام نيران مصباحي وكل ما يدور في ذهني هو آدم، كذلك المعلم السيد «شقير» الذي وعدني بأنه سيبحث في كتبه عن رسمةٍ تشبه الرسمة التي رسمتها، كنت سأمسي نذلًا كبيرًا إن رحلت عن بريحا دون إخبار آدم، بينما كان أخي يرتّب ملابسه من أجل السفر صباحًا وأساريره منفرجة. قبل أن يخلد إلى النوم، ففتحت باب غرفتنا برفق ..كان مصباح غرفة أبي المكتبية لا يزال مضاءً فعرفت أن أبي وعمي لا يزالان هناك، فأغلقتُ بابي من جديد، وعدت على أطراف أصابعي بخفة كي لا يستيقظ أخي، ثم فتحت نافذة غرفتنا وعبرتها بعدما لم يكن أبي يسمح لنا بالخروج في مثل ذلك الوقت المتأخر في أيام الدراسة.

اتجهت مسرعًا إلى بيت آدم والسيدة سيرين، طرقتُ الباب، بعد لحظات فتحت السيدة سيرين، بدا أنها لم تنم، سألتها عن آدم، قالت بتعجب أنه لم يعد بعد، وأضافت بقلق بأنها ظنت أنه معي، فقلت:

- لقد غادر بيتي بعد غروب الشمس مباشرةً، لعله ذهب إلى مكانٍ آخر .. أريدك أن تخبريه بأنني سأغادر إلى جويدا وقد يطول بقاؤنا هناك، لم أستطع أن أغادر دون أن أخبره ..

وأضفت:

- هناك معلم اسمه السيد شقير سيبحث أمرًا حدثته بشأنه، أخبري آدم بأن يمر عليه بين الحين والآخر، وإن كان هناك جديد فلتراسليني بشأنه، أعلم أنكِ تجيدين القراءة والكتابة..

كانت السماء قد بدأت تمطر مطرًا خفيفًا، فقلت على عجلةٍ من أمري:

- عليّ أن أعود إلى بيتي قبل أن يشعر أبي بغيابي .. لا تنسيّ أن تخبري آدم بأنني سأنتهز كل أجازة للعودة إلى هنا.

ثم عدت إلى بيتي قبل أن يتمكن الوحل من الشوارع، ودلفتُ عبر النافذة مرة أخرى وأغلقتها، اطمأننت أن أخي لا يزال نائمًا، أدعيّت أنني ذاهب إلى دورة المياه للتأكد ما إن كان عمي وأبي لا يزالان مستيقظين، فوجدت مصباح غرفة أبي المكتبية قد أطفئ، فأكملت طريقي إلى دورة المياه بعدما شعرتُ برغبتي في قضاء حاجتي فعلًا .. في طريق عودتي إلى غرفتي سمعتُ أمي وأبي يتجادلان في غرفة نومهما، كنت أعلم بعدم رغبة أمي في ترك بريحا، لكن قدمي قد توقفت وأصابها الجمود حقًا حين سمعتُ أبي يقول:

- لسنا فقط من سيرحل إلى هناك، سينتقل معملنا بالكامل بعامليه إلى جويدا .. سُتصنع ألف قذيفة مدفعية ضخمة .. لقد صدرت الأوامر بإبادة النسالى.



(١٠)

ريــان

كانت الرؤوس المُعلقة في الهواء تتأرجح مع اهتزاز الأحبال عندما تجمّع كل نسالى الوادي ووقفوا ينظرون إليها بوجوه مشتتة مصدومة لا يقوى أحد على النطق بكلمة واحدة، فيما تعالى صراخ الأطفال بين صمتنا المطبق .. كانت سيدتي تقف متجهمة الوجه بين الواقفين، قبل أن أجدها تنسحب من بينهم إلى كوخها، وتغلق بابها من خلفها ..

تحركتُ بصعوبة من بين الصفوف تجاهها، طرقتُ الباب لم تجبني ..كانت سبيل وناردين تقفان بين الواقفين في الخارج تظهر الحسرة على وجهيهما، طرقتُ الباب مرات أخرى، لم تجبني السيدة أيضًا، كان هناك شقٌّ كبير بباب كوخها ًرأيتها تجلس إلى طاولتها واضعةً رأسها بين كفيها وتبكي بحرقة شديدة، فعدت أدراجي بين المتزاحمين مطأطأ الرأس أخشى أن أًرفع عيني إلى عيونهم فأشعر بأن ما يدور في بالي قد بدأ في حدوثه بالفعل ..

مع مرور الدقائق بدأت حالة الصمت المطبق المسيطرة على المشهد تزول وتتحول شيئًا فشيئًا إلى جلبةٍ وضجيج، ثم استحالت فجأةً إلى حالة من الهرج والمرج عندما شبَّ شجارٌ كبير بين بعض الشبان، فدخلتُ إلى كوخي أنا الآخر وأغلقتُ بابي من خلفي، وهناك ركلتُ بقدمي منضدة خشبية صغيرة في هياجٍ شديد، وصرختُ في نفسي غاضبًا:

- إلى متى سيستمر هذا؟ .. إلى متى؟!

قبل أن أجلس على الأرض مسندًا رأسي إلى الحائط في بؤسٍ شديد، تسمع أذني الضجيج القادم من الخارج وتدور في رأسي كافة التخيلات السيئة التي قد تحدث بالأيام القادمة، ثم ساد صمتٌ غريبٌ مفاجئ بالخارج، فنهضتُ متعجبًا لأرى سر ذلك الصمت، وفتحتُ بابي، فوجدتُ الجميع يتطلعون في ترقب إلى سيدتي التي كانت تتسلق سلمًا خشبيًا يستند على أحد القائمين الخشبيين، وحين وصلت إلى قمته تشبثت بيديها بالعارضة الأفقية بين القائمين، وتحركت وهي تأرجح جسدها إلى الحبل الأول، لاحظتُ وقتها أنها تضع سكينًا بين فكيّها .. ثم تعلّقت بيدٍ واحدة وأمسكت بالسكين بيدها الأخرى حين أصبح الحبل الأول في متناولها، وبدأت تحز أليافه، في هذه اللحظة رأيتُ الطبيب يخترق الصفوف مسرعًا تجاهها، إلى أن وقف أسفل العارضة، ومدّ يده ليتلقف الرأس الأول قبل سقوطه إلى الأرض، فاخترقتُ الصفوف إليها أنا الآخر ..

انتقلت السيدة إلى الحبلين الآخرين، وفعلت معهما ما فعلته بالحبل الأول، بعدها ألقت سكينها إلى الأرض بعيدًا عنا، وتحركت بخفة إلى القائم الآخر، وهبطته إلى أسفل كفتاة لم تُكمل العشرين، كانت ناردين قد سارعت بإحضار جوالٍ من الخيش، فقام الطبيب بوضع الرؤوس الثلاثة بداخله، قبل أَن يضم طيّات فوهته بين قبضة يده مغلقًا له، فقالت السيدة بحزنٍ كبير:

–لنقِمْ لهم جنازةً تليق بهم.

كان الوادي بأكمله رجالًا ونساءً يقفون على مقربة من مقابر النسالى حين انتهينا من دفن الرؤوس الثلاثة، دُفنَ رأس زردق وامرأته في حفرة صغيرة، ودُفن رأس سوار في حفرة مُنفصلة، ثم أتى الطبيب بحجرين أبيضين أملسين ووضع أحدهما على القبر الأول ونقش عليه بسن سكينٍ صغير: «زردق وزوجته وداد .. تزوّجا عام ١٦٢٨ ب.ج[١]»، بينما نقَش على حجر سوار: «قاضي الجنوب الأول، شهد أول زواجين للنسالى» ..

ثم عدنا إلى الوادي، أخبرتنا السيدة أن العمل سيتوقف ذلك النهار، وكذلك المدرسة، حدادًا على أرواح الثلاثة .. قبل أن تمضي إلى كوخها في هدوء، كانت تعرف أن ذلك الأوان لن تُفيد فيه خطبة حماسية أو حديث ناصح بما يجب فعله .. لا تحتاج الأمور إلى توضيح أكثر من ذلك، سادة چارتين وقد أعلنوا لنا صراحةً مصير من يكرّر فعلة حيدر وسبيل، وكانت الرسالة واضحةً جدًا هذه المرة، إما الرذيلة أو رأس مُعلق على مدخل وادينا ..

(١) طريقة التقويم في چارتين، وهي اختصار لـ «بعد بناء الجدار».

لم أكن أعلم إن كانت سيدتي تمتلك خطةً بديلة تستطيع بها مداواة ذلك الشرخ الذي صدع نفوس الكثيرين منا، أم أنها مع ذلك الحزن البادي على وجهها كانت هي أكثر المتضررين بذلك الشرخ.

في المساء اتجهتُ إلى كوخ الطبيب من أجل الذهاب إلى السيدة لمعرفة ما سنفعله حيال ذلك الأمر بعدما شعرتُ أن التفكير بمفردي سيقتلني .. كان الطبيب مشوشًا للغاية هو الآخر، قال أنه رأى الكثير من الجرحى والدماء والقتلى، لكنه لم يرَ قط في حياته بشاعةً مثل تلك، وبوجهٍ واجمٍ أردف:

- رأيتُ اليأس يتسرب إلى الوجوه الشابة هذا الصباح ..

للمرة الأولى كنت أشعر في صوته بتلك النبرة المحبطة، وتساءلتُ:

- هل تسرعنا بإرسال زردق وفتاته إلى الباحة؟

زمّ شفتيه، ثم قال وهو يومئ برأسه نافيًا:

- لا أعرف ..

جاءت ناردين وأخبرتنا أن السيدة غفران لم تبرح غرفتها منذ عادت من دفن الثلاثة، فقال لها الطبيب:

- ابقيّ بجانبها، وإن أردتما شيئًا أخبرينا فحسب.

ثم غادرت، فقال لي:

- أُشفق على غفران .. صارت تُحمّل نفسها كل ما يحدث في هذا الوادي ..

قلت:

- نعم، أعرف ذلك، إنها امرأةٌ صالحة، وقائدةٌ حقيقية ..

أومأ برأسه موافقني، ثم سكتنا لوقتٍ قليل، بعدها سألني:

- كم عدد النسالى الذين يحضرون في الباحة أيام الغفران؟

أجبته:

- قد يكون عشرات، سواء من وادينا أو من وديان مدن چارتين الأخرى، أغلبهم نساء.

قال:

- ما يشغل بالي .. كيف عرف جنود جويدا بأمر سوار وزردق وعروسه؟

وتابع:

- في زحام الباحة الرهيب، من الصعب جدًا على الجنود الوصول إليهم، لقد رأيتُ ذلك الزحام بنفسي.

وفكر للحظةٍ، وقال:

- هذا يعني احتمالين، الاحتمال الأول أن يكونوا قد اُعتقلوا فعلًا داخل الباحة وسط زحام الحاضرين، وهذا يعني أن عامة الأشراف مَن أبلغوا الجنود عنهم، وهذه كارثة كبرى .. حسب

ما فهمته خلال أشهري هنا أن السادة هم من يكرهون النسالى ويكيدون لهم المكائد .. أما العامة فتبقى عقولهم مؤمنةً بأن النسالى چارتينيون مثلهم، وإن كانوا يكرهونهم لما ترسب في عقولهم عنهم، لكنهم يبقون بشرًا مثل كل بشر الدنيا، تحمل قلوبهم على الأقل ذرةً من خير، وتبقى إنسانيتهم هي الحصن الأخير لنا من بطش السادة، إن ذهب هذا الحصن فلن يتوانى سادتهم عن إذاقتنا أشد ألوان العذاب ..

ثم نهض وتحرك إلى النافذة وفتحها، ونظر إلى الأكواخ المكتسية بالسواد مع ظلام الليل، ثم التفت إليّ وقال:

- الاحتمال الآخر أن يكونوا قد اُعتقلوا خارج الباحة قبل دخولهم إلى الزحام، وهذا يعني أن هناك مَن وشى بهم من النسالى من متعلمي هذا الوادي، وهذه كارثة هي الأخرى ..

قلت واجمًا:

- يبقى هذا هو الاحتمال الأقرب للصواب، لم تشعر النساء اللاتي ذهبن إلى الباحة بأي جلبة أثناء مراسم يوم الغفران هناك، وإلا كُنَّ قد أخبرنني بذلك حين سألتهن أمس في الحانة..

وتابعتُ في ندم:

- أخطأنا باصطحاب زردق وفتاته معنا إلى الوادي المظلم، عرف الجميع من أحاديثهما الساحرة أنهما ينويان الزواج ..

وواصلتُ بنبرة بائسة:

- إن كان هذا الاحتمال صحيحًا، لن نعرف الواشي أبدًا، إن الأعداد كانت كثيرةً للغاية في الوادي المظلم في الأيام الماضية، وأخشى أن ينتشر هذا الاحتمال بيننا فتسود الفرقة والتوجس بين بعضنا البعض ..

وأخرجت زفيرًا ببطء، ثم قلت:

- لن يجرؤ أي شاب أو فتاة على المجازفة بالزواج في الوقت الحالي، كذلك لن يجرؤ أحد بأن يحل محل سوار .. رأيتُ مثلك الخوف البادي في الأعين جميعها هذا الصباح، لكن أكثر ما يخيفني حقًا، هو أن يتسرب اليأس إلى سيدتي ..

قال بحدة:

- لن تبقى غفران أبد العمر لهذا الوادي، وضعت لكم هذه المرأة أقدامكم على الطريق .. لا بد لكم أن تسيروا أنتم، إنها ليست مسئولة عن جر قدم كل واحد منكم ..

وأضاف:

- لم يتوقف رأسي عن التفكير اليوم، وتصفحتُ على نحو سريع كل ما لديّ من كتب تتحدث عن قواعد چارتين .. لا يصلح الزواج إلا داخل باحة جويدا، وخارجها يصير رذيلةً لا ينال معها المولود روحه إلا من روحٍ أعدم صاحبها في الباحة، وإلا يُولد ميتًا.

- والآن بات الموت محققًا لمن يذهب إلى الباحة من النسالى من أجل الزواج ..

- حسنًا، ليتزوج النسالى خارج الباحة، في هذا الوادي، في الوديان الأخرى، في أي بلد آخر، وإن لم تحصد أجنتكم أرواحًا، لنصنع شريعتنا بأنفسنا، واللعنة على الباحة ومن فيها ..

- سأحدّث غفران بشأن رحيلنا عن چارتين، إن صحراء بلدان الشمال تتسع لعشرات الأضعاف من النسالى، وإن لم ينجبوا جنينًا حيًا واحدًا هناك، مما رأيته صارت لديّ قناعة كاملة بأن انقراضًا بكرامة أفضل من عيشة كهذه.

ابتسمت ابتسامةً خفيفة حين تذكرت حديثي إلى السيد نديم عندما كنت طفلًا وقلت كلامًا يشبه ذلك تمامًا، وقلت للطبيب:

- قلت لسيدي هذا الأمر منذ سنوات، قال لي لن تبقى لنا قيمة في بلد آخر طالما لا قيمة لنا في بلدنا.

قال الطبيب:

- ربما لم يعش سيدك ليرى ما تتعرضون له الآن ..

وجلس إلى طاولته، وتابع بجديّة:

- سأرسل مع الفتيات المتجهات إلى الشمال في الأيام القادمة رسالةً إلى من أعرفهم في بني عيسى، ربما يساعدوننا في خروجنا إلى هناك .. سننتظر فحسب الشهرين الباقيين على ولادة سبيل، ثم نتخذ قرارنا الأخير بشأن ذلك، وإن صرت غير متفائل ..

وأضاف وهو يمضي إلى غرفة الكشف من أجل فحص مريضةٍ نادت باسمه:

- ستكشف لنا الأيام القادمة عن الكثير من خباياها ..

في الأيام القليلة التالية لاحظتُ أن عددًا من فتيات التصنيع وطلبة المدرسة قد تغيّبن، كذلك لم تحضر تلك الفتيات إلى الوادي المظلم ليلًا .. لم يشغلني الأمر بقدر ملامح اليأس التي كانت تغطي وجوه الكثيرين، والأحاديث الغريبة التي بدأت تتلفظ بها بعض الألسنة عن الحياة الأفضل التي كان يعيشها الوادي قبل مجيء السيدة غفران، لا أعلم أي أفضل كانوا يتحدثون عنه! تلك الليلة شبّ شجارٌ جديد بين بعض الشبان أصيب على إثره أحدهم بجرح كبير في جبهته، قال الشاب الذي أصابه أنه لم يستطع تمالك نفسهُ حين تلفظ الآخر بلفظ سيئ عن السيدة، فيما انسحب المُصاب إلى الوادي غاضبًا، ولم يعد إلى الوادي المظلم مرة أخرى أو إلى عملنا .. خلال ستة أيام صار عدد المتغيبين عن المدرسة والمخزن ملحوظًا للغاية، حاولتُ أن أذهب وأتحدث إلى بعضهم، قالوا ببرودٍ أنهم قرروا كسب عيشهم بمعرفتهم بعيدًا عن السيدة ..

ثم جاءت الضربة الكبرى التي لم نستعد لها، أو لم تكن في حسباننا على الأقل في ذلك التوقيت، عندما وجدنا فتاةً واحدة من بين خمسة فتيات كنّ قد غادرن الوادي ببضائعنا إلى المرفأ الجنوب شرقي حيث السفينة التي اعتادت على نقل بضائعنا تعود إلينا بعد يوم واحد فقط من رحيلها، تتناثر الخدوش والسحجات على وجهها وذراعيها، قبل أن تدلف إلى السيدة وتقول باكيةً:

- لقد رفض صاحب السفينة صعودنا إلى متنها .. قال إن أمرًا قد صدر بمعاقبة مَن يحمل مركبه أي نسلي إلى خارج چارتين، ومَن يفعل ذلك سيُحرق مركبه أمام عينيه ..

تساءلت السيدة في فزع حين رأت إصابات وجهها وذراعيها:

- وأين باقي الفتيات؟

قالت الفتاة:

- أراد الواقفون هناك سلب بضائعنا عنوةً حين رأوها، حاولت الفتيات الدفاع عنها، فقام الجنود باعتقالهن ..

- سُرقت البضائع كلها في غمضة عين، تركني أحد الجنود عمدًا كي أعود وأخبرك بما حدث ..

ثم قالت وهي تنشج بقوة:

- لم يعد مسموحًا للنسالى رجالًا ونساءً بمغادرة چارتين ..

سألها الطبيب الذي كان يصغي باهتمامٍ إلى كل حرف تقوله:

- من قام بسرقة البضائع .. الجنود أم العامة؟

قالت الفتاة:

- قام الجنود باعتقال الفتيات فقط، أما السارقون فكانوا من أهل جويدا ..

سكت الطبيب مفكرًا، بينما أشارت السيدة إلى ناردين كي تصحب الفتاة إلى غرفتها من أجل تهدئة روعها، ثم قال الطبيب حين أغلقت ناردين الباب من خلفها:

- هذا ما تحدثتُ مع ريان بشأنه .. هناك ما يحدث في جويدا يحرك مشاعر الكره داخل العامة تجاه النسالى أكثر وأكثر مما هو عليه، ربما يكون المدرسون في المدارس .. الخطباء في المجالس .. الشائعات، عملٌ مُنظم يسير وفق خطة محكمة، يسبقنا كيوان بخطوات كثيرة لقطع كل الأحبال التي قد تنجينا مع قدوم طفل سبيل بعد أقل من شهرين ..

- كنت أفكر في رحيل جماعي عن چارتين، لكنه لم يدعنا ننال تلك الفرصة حتى.

تساءلتُ غاضبًا:

- ولماذا لا يدعنا نرحل فحسب ليعيش حياةً هانئة هو والأشراف كما يريدون ..

قال الطبيب:

- مُنذ خُلق هذا الكون ويقوم قانون الحياة بين قطبين، أحدهما ظالم والآخر مظلوم .. أما النسالى فقد شغلوا الجانب المظلوم في چارتين، جانبٌ مظلوم ضعيف يتماشى بقوة مع هذا القانون .. لو تركنا نرحل لتبقّى الأشراف فقط، لكن هذا القانون لن يتوقف عن عمله، ولن يرحمهم .. سينقسمون بين أنفسهم إلى ظالم ومظلوم يمتلكان القوى نفسها تقريبًا .. سيأكلون بعضهم بعضًا إلى أن ينهار هذا البلد، لذا يظل بقاء النسالى هامًا لبقاء چارتين، وهو يعلم ذلك تمامًا ..

أومأتُ برأسي وأنا أنظر إلى السيدة التي ظل وجهها شاردًا تمامًا كأنها في عالم آخر .. ثم تركتهما وخرجتُ إلى كوخي أفكر فيما سينتج

عنه انتشار أخبار سرقة البضائع بين كل أزقة الوادي ، كذلك خبر منعنا من السفر خارج چارتين، مع رفض أشراف چارتين التعامل معنا، وكيف سيصبر النسالى على ذلك الحصار ولم يبقَ أمامهم سبيل للعيش وكسب عملات معدنية إلا الطرق القديمة؟

لم يطل الأمر كثيرًا لمعرفة إجاباتي .. في اليوم التالي كانت مخاوفي السيئة قد ظهرت بوادرها .. لم يحضر إلى المدرسة أو مخزن التصنيع من المتعلمين أو العمال ربع العدد تقريبًا .. وفي خلال خمسة أيام فقط صار عدد المُتعلمين بالمدرسة عُشر ما كان عليه قبل يوم الغفران الأخير، كذلك قلّت أعداد الفتيات اللاجئات إلى الوادي المظلم تدريجيًا إلى أن صار عددهن بالكاد يتجاوز العشرين، قال لي شاب بيأسٍ:

- تمتلئ بهن الحانةُ الآن .. وهناك أقاويل تنتشر بأن حاناتٍ أخرى ستُبنى لتسع تلك الأعداد الكبيرة.

صارت ضحكات الفتيات تجلجل مع سكون الليل، وصارت أعداد الأشراف القادمين إلى حانات الوادي أضعاف ما كانت عليه قبل شهر واحد .. كذلك تضاعفت أعداد نساء النسالى المتجهات إلى جويدا بثيابٍ خليعة قبيل غروب الشمس بحثًا عن بيوت الرذيلة، كانت بينهنّ الكثيرات من الفتيات اللاتي تعلمن في مدرسة السيدة لسنوات .. رأيتُ إحداهن تمارس الرذيلة علنًا أمام أحد الأكواخ قبل أن يلقي إليها الشاب الچارتيني بقطعة نحاسية، حاولتُ التحدث إليها لم تستمع إليّ حتى، ونهرتني وهي تهندم ثيابها العارية، قبل أن تتركني لتبحث عن شريف آخر .. عرفتُ أن كثيرًا من الشبان قد عادوا إلى قطع طرق الجنوب وسرقة

مخازن الأشراف ودكاكينهم .. كذلك اُعتقل ثلاثة رجال في يوم واحد لارتكابهم ثلاث جرائم قتل مختلفة .. ثم كانت الصفعة المؤلمة حين شرع بعض الشبان في اغتصاب ثلاثة فتيات من الوادي ممن آثرن البقاء في أكواخهن بعيدًا عن الحانات أو الوادي المظلم، حاول شُبّان آخرون الدفاع عن الفتيات من أولئك الأنذال .. شبّ شجارٌ رهيب قُتل على إثره شابان وفتاة، ولم تنجُ أخرى من الاغتصاب .. صارت الفوضى تعم كل شيء من حولنا، وصرنا أنا والسيدة والطبيب وسبيل ونادرين والقلة القليلة التي لم تتخلَّ عن مدرسة السيدة منبوذين في هذا الوادي .. انهار كل شيء فجأة، وعاد الوادي إلى ما كان عليه قبل سنوات، بل صار أسوأ من ذلك، وبدلًا من انتصار ثالث طمعنا في تحقيقه على أشراف چارتين يوم الغفران السابق .. أُصبنا نحن بالضربة القاضية.



(١١)

صارت الأيام تمضي بثقل شديد، رفض كل مَن تركنا محاولات إقناعنا بالعودة إلى المدرسة أو العمل مرة أخرى .. وبين يوم وآخر كان يتخلى عنا فرد جديد ممن بقوا معنا .. في يوم غفران ذلك الشهر أعدم أربعة شبان وامرأتان جميعهم من وادينا، حصدت أرواحهم خمسة نسليات من وادينا أيضًا، وقيل أن الروح السادسة حصدتها نسليةٌ تنتمي إلى وادٍ آخر .. كان الاحتفال ذلك المساء بحاصدات الأرواح صاخبًا بدرجةٍ غير مسبوقة حتى ظننت أن ساكني جويدا يستطيعون بكل وضوح سماع موسيقا حانات الوادي من شدة صخبها، فيما ظللنا نحن قابعين في أكواخنا بائسين لا نعرف ماذا سيحمل لنا الغد أو الساعة التالية حتى، صرنا فجأةً كمن ضاعوا في عرض بحر هائج بعد غرق سفينتهم ولا يعلمون ماذا ستفعل بهم الموجة القادمة.

في خلال تلك الأيام تزايد إعياء سبيل بمعدل كبير، لكن السيدة لم تهمل رعايتها للحظة واحدة، وكذلك الطبيب الذي طمأننا بأن ذلك أمر طبيعي مع اقتراب موعد وضعها، كانت أملنا الوحيد المتبقي لعل النسالى يعودون إلى رشدهم مرة أخرى، أو ربما هذا ما كنا نظنه.

واصلت السيدة غفران تلقين دروسها إلى الصبية القليلين المستمرين معها، فيما توقف كوخ التصنيع عن العمل ليس إلا من أعمال بسيطة مثل صنع كميات قليلة من زيت الزيتون وجبن الماعز، أشياءٌ كنا نصنعها من أجل بقائنا فحسب بعيدينٍ عن حافة الجوع .. بدأ الطبيب للمرة الأولى يتقاضى مقابلاً بسيطًا من مرضاه بعد أشهر طويلة من العمل في الوادي بدون مقابل والاكتفاء بحصصه من الطعام التي كانت توزعها السيدة من نقود البضائع، قال لي يوم اتخذ ذلك القرار بأنه اضطر إلى ذلك ليوفّر دخلًا يكفي لمعيشتنا إلى أن تمر تلك الأزمة، كان واضحًا من حديثه وإن لم يقلها صراحة أنه صار محبطًا جدًا، ولا يعرف مثلي إن كانت تلك الأيام الصعبة ستمر حقًا أم أننا نتشبث بأملٍ زائف ستزداد معه الأوضاع سوءًا.

مع مرور أيام ذلك الشهر قلّ قدوم جنود الأشراف إلى الوادي، هناك من قال أنهم اتجهوا إلى وديان أخرى من وديان النسالى، وآخرون قالوا أنهم كُلفوا بحماية الطرق الجنوبية الممتدة بين الموانئ الجنوبية وجويدا بعدما زاد معدل السطو والسرقات على بضائع الأشراف، أيًا كانت الأسباب فلم يعد أنذال الأشراف في حاجة إلى مَن يحمونهم في وادينا بعدما صار مُرحبًا بهم وبنقودهم في كل أزقة الوادي .. ومع انسحاب مزيد من الشبان كان جليًا لنا قبل الآخرين أن إعلان هزيمتنا صار مسألةَ وقت .. سألتُ سيدتي ذلك المساء حين اجتمعنا في فناء كوخها وكانت بعض الألعاب النارية تضيء سماء وادينا:

- هل انتهى كل شيء؟!

قالت باسمة:

– ما زالت أرواحنا حية .. وهناك شريف قادم في الطريق ..

قلت بنبرة متشائمة:

– لم يعد معنا إلا القليلون .. يقلّون بدورهم يومًا بعد يوم.

قالت:

– ربّ شخص واحد يقلب الأمور جميعها رأسًا على عقب ..

تحولت تعابير وجهي إلى ابتسامة وقلت فرحًا:

– ظننت أن اليأس قد تمكن منكِ.

قالت ببسمتها الطيبة:

– لا يعيب إن تمكن منا اليأس أحيانًا .. إننا بشر، لكني أعرف كيف أتصدى له قبل أن ينخر آخر حصنٍ داخلي.

تنهدتُ وقلت:

– إن لأسوأ شعورٍ أن يضيع تعب سنوات هباءً، أن يصير البناء ركامًا في لحظةٍ واحدة .. وأنا أعرف كم تعبتِ بيننا. أنا ونادرين وسبيل فكنا ولا زلنا نسالى .. الطبيبَ يبقى غير چارتيني لا تُطبق عليه القواعد ..

ونظرتُ إلى وشم كتفها، وقلت:

– إنك أكبر الخاسرين هنا ..

ابتسمت وقالت:

- ربما لو بقيتُ شريفةً لم أكن لأجد صحبةً أفضل من هذه ..

ثم ضحكت ونهضت من جلستها، وانحنت إلينا وقالت:

- أيها السادة لقد استمتعت بصحبتكم ..

ثم جلست مرة أخرى .. كان الطبيب قد انتهى من عيادته فانضم إلينا وجلس إلى جوار السيدة، وضحك حين مرت جماعةٌ من النسالى ولم يلقوا إلينا التحية حتى، وقال ساخرًا:

- ما أجمل أن تكون منبوذًا من المنبوذين أنفسهم ..

ثم نظر إلى سبيل، وقال:

- أخبري ابنك أو بنتك مستقبلًا أن هناك أناسًا كثيرين عانوا من أجله.

وأشار بيده نحونا .. ابتسمت سبيل، وأومأت برأسها إيجابًا دون أن تقول شيئًا، فسألتُه:

- كم يتبقى على موعد ولادته؟

أجابني:

- بين أسبوعين إلى ثلاثة أسابيع ..

قلتُ:

- مع حلول يوم الغفران القادم إذًا ..

هز رأسه موافقني ثم قال:

- أو بعده بأيام ..

فقالت سبيل بصوتٍ قلق:

- هل لا يزال النسالى ينتظرون قدومه أم لم يعد ذا أهمية بالنسبة لهم؟

قالت السيدة غفران:

- كان وسيكون ذا أهمية للنسالى ..

وأكملت بعد برهة من الصمت:

- ربما يأتي جيلٌ جديد يستطيع فعل ما فشلنا في فعله ..

قلت:

- هكذا نعلن هزيمتنا إذاً؟!

قالت السيدة بعدما دوّت أصوات الألعاب النارية وتناثرت نيرانها بالأعلى لتضيء السماء من فوقنا:

- عليك أن تتقبل الهزيمة في إحدى الجولات بصدرٍ رحب أحياناً.

تساءلت ناردين في تشكك:

- هل هناك أمل في جولات أخرى إذاً؟

ابتسمت السيدة وكادت تجيبها لولا أننا رأينا مَن يعبر بوابة الفناء وهو يجرّ حصانه نحونا، فصمتنا جميعًا عن الحديث في انتظار رؤية وجهه المتواري مع ظلام الليل، حتى اقترب منا فظهرت ملامحه مع نيران أقرب المصابيح إليه، كان عجوزًا نحيفًا تغطي التجاعيد وجهه

وصدره العاري، تظهر عيناه كعيني صقر أسفل حاجبين كثيفين، وتتناثر برأسه شعيرات بيضاء قليلة بدت أنها ما تبقى من شعره خلال سنواته الكثيرة الماضية. لم تختلف فرسه عنه كثيرًا .. كانت هزيلة مُسنة كأنهما وُلدا في اليوم ذاته .. نظر إلى النساء حين اقترب منا، وقال بصوتٍ بدا قويًا على هيئته:

- أبحث عن السيدة غفران ..

نهضت سيدتي من بيننا، فقال:

- جئت من أجلك أيتها السيدة، أريد التحدث إليكِ ..

قالت سيدتي:

- إن الجميع هنا أهل ثقة، تفضل ..

وأشارت إليه بالجلوس، فجلس موضع ناردين التي نهضت لتعقل لجام فرسه بأحد الأوتاد الخشبية بالفناء وتطعمها، قبل أن تعود ومعها مصباحان زيتيان إضافيان ووضعتهما بمنتصف الدائرة أمامنا، فيما أحضرت سبيل شرابًا باردًا من الماء المخلوط بالعسل وقدمته إلى ذلك العجوز، بحثتُ بعيني عن وشم صدره، كان باهتًا جدًا لدرجة جعلتني أحتار إن كانت ألوان وشمه قد اختفت من جلده مع الزمن أم أنه لم يُوشم أصلًا وكانت تلك الآثار على صدره مرضًا أصاب جلده.

قال الراجل مقاطعاً تفكيري:

- أدعى خُشيب، كنت من أشراف مدينة طُبيرة قبل أن أخترق القاعدة الأولى ..

اتسعت حدقتا عيني اندهاشًا وتشككًا بعدما عشت سنوات عمري أظن أن اختراق الأشراف لتلك القاعدة ضربٌ من ضروب الخيال، واصل الرجل حديثه دون انقطاع:

- بلغتُ عامي السبعين هذا العام، عشت منهم عشرين في صحاري الجنوب ووديانها البعيدة ..

وارتشف رشفةً من شرابه وقال:

- بدأتُ أسمع عنك منذ عامين فقط، ولطالما سألتُ العابرين في الصحاري من النسالى عما تقدمينه .. وأشفقتُ عليك كثيرًا حين عرفتُ بأمر انتزاع صفة الشرف منكِ بداية هذا العام .. إنني أعرف جيدًا الفارق بين الحياتين.

ابتسمت إليه السيدة ابتسامة حانية، فأكمل:

- كنتُ مَن أقنع زُردق ووداد بالقدوم إليك من أجل إعلان زواجهما، وكنتُ في انتظار عودتهما إليّ على أمل أن استطيع فعل ما فشلت فيه كل السنوات الماضية .. لكن رجائي قد خاب بعد ما حدث لهما، ثم عرفتُ من أحد العابرين بما بدأ يحدث في الوادي هذه الأيام .. فجئتُ إليكِ لأخبرك بأمرٍ احتفظت به لنفسي سنواتٍ طويلة ..

انتبهنا جميعًا إلى الرجل، واعتدل الطبيب في جلسته وحدّق به مترقبًا، وتساءلت السيدة بتعجب:

- أي أمر؟!

قال:

- توارثت عائلتي بعض المخطوطات القديمة جيلًا بعد جيل دون أن يدري أحد من أهل چارتين بوجودها، أخبرني أخي الأكبر عنها قبل رحيله إلى وادي حوران بيوم واحد، وأعطاها لي بصفتي وريثه الأوحد بعدما لم يتزوج، وسألني أن أعاهده على بقائها أمانة لدى عائلتنا حتى تصل يومًا ما إلى أصحابها، مثلما أوصاه أبي قبل رحيله أيضًا ..

وتابع وهو يخرج قطعةً جلدية ملفوفة، كانت قديمة ومهترئة الحواف كأنها دُبغت قبل بناء الجدار:

- ما إن مر نهارٌ واحد على رحيل أخي حتى انتفض الفضول بداخلي كي أرى ما تحتويه تلك المخطوطات خاصةً مع الجدية التي تحدث بها واحتفاظه بها كل تلك الأعوام على حد قوله دون إخباري عنها، فوجدتُ بينها هذه المخطوطة.

وبدأ يفتحها أمامنا بحرصٍ شديد وهو يقول:

- أثارت هذه الرسمة فضولي كثيرًا ..

فقرّب الطبيب المصباح منها كي نرى ما يتحدث بشأنه، فتسارعت دقات قلبي واندفعت الدماء إلى وجهي، لم تكن تلك الرسمة تحتاج إلى شرحٍ بالنسبة لي .. كانت لرجل نسلي عارٍ يشبه تمامًا السيد نديم حينما كانت تثور روحه وتنتفخ عضلاته وعروقه، حتى وجهه كان قد رُسم وهو يزأر مثلما كان سيدي يفعل تمامًا، كانت بقية الرسمة عبارة عن رجالٍ أشراف يمسكون بسلاسل حديدية قيّدت

أطراف ورقبة ذلك النسلي .. وكدت أصرخ إليهم وأقول أنه يشبه سيدي لولا أن الطبيب رمقني بنظرته كأنه فهم ما أفكر فيه وأرادني ألا أنطق بشيء إلى أن ينتهي ذلك الرجل من حديثه، فأومأتُ برأسي إليه في خلسة موافقًا له ولم أنطق، أكمل الرجل:

- يقترب عمر هذه المخطوطة من ألفي عام .. كان عليّ أنا الآخر أن أورّثها إلى أحد أبنائي تنفيذًا لوصية أخي .. لكن زوجتي الحرباء هجرتني بعد رحيل أخي بأقل من عام، وبعد أكثر من محاولة فاشلة للزواج من امرأة أخرى قررتُ ألا أتزوج .. وبدأتُ أقضي حياتي بين الحانات ووديان النسالى من أجل صيد فتياتهم، ونسيت أمر مخطوطات أخي تمامًا ..

إلى أن جاءت إحدى الليالي في عامي الخامس والأربعين، وكنت في صحبة مع صديق لي إلى وادي «مُريان» النسلي القريب من طُبيرة .. كان لديهم فتيات حسناوات تستطيع الواحدة منهن جلب لك قطعة من السماء في ليلة واحدة، وكنت في فراش إحداهن بكوخٍ بعيد عن بقية الأكواخ حين سمعت أذني ذلك الزئير للمرةٍ الأولى .. انتفضت عاريًا ليلتها لأفتح النافذة بخوف شديد، فرأيته أمامي .. نسليٌّ نصف عاري ضخم الجثة مثل الذي رُسم في هذه المخطوطة تمامًا .. يجثو على ركبتيه، ويأكل أحشاء صديقي الميت .. وبين حينٍ وآخر كان يلتفت بشكلٍ مفاجئ حوله ليطلق زئيره إلى السماء قبل أن يواصل غرسٍ يده الملطخة بالدماء إلى أحشاء صديقي ويحمل ما تنتزعه إلى فمه ويلتهمه ..

أتذكر أنني تبوّلت على قدمي وقتها رعبًا، بينما فقدت الفتاة النسلية وعيها على الفور حين تسللت من خلفي ورأت ما رأيته، حينها أغلقتُ النافذة بهدوء شديد، وانسللتُ إلى أسفلها، وألصقت نفسي للحائط بأنفاسٍ متسارعة وجسدٍ يرتعش مع كل نوبة زئير يطلقها ذلك النسليّ ..

إلى أن هدأ زئيره فتمالكتُ نفسي ونهضتُ مجددًا لأختلس النظر إليه عبر شقٍ بالنافذة، فوجدته يجرّ بيد واحدة ما تبقى من جثة صديقي ويبتعد به نحو الظلام، وقتها تذكرتُ هذه الرسمة، فارتديتُ ثيابي مهرولًا .. وعدت على فرسي بسرعة البرق إلى بيتي لأخرج هذه المخطوطة والمخطوطات الأخرى التي تركها لي أخي وتصرخ في رأسي كلماته بأن أعده بأن تظل تلك المخطوطات لدى عائلتنا إلى أن تذهب إلى أصحابها، وتعصف بعقلي كافة التساؤلات عن ذلك التشابه بين النسلي المرسوم قبل مئات السنين والنسلي الذي رأيته بعيني قبل ساعات .. وذلك الزئير الغريب الذي لا يستطيع بشر أن يصدره قاصدًا، وصديقي القوي الذي بدا صيدًا ضئيلًا للغاية أمام ذلك النسلي .. لو أخبرني أحد عن ذلك الأمر لما صدقته، لكني رأيته بعيني ..

كنت أحدّث نفسي بصوت مرتعش وأنا أتفحص الرسمة وكل تفصيلة فيها: «الآن فهمتُ لماذا ترتعب وجوه الممسكين به إلى هذا الحد، فهمتُ لماذا يمسك ستة رجال بنسلي واحد»، وصرختُ إلى نفسي بأنفاسٍ متسارعة في حالة أشبه بالجنون: «مَن أصحاب هذه المخطوطة الذين تحدث عنهم أخي؟! .. ولماذا كنت أنا بالذات مَن يرى ذلك المخلوق؟»..

ولم يطلع الصباح إلا واتجهتُ إلى جويدا، وقضيتُ أيامًا كثيرة هناك أتصفح كتب مكتباتها الكبرى، لم أجد شيئًا عما رأيته .. زرت المكتبات الكبرى في مدن چارتين الأخرى لعلي أعثر على شيء أو خيط يفسّر لي ما حدث، لم أجد شيئًا هناك أيضًا .. سألتُ كثيرًا من الأشراف الذين يمتلكون نسخًا فريدة من أمهات الكتب والمجلدات القديمة أن يسمحوا لي بتصفح بعضها دون أن أظهر لهم صراحةً عما أبحث عنه، وافق بعضهم، لكني لم أجد صفحةً واحدة تتحدث عن إعدام نسلي متوحش قبل قرون أو نسالى يأكلون لحوم البشر ..

عدت إلى وادي «مُريان» في ليالٍ أخرى .. وجدتُ كوخ الفتاة التي رافقتها تلك الليلة قد صارٍ مهجورًا، حتى الفتاة نفسها لم أرها مرة أخرى كأن الأرض قد انشقّت وابتلعتها .. سألتُ النسالى هناك إن كان أحدهم قد رأى شابًا أو كائنًا بتلك الصفات، أو إن كانوا قد سمعوا زئيرًا بمناطق الوادي المظلمة بالجوار .. قالوا أنهم اعتادوا سماع زئير حيوانات الصحاري فحسب، ولا يعلمون شيئًا عما أتحدث بشأنه .. قضيتُ ليالي كثيرة هناك في انتظار أن يظهر من جديد، لكنه لم يفعلها ..

ذهبتُ إلى الباحة أيام الغفران من أجل مشاهدة المعدومين وتفحص النسالى الواقفين بين الجمهور، كان جميعهم يشبهوننا لا شيءَ غريب عنا سوى أوشامهم .. حملتُ أمتعتي على صهوة جوادي وذرعتُ الصحاري الجنوبية ووديانها لعلي أعثر على شيء يجيب أسألتي التي شبّت في رأسي ولم تخمد .. يومًا وراء يوم .. ليلة وراء ليلة .. شهرًا وراء آخر.

وصمت للحظات ليلتقط أنفاسه، ثم أكمل:

- إلى أن جاء يومٌ أمطرت فيه السماء بقوة، وكنت وقتها جنوب الجبال الحمراء بالقرب من وادي «عقيل» النسلي حين سمعت أذني ذلك الزئير مرة أخرى، ركضتُ كالمجنون أسفل الأمطار في اتجاه الصوت، لكني لم أستطع اللحاق به تلك المرة كذلك، فقررتُ أن أبقى في ذلك الوادي لعل ذلك النسلي يظهر من جديد..

مع أيامي هناك أدركتُ المعاناة الحقيقية التي يحياها أهل ذلك الوادي بعدما رأيتهم يتعرضون لأقصى أنواع الاضطهاد والعنف من أحد أثرياء الأشراف، بدرجة كانت تفوق ما يحدث في هذا الوادي الآن..

ونظر إلى النسلي المرسوم بالمخطوطة نظرة فخرٍ، وقال بصوتٍ فَرِح:

- إلى أن عثرنا ذات صباح على جثة ذلك الثري الظالم متآكلة الأحشاء والأطراف بصورة بشعة في إحدى المناطق القريبة من الوادي.

أخفيتُ مع النسالى بقايا تلك الجثة عن عيون الأشراف خشية أن تصبح جرعات العذاب أضعافًا مضاعفة، ولم يعرف أحد بهذا إلى الآن.. كان النسالى يجهلون كيف قُتل ذلك الرجل بتلك الوحشية.. وأقسم جميعهم أنهم لم يفعلوها، كنت أعرف أن ما كنت أبحث عنه هو مَن فعلها، لكن عقلي وقتها انشغل بشئ آخر وتذكّر أن صديقي الذي قُتل بوحشية على يد النسلي كان

أكثر من عرفتهم في شبابي اضطهادًا وأذى للنسالى .. حينها فكرت أن تلك المخلوقات أو النسالى المتحولين ليسوا بأشخاصٍ مختلفين عن النسالى الذين عايشتهم، بل قد يكونوا همّ أنفسهم، وأن تعرضهم للظلم كان ما يجعلهم يصيرون هكذا من أجل انتقام يعجزون عنه بهيئتهم العادية ..

وودتُ لو بقيت أكثر في ذلك الوادي من أجل إثبات ما فكرتُ به، لكن قواعد چارتين لم تمهلني، وداهمني عامي الخمسين ..

- ركبتُ يومها فرسي تاركًا الوادي، وشققتُ طريقي نحو طُبيرة من أجل انتظار مَن يرافقونني إلى وادي حوران، وعقلي يفكر في النسالى الذين أحببتهم، وما تعرضوا له من ظلم خلال فترة تواجدي معهم، والجثة المتآكلة بوحشية، وأصوات الزئير التي لطالما ارتبطت بأكثر الأماكن تعرضًا للظلم .. والمخطوطة التي لم تفارقني لسنوات وأصحابها الذين لا أعتقد أن أخي يعرفهم من الأساس، هو أو أي فرد من أفراد عائلتي القدامى .. وجال بخاطري أن يكون بعضٌ من أجدادي قد أفنوا سنواتهم مثلي في البحث عن سر تلك المخطوطات وسر النسالى الزائرين إلى أن توقفوا عن بحثهم رغمًا عنهم مع بلوغهم الخمسين وخضوعهم للقاعدة الأولى، ثم وجدتُ نفسي أوقف فرسي لأسأل نفسي مستنكرًا، وأنا أنظر إلى الطريق الممتد أمامي وبيوت المدينة التي بدأت تلوح في الأفق:

ما الذي يحملني على الإكمال في هذا الطريق؟! .. لماذا أذهب بأقدامي إلى الموت؟! .. إنني لا أحب أن أموت الآن .. كما أنني

في حاجة إلى معرفة إجابات الأسئلة الكثيرة التي تدور في رأسي، ما الذي سيُضاف ليّ من خضوعي للقاعدة الأولى؟! تنتقل روحي إلى طفل شريف سخيف لا يتذكر أي شيء عما حدث لي خلال تلك السنوات؟!!

ووجدت نفسي فجأةً ألعن القواعد وچارتين كلها، وبدأ لساني يسبها بأقذر السباب، ثم استدرت بحصاني ولكزته بقدمي ليركض بي تجاه الصحراء الجنوبية ووديانها من جديد مبتعدًا عن مدن چارتين، غير أنني ابتعدت عن وديان النسالى القريبة من المدن في تلك الأونة، وكذلك الوديان المعروفة بزيارة الأشراف والجنود وكذلك وادي «عقيل» خوفًا من وشاية بعض الأنذال عني مقابل مكسب ضئيل من العملات المعدنية .. ولجأتُ إلى واد صغير متطرف لا يتعدى سكانه مائتي شخص، ساعدتني هناك إحدى نسائه على نقش وشم النسالى على صدري ليعتقد مَن يراني من نسالى الوديان الأخرى أو الجنود الذين لا يعرفونني أنني نسلي مسن في مأمن من قواعد چارتين طالما بقيت بعيدًا عن مدنها الأربع عشرة ..

ثم سكت لحظةً وأخرج زفيره وقال بصوت هادئ:

- كان قراري باختراق القاعدة الأولى أكثر القرارات إصابةً في حياتي وإن عانيتُ بسببه كثيرًا .. لكن كل هذا العناء قد زال حين عثرتُ بالنهاية عما ظللتُ أبحث عنه لسنوات .. كان أجدادي محقين بإخفاء تلك المخطوطة كل هذه السنوات ..

نظرتُ إليه متلهفًا في انتظار ما سينطق به، وأنا أفكر عما إن كان ما عثر عليه يتعلق بسيدي نديم، ولهذا جاء إلينا بعد كل هذه

السنوات، قبل أن يسبقني الطبيب ويسأله في ترقب:

- ما الذي عثرت عليه في النهاية؟!

فقال العجوز وهو ينظر إلى بطن سبيل:

- إنني أعرف كيف يستطيع النسالى إنهاء قواعد چارتين للأبد.

(١٢)

سيـــرين

كنت في طريقي إلى سريري عندما دقّ زهير باب بيتي باحثًا عن آدم ليودّعه قبل سفره إلى جويدا، ومعه تطاير النوم من عيني بعدما كنت أظن أن سبب تأخر آدم هو بقاؤهما معًا، وإن لم يمكثا إلى ذلك الوقت المتأخر من قبل، ثم بدأ هطول الأمطار بالخارج ففكرتُ في الخروج بحثًا عنه، لكني تراجعت. كنت أعلم أن ذلك سيصيبه بغضب شديد بعدما لم يعد يعتبر نفسه صغيرًا، لم تبقَ إلا أشهر قليلة ويتم عامه السادس عشر، سن البلوغ في چارتين .. فجلستُ على مقعدي المواجه للمستوقد المنطفئ، وأسندتُ ذراعي إلى الطاولة الخشبية أمامي في انتظار عودته بقلق كبير.

مر مزيدٌ من الوقت اشتعلت معه الوساوس في رأسي ،كان جانبًا مطمئنًا بداخلي يفكّر بأن يكون سبب تأخره هو معرفته برحيل صديقه المفاجئ، وأن يكون ذلك قد أصابه بحزنٍ شديد لم يردني أن أراه على وجهه، أما الجانب السيئ مني فانشغلَ بهطول الأمطار،

ومع اشتدادها تصاعد الخوف بداخلي بعدما جال في خاطري يوم المطر العظيم وحالة الهياج التي أصابته ليلتها وفقدانه وعيه بعدها، نعم لم يحدث ذلك الأمر بعدها خلال الست سنوات الماضية لكني لم أنسَ قط تلك الليلة، وإن لم أخبره أو أحدثه عنها بعدما تأكدتُ أنه لا يتذكر عنها شيئًا، إلا أن القلق قد بلغ مبلغه مني مع اجتياز الوقت منتصف الليل، وتغلّب الجانب المتشائم بداخلي وازدادت معه الوساوس بأن يكون ما أفكر فيه صائبًا، وأن يكون هياجه يرتبط باشتداد المطر، فنهضتُ من موضعي لأخرج باحثةً عنه، ولم أكد أرتدي حذائي الجلدي طويل العنق لأخطو إلى الخارج حتى وجدتُ باب البيت يُفتح، ويدلف إليّ آدم مبتل الشعر والثياب يحمل حذاؤه أكوامًا من الوحل، كانت ملامح وجهه متبدلة إلى حد كبير، فتساءلتُ في قلق وقد دار بذهني أن يكون ذلك الهياج أصابه:

- هل هناك خطب ما؟!

خلع حذاءه المُوحل، وجلس على الكرسي الذي كنت أجلس عليه قبلها بدقائق، ثم أخرج من سترته ورقة مُبتلة الحواف ملفوفة بإحكام، وقال بوجهه الشارد بأنها تخص صديقه زهير، قبل أن يخلع سترته المُبتلة، فأسرعتُ وأحضرتُ إليه سترةً أخرى ومنشفةً قماشية جفف بها شعره وجسمه، ثم أشعلتُ نيران المستوقد وقتما يرتدي السترة الجافة، وجلستُ أمامه وسألته مجددًا:

- هل هناك خطب ما؟

فقال بذهنٍ مشتت:

- حدث أمرٌ غريب للغاية اليوم.

مددتُ يدي وربتُّ على يده المستندة على الطاولة، وقلت بلطف:

- أعرف ما حدث ..

نظر نحوي متعجبًا، فأردفتُ:

- أخبرني زهير أنه سيغادر مع أهله.

نظر إليّ بنظرةٍ أكثر تعجبًا كأنه لم يعرف بأمر رحيل زهير، وتساءل في دهشة:

- إلى أين؟!!

قلت:

- جاء قبل ساعات ليخبرك بأمر رحيله إلى جويدا.

لاذ بصمته من جديد، وعاد إلى شروده، وبدأ يطرق الطاولة بإصبعه برفق، فتابعتُ حديثي:

- لم يستطع أن يغادر دون أن يخبرك.

هز رأسه إيجابًا، وزمّ شفتيه حزنًا .. كنت أعلم مدى الحزن الذي يشعر به في ذلك الأوان، يحتاج المرء سنوات طويلة لتعويض صديق طفولته وخاصةً إن كان صديقًا جيّدًا مثل زهير .. ثم أردفتُ وأنا أنظر إلى الورقة الملفوفة على الطاولة أمامي:

- أوصاني أيضًا بأن أذكّرك بالذهاب إلى معلمه بين كل حين وآخر .. قال إنك تعرف بهذا الأمر ..

أومأ برأسه إيجابًا دون أن يقول شيئًا، ثم غاب في شروده مرة أخرى، وانطبع وجهه بملامحه التي عاد بها من الخارج كأن حديثي عن زهير ورحيله لم يبدّل ما كان يشغله، أو على الأقل لم يتبدل وجهه بالقدر الذي كنت أتوقعه فتساءلتُ:

- أهناك أمر آخر؟

رفع عينه إليّ وقال:

- نعم.

نظرتُ إليه بترقب كي يكمل حديثه عن ذلك الشأن الذي يشغل تفكيره بدرجة فاقت رحيل صديقه، وتوقعت أن يتحدث عن إغماء أصابه بالخارج، لكنه أخرج زفيره وقال بهدوء:

- ذلك الكابوس.

منذ اصطحبتُ آدم إلى بريحا وتعودتُ على غرابته .. بدأ الأمر بما حدث يوم المطر العظيم مرورًا بتواصله مع الخيل وإجادته ركوبها بتلك البراعة، وكذلك قوته التي مكّنته من حمل أشياء لم يكن لطفلٍ في سنه بأن يحملها، إلى الأمر الأكثر غرابة وهو تلك الكوابيس التي بدأت تزوره قبل ثلاثة أعوام .. لا زلت أتذكر تلك الليلة حين أيقظني من نومي حائر الوجه ليقول أن الكابوس قد زاره مجددًا، نظرتُ إليه متعجبة وقتها، وسألته:

- أي كابوس؟!

قال:

- كابوسٌ تكررت زيارته لي أثناء نومي، الكابوس ذاته لا يتغير ..

ثم بدأ يحكي لي عن ساحةٍ رملية عظيمة يركض فيها حافي القدمين بسرعة قصوى لا يستطيع أحدٌ معها اللحاق به، يركض إلى ما لا نهاية كأنه هارب من شيءٍ ما، بينما تنظر إليه أعين أناس واقفين يمينًا ويسارًا لا تظهر ملامح وجوههم، إلى أن يصل جدار چارتين وقد تمكن التعب منه، حيث يخضع كحيوانٍ منهك القوى أسفل أقدام أحدهم يخرج سكينًا مشحوذًا وينحر عنقه كذبيحة الجزارين دون أي مقاومة منه، لتتناثر دماؤه على صخور قاعدة الجدار، فتنطفئ الأعين التي تراقبه في صمت.

حاولتُ أن أخفف من روعه وقتها، وجاء في بالي أن يكون ذلك الأمر مرتبطًا بعملنا في ورشة صناعة السكاكين، قال بإصرار كبير بأن الكابوس ذاته تكرر معه لأيام سابقة ولم يخبرني، وأنه من بين كل أحلامه كان يتذكر ذلك الكابوس، حدثتُه أن الأمر طبيعي، وبدأتُ أحكي له كذبًا عن كوابيس مخيفة كانت تزورني كثيرًا بالفترة التي هرب فيها أبي من القاعدة الأولى، إلى أن اطمأن ونام مجددًا ..

ظل ذلك الكابوس يطارده في منامه لليالٍ أخرى متتالية لم أستطع معها خلق المزيد من الحكايات، إلى أن أخبرني متعجبًا ذات صباح أن الكابوس لم يأته في ليلته السابقة، وبعدها مرت ليالٍ أخرى كثيرة لم يظهر ذلك الكابوس بها، سعدتُ بذلك كثيرًا، وظننت أن قرار السيد عبود بانتقاله إلى ورشة الأسلحة النارية وتركه لورشة السكاكين وحدوات الأحصنة كان سببًا رئيسيًا في ذلك، ولولا أنني لم

أخبر أحدًا عن ذلك الأمر لكنت قد ذهبت إلى السيد عبود وقدمتُ له امتناني الكبير عما فعله من أجل آدم ..

غير أن الأمر نفسه قد تكرر مرة أخرى بعد سبعة أو ثمانية أشهر، ووجدتُ آدم يخبرني بأن الكابوس ذاته قد عاوده من جديد، الساحة ذاتها التي يركض فيها .. الأعين التي تراقبه، لكن تلك المرة رأى أيادي أولئك الأشخاص الصامتين ترتفع لتشير إليه وهو يواصل ركضه، قبل أن يذبحه الشخص ذاته أسفل جدار چارتين.

في ليالٍ أخرى حدثني أن أفواه المراقبين له قد بدأت في الظهور، في ليلة جديدة رأى أفواههم تصرخ بكلمات غير مفهومة كانت تصل عنان السماء مع اشتداد المطر من فوقهم، بينما كان يواصل ركضه تجاه جدار چارتين .. وقال مستغربًا كأنه بات يؤمن بأن ذلك الكابوس واقع فعلًا:

- كان صوت المطر يتداخل مع أصواتهم بقوة ليشوّش سمعي، كنت أعلم أنهم يصرخون إليّ، لكنهم لم ينطقوا باسم آدم قط، لو نطقوا به لالتفتُّ إليهم ..

في ليلة أخرى قال شاردًا؛ رأيتهم يصرخون وهم يشيرون إليّ باسمٍ آخر .. لم يتذكر ذلك الاسم قط.

تكرر الكابوس بعدها لأيام دون تفاصيل إضافية على حد قوله، كنت أضحك حين يضرب رأسَه محاولًا تذكر الاسم الذي كان يُنادى به، لكنه لم يستطع فعلها.

صارت تلك الكوابيس حديثنا لفترة طويلة وعرفتُ منه أنه أخبر زهير بها .. قال له زهير بأنه قد يكون حاملًا لذكريات صاحب روحه الأصلية وإن لم يحدث هذا الأمر من قبل، لكني نفيتُ له ذلك الأمر .. يظن زهير أن آدم چارتيني مثلنا باعتباره ابن أختي .. لكني وآدم نعرف أنه من بلاد أخرى بعيدة عن چارتين .. ورجّحت يومها في حديثي معه أن تكون اختلاف طبائع البلدين سببًا في إصابته بتلك التغيرات، الأمر الذي كنت أحبه من تلك الكوابيس أنها كانت سببًا كبيرًا لتقرب آدم مني بعدما صارت مجال تسامرنا لليالٍ عديدة وبدايات لحكايات أخرى كثيرة حدثت لي في طفولتي حدثّته عنها بعدما لم أخبر أحدًا بها من قبل، كذلك كان يتحدث لي عن أمور كثيرة يحبها ويطمح إليها، حتى صرنا صديقين حقيقيين بفضل تلك الكوابيس.

كنت أعلم أن الجميع في الورشة يحسدونني على وجود آدم معي، وحبه الكثير لي وخوفه عليّ، قبل عام حاول أحد الزبائن التحرش بجسدي، وحين وبخته صفعني على وجهي، وأمسك بثيابي محاولًا تمزيقها تأديبًا لي لحظة عودة آدم إلى الورشة، لم يسأل آدم عما حدث، لكنه أمسك بذلك الرجل في هدوء، قبل أن يضرب رأسه في أحد جدران الورشة، ثم اقتلع حبلًا قريبًا منه، وكبّل قدمي الرجل ببعضهما البعض أمام الواقفين، وسحبه إلى الخارج وهو يحاول التملص منه، ثم فوجئنا به يعقل ذلك الحبل بسرج حصان الرجل ويضرب مؤخرة الحصان، ليركض الحصان تجاه الجبال جارًا صاحبه الذي ظل يصرخ مع انسلاخ ظهره بالأرض الصلبة، إلى أن اختفى عن أنظارنا، بعدها عاد فتايّ إلى عمله وكأن شيئًا لم يحدث، من يومها لم يجرؤ أحد على النظر إليّ حتى بنظرة لا أحبها ..

لم يعد لي في هذا العالم إلا هذا الفتى .. وكذلك لم يكن له إلا أنا وصديقه زهير، واليوم قد أعلن زهير رحيله، وبقيتُ أنا بمفردي، لأخفف عنه همومه مهما كثرت، تساءلتُ إليه:

- ماذا بشأن الكابوس؟

لم يكن حدثني عن زيارته له في منامه قبل أربعة أشهر على الأقل، قال بشرود:

- هذا الشخص الذي يقتلني في منامي ..

قلت:

- ماذا به؟

قال:

- لطالما وضع على سترته قطعةً فضية صغيرة مُشكلة على هيئة سلاح ناري، لم أرها في حياتي من قبل ..

نظرت نحوه باستغراب، لم أتذكر أنه أخبرني عن ذلك الأمر من قبل، فتابع:

- رأيتُ هذه القطعة اليوم ..

قطبتُ جبيني في تشكك، وبدأ قلبي يدق خوفًا من اللهجة الصادقة التي تحدث بها، والتي أعرفها تمامًا .. فأضاف بصوت حائر:

- عم زهير، الفارس كيوان، كبير ضباط چارتين .. كانت تلك القطعة تزيّن قميصه، رأيتها اليوم عندما قابلته في بيت زهير، وعندما تعلّق بصري بها رغمًا عني .. قال إنها شعار رامي المنصة ..

وأردف وهو يطرق بإصبعه طرقات متسارعة متوترة على الطاولة:

- لم أرَ قط وجه من يقتلني في أحلامي .. لكن بمجرد رؤيتي لتلك القطعة اليوم، تذكرتُ أن ثياب قاتلي كانت تشبه أيضًا ثياب ذلك الرجل في هيئتها ولونها ..

ثم قال بصوت هادئ وهو يرفع عينيه في عيني:

- ذلك الرجل من يقتلني في أحلامي ..

قبل أن يضيف بعدها بلحظة واحدة:

- هذا الرجل سيقتلني ..

قلت مطمئنة له:

- إنها أحلام فحسب، ربما رأيت ذلك الشعار في مكان آخر، أو حكى لك زهير عنه من قبل، وارتبط في ذهنك بحكاياته عن عمه الذي اشتهر بكثرة من يقتلهم.

قال مصرًا:

- اليوم المرة الأولى التي أرى فيها ذلك الشعار، أوقن بذلك ..

قلت باسمة:

- لا تدع هذا الأمر ينل من تفكيرك .. إنها سنوات البلوغ، دائمًا ما تتسم بخيالاتنا الواسعة، سيرحل هو وعائلته غدًا إلى جويدا، ونحن لا نحتاج جويدا في شيء .. هم في حالهم ونحن في حالنا، وإن رأيت زهير في زياراته الموسمية إلى بريحا لا تحدثه عن هذا الأمر حتى، ستجد مع الوقت أنها مجرد خيالات ستختفي مع الزمن.

وأضفت مازحة:

- أو ربما تكتشف في الكابوس القادم أنك مخطئ وأن قاتلك يضع على سترته شيئًا آخر .. لا أعلم لماذا يقتل الناس بعضهم وكلها خمسون عامًا وينال منا وادي حوران، أم نسيت أنك تحمل أوراق انتمائك للأشراف .. لا تفكر بأنني سأدعك تفعل كما فعل أبي .. سأرسل لك من تنال روحي لتحطم رأسك إن فكرت في الرحيل من چارتين .. لن تموت إلا في وادي حوران، ومن يفكّر في إيذائك سأطحن رأسه أسفل مطرقتي ..

ابتسم وهو يربت على يدي، فنهضتُ متحمسة:

- سأحضر لك الطعام .. لا بد أن البرد قد أصابك بجوع عظيم .. هناك دجاجة بأكملها تنتظر التهامك لها منذ غروب الشمس.

في الأيام التالية لم يحدث أي جديد، غادر زهير وعائلته إلى جويدا، واقتصر يوم آدم على الورشة والعودة إلى البيت قُبيل غروب الشمس لنجلس ونتسامر حتى ينال النعاس منا، في الأيام التي كان ينتهي بها من عمله مبكرًا كان يركب فرسه ويركض به إلى منطقة الجبال ولا يعود إلا مع حلول الليل .. بدا أن ذلك الكابوس لم يزره خلال تلك الأيام وإلا كان حدثني عنه في جلسات تسامرنا. بعد شهر تقريبًا من مغادرة زهير سألني آدم أن أكتب رسالة إلى جويدا، بعدما أخبره السيد شقير معلم المدرسة بأنه لم يعثر على شيء مشابهٍ

لرسمة صديقه في كتبه، لم تحتو رسالتي إلى صديقه إلا على جملة واحدة؛ «لم يجد السيد شقير شيئًا عما سألته بشأنه».

لم يردني أن أكتب شيئًا آخر، فوافقته، ثم سألته إن كان سيرسل معها الورقة الملفوفة التي عاد بها يوم المطر السابق وظلّت بلفتها قابعة على طاولته بغرفته، قال:

- لا .. لا يريد زهير أن يعرف عمه أو أبوه بها، قد يرسم مثلها هناك .. ربما يساعده معلمو جويدا بذلك الشأن.

أومأتُ برأسي إيجابًا قبل أن أطوي الرسالة وأضعها جانبًا من أجل تسليمها لأحد المسافرين إلى جويدا .. ضحك وهو يمسك الورقة الملفوفة، وقال:

- يشغل زهير باله كثيرًا بتاريخ چارتين وتاريخ النسالى، سيصبح يومًا ما مؤرخًا كبيرًا، سأتباهى به بين من أعرفهم .. وإن كان في حاجة إلى تطوير موهبة الرسم لديه، أو التخلي عنها أفضل..

ثم فتح ورقة صاحبه للمرة الأولى أمامي منذ جاء بها، كانت رسمةٌ بدائية مرسومةً بها، فقال وهو يشير بإصبعه إلى رجل مرسوم بمنتصفها:

- يقول أن هذا نسلي بينما يخاف ممسكوه منه ..

فقلت وأنا أنهض لأضع الرسالة في جيب ثيابي كي لا أنساها:

- ولماذا يخافه كل هؤلاء الرجال؟

قال:

- لم يستطع توضيح ذلك برسمته .. قال بأن الرسمة الأصلية كان بها الشاب النسلي مفتول العضلات بارز العروق، يفتح فمه بقوة كأنه يزأر ..

هنا توقفت قدمي بعدما ابتعدت لخطوات،كان آدم يكمل:

- يمسك هؤلاء الرجال بسلاسل حديدية أحاطت برقبته ومعصميه وساقيه.

عدت بتوجس ونظرت إلى الرسمة وشيء وحيد يدور في رأسي .. صوت الزئير الذي سمعتُه يخرج من غرفة آدم يوم المطر العظيم قبل ست سنوات، وهيئته التي لا زلت أتذكرها كأني رأيتها البارحة .. عضلاته البارزة وعروقه المنتفخة رغم أنه لم يكمل العاشرة وقتها .. ونظرت إلى آدم بخوف وهو يقول:

- يندهش زهير من أن نسليًا واحد قد يخيف ستة رجال من الأشراف ..

ونظر إليّ مكملًا حديثه:

- لا بد أنه سيشعر بالأسف حين تصله رسالتنا بأن معلمه لم يعثر على شيء يشبهها ..

ثم توقف عن الكلام وظهر التعجب على وجهه حين لاحظ تبدّل ملامحي، وسألني إن كان هناك شيء ما، أو إن كنت أعرف شيئًا عن تلك الرسمة، هززتُ رأسي نافيةً في اضطراب، قبل أن أخبره بأن عيني يغلبها النعاس فحسب، وأن علي الذهاب إلى سريري، ثم تركتُه واتجهتُ إلى غرفتي مهرولةً دون قول المزيد من الكلمات.

جلستُ على سريري والأفكار تتلاطم في رأسي .. كانت ساقاي تهتزان من التوتر الذي ظفر بي فيما كانت أذني تسمع صوت الزئير المتداخل مع أصوات المطر المنهمر بكل مكان حولي .. ثم تداعى إلى ذهني فجأةً يوم المطر العظيم، ذلك اليوم الذي ارتبط بزيارة النسلية إلى بريحا لولا اشتداد المطر الذي أفسد إكمال أحداثه .. لحظتها شعرتُ بأن رأسي بدأت تعصف بأفكار لم تأتني قط من قبل .. وحدثتُ نفسي بصوت خفيض وقلبي يدق بقوة:

– هل هذا حقيقي؟!! .. هل كذبت الفتاة النسلية في بيت الرذيلة بشأن انتماء آدم إلى بلد غير چارتين؟!

حينذاك وثب إلى ذهني حديثه عن كيوان في كوابيسه، ومعه بدأت الخيوط المتشابكة تنفصل عن بعضها لتترابط في رأسي رغمًا عني .. فنهضتُ عن سريري وتحركتُ إلى باب الغرفة لأنظر عبر شقوقه إلى آدم الذي كان لا يزال يجلس بالردهة ينظر إلى رسمة صديقه.

كنت أرى رسمة صديقه واضحةً في مخيلتي .. آدم وهو يزأر مقيدًا بالسلاسل الحديدية بينما يمسك به جنود چارتين ليجرّوه إلى المنصة، ثم ولج إلى رأسي فجأةً شعار رامي المنصة .. واستدعت ذاكرتي ما حدث في جويدا قبل ستة عشر عامًا للنسلي الذي أراد الزواج من ضابطة المنصة، وكان مسار أحاديث چارتين كلها في ذلك الوقت، حينها تصاعدت أنفاسي واتسعت حدقتا عيني وشعرتُ أن قلبي يضخ دماءه بأقصى طاقته وأنا أهمس:

– كان ذلك مقاربًا لعمر آدم .. لم أكن بالباحة يومها، لكني عرفتُ ما حدث ..

وأكملتُ هامسةً إلى نفسي بأنفاسٍ لاهثة:

- ذُبح ذلك النسلي بسكين على يد حبيبته رامية المنصة ..

أغلقتُ بابي بإحكام، واستدرت وأسندته بظهري، وأغمضتُ عيني عندما تعالت أنفاسي أكثر وأكثر .. وتعالت من حولي أصوات الزئير المتداخلة مع أصوات المطر مع أصوات طرقاتٍ لا أعرف مصدرها، ثم فتحتُ عيني من جديد، بدأت أرى كابوس آدم أمامي .. يجري عاري الجسد، تدق قدماه رمال الأرض بقوة، يبلل العرق جسده بالكامل فجعله أكثر التماعًا وجعل عضلاته وعروقه أكثر ظهورًا، بينما يقف النسالى على جانبيّ طريقه صارخين باسمه، إلى أن يسقط قتيلًا في نهاية الأمر .. لم يُقتل عند جدار چارتين، بل قُتل على المنصة حيث القواعد التي نُقشت على جدار بلدنا، ولم يكن قاتله كيوان، كانت قاتلته تلك الضابطة، رامية المنصة ..

أغمضتُ عيني من جديد .. كانت أنفاسي قد بلغت أقصاها، وكان الخوف يجتاح كل ذرة بداخلي .. شعرتُ أنني سأسقط وأنا أعود إلى سريري، ثم جلستُ على حافته مسندةً ساقي المرتعشتين إلى الأرض، وأمسكتُ برأسي بقوة لعله يتوقف عن التفكير، لكني كلّما هدأت قليلًا عصف رأسي بوساوسه من جديد .. انتظرتُ طلوع الفجر بفارغ الصبر، وقبل شروق الشمس كنت قد ركبتُ حصاني وانطلقتُ جنوبًا إلى «قِبالا» ..

كان متحف الأمن في «قِبالا» يقع على مقربة من المدرسة العليا لضباط الأمن .. بناءٌ كبيرٌ يحتوي من الأزياء والمعدات والأسلحة القديمة ما يجعل زائري چارتين يأتون إليه من كل مدنها، كذلك اشتمل أحد أجنحته العلوية على كتب كبرى كان يحق للزائرين تصفحها ليقرأوا بعض الكلمات المُدوّنة عن رجال الأمن العظماء ممن شغلوا المناصب الكبرى في چارتين .. كنت قد زرته من قبل وأنا في عمر العاشرة مع أمي وأختي، في زيارة كانت الأولى لي خارج طِبيرة.

أمام سور حجري تتوسطه بوابة حديدية أوقفتُ حصاني وهبطتُ عنه، قبل أن أعقله بأحد القوائم الحديدية المُخصصة لربط الجياد، ثم أخرجت قطعة معدنية وأعطيتها لصبي كان يقف على مقربة من تلك القوائم، كنت أعرف أن وظيفته الحفاظ على الجياد من السرقة حتى عودة أصحابها .. بعدها دلفتُ عبر بوابة المتحف الرئيسية، وعبرت الممر المغطى إلى بوابة البناء نفسه .. كان الوقت مبكرًا فلم يكن هناك زحام كبير إلا من قليلين حضروا باكرًا مثلي، كان أغلبهم مراهقين في سن المدرسة المتوسطة .. التفّوا حول الأسلحة القديمة المعروضة داخل صناديق زجاجية بالقاعة السفلية، بينما كان أحد الأشخاص يقوم بشرح لهم تاريخ تلك الأسلحة.

كنت أعرف طريقي .. صعدتُ السلم إلى الطابق العلوي، كان ثمة جناح كُتب على لافتة بابه «قاعة الشرف»، عبرتُ ذلك الباب، كان هناك شخص وحيد يُوجد بالداخل يجلس منشغلًا ببعض الأوراق أمامه .. فألقيتُ تحيتي وتقدمتُ بضعة خطوات إلى الداخل .. لم تختلف القاعة كثيرًا عمّا تعلّق بذهني من زيارتي القديمة للمتحف .. كان هناك كثيرٌ من الأرفف التي تحمل الكتبَ منتصبةً ومتوازيةً

كأنها بنيان مرصوص، عبرتُ ممرًا بين زوج من تلك الأرفف إلى الجهة الأخرى للقاعة، كانت أكثر اتساعًا بعدما لم يتواجد على أطرافها إلا خمسُ طاولات معدنية صغيرة تحمل كل واحدة منها كتابًا كبيرًا سميك الأوراق يناسب حجمه سطحها تمامًا .. اقتربتُ من تلك الطاولات، وحركتُ عيني بينهم بلمحة خاطفة، إلى أن تعلّق بصري به .. ذلك السلاح الناري الفضي، شعار رامي المنصة .. كان مُعلقًا على الحائط فوق أحد الكتب، ومن أسفله كُتب بالفضة: «رامي المنصة» ..

كان مسموحًا للزائرين بتصفح كلمات الكتاب ما لم يحملونه عن الطاولة، كان الكتاب مفتوحًا من منتصفه .. مددتُ يدي وقلبي يدق وعدتُ إلى الصفحات الأولى، قرأتُ بعيني السطور التى كُتبت في الصفحة الأولى، كانت تتحدث عن المنصب ذاته، وعن الأسلحة التي استخدمها رماة المنصة منذ اُستحدث ذلك المنصب مع عهد ما بعد الجدار .. قلّبت الصفحات سريعًا، بدأ ظهور أسماء من شغلوا ذلك المنصب بخط كبير أوسط قمة كل صفحة .. وأسفلها المدة التي شغلها صاحب الاسم، وعدد المعدومين الذين أعدمهم، والمنصب الذي تقلّده بعد ذلك .. وفي الصفحة المُقابلة رُسمت بالفحم صورة لوجهه ونصفه العلوي .. كانت جميع سترهم تحمل شعار الرامي .. قلّبت جميع الصفحات المكتوبة دفعة واحدة إلى آخر الكتاب.. كان آخر الصفحات المكتوبة عن الرامي الحالي، ولم يُكتب بها إلا اسمه ووقت استلامه تلك الوظيفة .. بينما رُسمت صورته في الصفحة المُقابلة، قلّبت للأمام .. كان رام آخر قد شغل المنصب قبل ثلاث سنوات، قلّبت أربعة صفحات أخرى للأمام .. رام آخر تسلّم مهامه قبل ستة عشر عامًا .. دقّ قلبي بقوة وأنا أقلّب صفحة واحدة أخرى للأمام

وأعلم ما سأجده، لكنني فوجئت برام آخر غير الذي كنت أنتظره .. كدت أقلّب للأمام صفحة جديدة، لكّني توقفت عندما لاحظت أن ذلك الرامي قد ترك منصبه قبل واحد وعشرين عامًا .. قلّبت بضعة صفحات أخرى، كان جميع من بها قد شغلوا ذلك المنصب بأوقات يسبقونه .. عدت إلى ذلك الرامي والرامي الذي يليه .. وفحصتُ ماً كتب عنهما أكثر من مرة، وحدثتُ نفسي:

- ترك الأول منصب الرامي عام ١٦١٣ بعد الجدار ..

وقلتُ وأنا أنظر إلى صفحة الآخر:

- وتسلّم هذا منصبه عام ١٦١٨ بعد الجدار ..

أزالوا السنوات الخمس التي شغلتها تلك الضابطة من الكتاب، أزالوا كل شيء يخصها ..

تصفحتُ الكتاب على عجلة في مرة أخيرة لعلها ذُكرت في موضع آخر، غير أنني لم أجدهم جميعًا إلا رجالًا لا توجد بينهم امرأة واحدة .. فنظرتُ بعيني في إحباط إلى أعلى حيث السلاح الناري الفضي .. ثم نظرتُ إلى الشعارات الأخرى عن يمينه ويساره والتي يقع بأسفل كل واحد منها كتابٌ يتحدث عن منصب آخر .. ثم التفتُ وعدتُ أدراجي خائبة الرجاء لأعبر الممر بين الرفوف الذي عبرته قبل دقائق، وكدت أغادر، لكني تمهلت حين فكّر رأسي فيما يحتويه كل ذلك الكم من الكتب، وقبل أن أعبر الباب سألت الرجل الذي كان يجلس بأقرب الطاولات إليه، والذي بدت تلك القاعة مسئوليته:

- أي الكتب تحتوي أسماء خريجي مدرسة الضباط العليا؟

لم أكن أعرف إن كان ما سألت عنه موجودًا بالفعل أم لا .. لكني وجدته يشير بغير اكتراث ناحية أحد الرفوف، ويقول:

- هناك جميعها ..

نظرتُ بعيني نحو الجهة التي أشار نحوها، وترددتُ قبل أن أسأله مرة أخرى، لكني لم أجد مفرًا من سؤاله، فقلت:

- ما اسم الضابطة التي عُزلت قبل أعوام من منصب رامي المنصة؟

رمقني بنظرة غريبة، وكاد ينطق ليجيبني لولا أن أحد الزائرين الشبان سبقه وأجابني:

- كانت تُسمى غفران.

ابتسمت إليه وشكرته، قبل أن أتجه إلى الرف الذي أشار إليه الرجل الجالس.

أحضرت كافة الكتب المرصوصة على ذلك الرف إلى الطاولة القريبة وسط دهشة ذلك الرجل، لكنه تركني بعدما قلت له أنني سأعيدها جميعها بترتيبها، كان كل كتاب مُغلفًا بغلاف كُتب عليه عام التخرج، ويحتوي بصفحاته الأولى قائمة بكل خريجي ذلك العام .. ثم تحتوي كل صفحة من صفحاته التالية على بيانات أولئك

الخريجين، وكذلك صور مرسومة لهم بالفحم مثل التي رُسمت بكتاب الرماة، إلا أنها كانت أصغر حجمًا ولا تحتوي سترهم على أي رُتب أو شعارات ..

حسبتُ في رأسي أن تلك الضابطة قد تركت منصب الرامي قبل ستة عشر عامًا، وتولّته قبلها بخمسة أعوام .. فبحثتُ عن كتاب الخريجين قبل واحد وعشرين عامًا، إلى أن عثرتُ عليه. بسرعة البرق تصفحت عيني قائمة الأسماء في الصفحات الأولى .. كان داخلي يخشى أن يكون اسمها قد مُحي من ذلك الكتاب أيضًا .. وحركتُ إصبعي بين الأسماء صعودًا وهبوطًا، إلى أن توقفت وأنا أقرأ اسمها:

- غفران ابنة خيّال بن قُسيم، رقمها ثمانية وأربعون ..

قلبتُ الصفحات على نحوٍ سريع، إلى أن وجدتُ صورتها المرسومة بالفحم أمامي، فقلتُ وقلبي يدق بقوة:

- نعم هي .. أتذكر تلك الفتاة جيدًا .. غفران ابنة جويدا .. رامية المنصة .. لطالما اعتلت المنصة بثيابها العسكرية في أيام الغفران القليلة التي حضرتُها بالباحة قبل انتقالي للعيش في جويدا .. ولطالما سمعتُ الفتيات من حولي يحسدنّها على ذلك..

اضطرب داخلي وأنا اقرأ السطور التي كُتبت عنها .. محل ميلادها؛ جويدا، مقر عملها القادم؛ باحة جويدا، منصبها القادم؛ رامي المنصة بأمرٍ مباشر من كبير مدرسة الضباط .. وقلت لنفسي:

- يبدو أن مَن أزالها من قائمة الشرف بكتاب الرماة قد فاته وجودها بهذا الكتاب ..

نظرتُ كثيرًا إلى الصورة، وتداعى إلى ذهني ما كنت أفكّر فيه ليلتي السابقة .. قبل أن ألتفت إلى العامل الجالس منشغلًا بأحد دفاتره، وبحرص شديد قطعتُ الورقة المرسوم به صورتها، ودسستها أسفل كم سترتيٍ الطويل.



(١٣)

فاصل

نطقنا جميعًا في آن واحد بنبرة غير مصدقة حين قال العجوز أنه يعرف كيف يستطيع النسالى إنهاء قواعد چارتين للأبد:

- كيف؟!

قال:

- ستأتون معي إلى الجنوب .. سأريكم ما لا يعرف به أحد سواي.

سألته غفران:

- إلى أين؟

أشار بإصبعه إلى قمة جبل بيضاء باهتة رُسمت بمخطوطته بعيدًا وراء النسلي المُكبل والأشراف، لم نكن قد انتبهنا إليها بعدما جذبت صورة النسلي كل انتباهنا، وقال:

- بعدما اخترقتُ القاعدة الأولى ظللتُ أكثر من عشر سنوات مشردًا بالوديان الجنوبية باحثًا عن أي نسلي زائر، إلا أنني لم أسمع صوت زئير واحد حتى بالوديان التي سمعتُ فيها الزئير من قبل .

- في خلال تلك السنوات فكرتُ كثيرًا في العودة إلى جويدا كي أقدّم نفسي إلى الباحة كعاص يُحاكم على ذنبه، لكن ثمة صوت كان ينادي بداخلي دائمًا بأن أنتظر قليلاً قبل اتخاذ هذه الخطوة .. لتمر الأعوام واحدا وراء الآخر، اعتدت فيها حياة الصحاري، واعتدت كوني نسليًا سيموت بعيدًا عن الباحة لتنتهي روحه إلى الأبد دون أن يحصدها أحد، وبدأتُ أنسى ما بقيتُ من أجله مع مرور السنوات وتقدم العمر بي .. إلى أن لعبت الصدفة أو ربما القدر دوره معي ..

- كان ذلك في يوم أمطرت به السماء بغزارة غير معهودة وكنت في طريق عودتي إلى الوادي الجنوبي قُبيل غروب الشمس حين اعترضني بعض لصوص النسالى ..

وأمسك بمخطوطته وهو يقول:

- كان كل ما يشغل بالي أن يسرقوا ما ضحيتُ من أجله بكل شيء، فاستدرتُ بحصاني وركضتُ به عبر درب صخري على جانب الطريق قادني إلى دروب أخرى وممرات جبلية متشعبة دون أن أعرف إلى أين أتجه، كان كل ما يهمني هو الإفلات منهم وهذا ما نجحتُ فيه بالفعل .. إلا أنني اضطررت إلى التوقف والمبيت في أحد تلك الدروب بعدما حلّ ظلام الليل .. لأفتح عيني مع شروق اليوم التالي وتوقف المطر على هذه ..

ونظر بعينيه إلى قمة الجبل المرسومة .. وأكمل:

- كانت الوحيدة بين باقي قمم ما وراء الجبال الحمراء التي يغطيها الثلوج، أخرجتُ المخطوطة حينها ونظرتُ إلى القمة الجبلية المرسومة، كانت هي تمامًا التي تظهر أمامي عن بعد بتضاريسها والثلوج التي تغطيها .. أمسكتُ برأسي غير مصدق .. وكأن عمري قد عاد ثلاثين عامًا إلى الوراء، تقدمتُ راكضًا إلى هناك، كان الوصول إليها شاقًا للغاية خاصةً أن المطر قد عاود هطوله من جديد وزاد وحل الحصى الناعمة وحلًا .. فانزلقت قدمي أكثر من مرة إلا أنني واصلتُ طريقي نحوها .. كنت مؤمنًا جدًا برسائل القدر وكنت أعلم أن الصدف لا تأتي إلا لمن يستحقها، لذا أسرعتُ الخطى وأنا على يقين بأنني سأجد هناك ما سيرشدني إلى إجابة أسألتي العالقة في ذهني طوال تلك السنوات.

وابتسم وهو يقول:

- كدت أكره المطر ذلك اليوم .. لكن لولاه لما انتبهت إلى ذلك الكهف أبدًا ..

ورسم بإصبعه على الرمال أمامنا جبلًا يتوسط الجزء العلوي فيه مربعًا، وقال:

- جعل المطر الحصى التي تغطي الجبل تنجرف عن صخوره، لتتشبع تلك الصخور بالماء وتأخذ لونًا أبيض داكنًا.

وأشار إلى المربع الذي رسمه بأعلى رسمته، وهو يقول:

- أما الصخور التي أغلقت ذلك الكهف فظهرت رماديةً خالصة.

ثم أكمل:

- بدأتُ الصعود تجاه الكهف عندما بدأ هطول الأمطار في التراجع إلى أن وصلت بابه بأنفاسٍ متقطعة .. كان الحماس بداخلي غير مسبوق .. وقفتُ أمامه ألتقط أنفاسي بدقات قلب تنتفض بداخلي لتصرخ في: هيا .. تقدّم، ثم بدأتُ أزيل الصخور متوسطة الحجم التي تراصت بإحكام لتغلق مدخله، وأعرف أن شأنًا هامًا ينتظرني وراءها .. وهذا ما حدث بالفعل ..

كما آمن داخلي دائمًا، لا يقتصر الأمر على هذه المخطوطة، بل هناك تاريخ كامل داخل ذلك الكهف، رُسم ودُوّن قبل قرون على جدرانه وسراديبه الداخلية المتشعبة بباطن الجبل، هناك تأكدتُ أن أصحاب الأمانة الحقيقيين هم النسالى أنفسهم، وأن تاريخ هذا البلد فيه من الحقائق الكثيرة ما تم تزييفها .. وأنه قد آن للنسالى أن يستردوا حقهم الغائب لقرون الطويلة.

ثم أصابته نوبةٌ من السعال الحاد احتقن معها وجهه، فأخرج كيسًا قماشيًا صغيرًا، وفتح فوهته وسكب منه مسحوقًا عشبيا على راحة يده وقام بارتشافه، قبل أن يملأ صدره بالهواء ويخرجه ببطء مرات متتالية .. وأكمل بصوت متعب:

- نستطيع التحرك مع أول ضوء للشمس لنصل إلى هناك مع منتصف النهار تقريبًا .. مهما حكيتُ لكم لن يصل خيالكم إلى ما سترونه، لننل قسطًا من الراحة في الوقت القليل المتبقي إلى طلوع الشمس.

وتابع وهو يمسح الرسمة التي رسمها على الرمال بجانبه قبل أن يمهّد مساحة أخرى من الأرض بيديه:

- لقد أصابني التعب .. لم أتحدث بهذا القدر المتواصل منذ سنوات كثيرة ..

ونظر إلى سبيل وقال:

- ستأتي معنا ..

تعجبت سبيل، كذلك ظهرت ملامح التعجب على وجوهنا جميعًا، لكنه تجاهل تعجبنا ومال بجزعه لينام على جنبه مفترشًا الأرض التي مهدها، وأغمض عينيه وهو يمسك القطعة الجلدية بين يديه، هززتُ كتفه برفق كي أوقظه لينام داخل كوخي بدلًا من نومه على الرمال، أجابني بعينٍ شبه مغلقة بأنه سيواصل نومه في موضعه .. سأله ريان:

- هل يتعلق الأمر بالأرواح النسلية الثائرة؟!

لكنه كان قد واصل نومه بأنفاس عالية، فنظرنا إلى بعضنا البعض بوجوه حائرة .. لا ندري هل نصدّق ذلك الرجل الذي هبط إلينا من حيث لا ندري أم يكون فخًا جديدًا قد نُصب لنا من أشراف چارتين وداهيتهم الذي يُدعى كيوان.

نهضنا ودخلنا إلى كوخ غفران بعيدًا عن ذلك الرجل بعدما غاب في سباته كأنه لم ينم من قبل، فقلت:

- أخشى أن يكون فخًا مدبرًا لنا ..

قال ريان حائرًا:

- تشبه رسمة المخطوطة سيدي نديم تمامًا .. حكيتُ لكم مرارًا عن الحالة التي كانت تنتابه حين تثور روحه .. والآن أقول لكم كان يشبه ذلك النسلي المرسوم بكل تفاصيله ..

قالت غفران:

- ما يشغل تفكيري لماذا انتظر كل هذا الوقت ليأتي إلى هنا إن كان وجد ما يتحدث عنه قبل سنوات؟!

قالت ناردين:

- قال أنه لم يعرف عنكِ سيدتي إلا منذ عامين فقط، ربما كان ينتظر أمر ما، أو يريدَ فعل شيء بعيد عنك .. أو ربما شيءٌ ما ثار بداخله بعد مقتل زُردق الذي كان مَن أَرسله على حد قوله.

قال ريان:

- كانت روح سيدي تثور بالأيام التي يتعرض فيها للإهانة .. أتتذكرين يوم الضابط الذي أهانه؟.. ويوم الشاب؟ .. كان هذا الرجل محقًا في تفكيره الذي فكّر به قبل بلوغه الخمسين.

وجلس القرفصاء وقال:

- أنني أصدّق هذا الرجل ..

قلتُ:

– لماذا أشار إلى ذهاب سبيل معه؟

قالت غفران:

– سنبلغه برفضنا هذا الأمر حين يستيقظ .. لن تأتي سبيل معنا..

قلت:

– هذا يعني أنكِ قبلتِ بالذهاب معه ؟!

أومأت برأسها إيجابًا، وقالت:

– نعم أيها الطبيب .. سأذهب أنا وريان معه، وستبقى أنت مع سبيل خشية أن يصيبها تعب .. وستبقى ناردين برفقتكم ..

قلت مندهشًا:

– ألا يبدو أمره غريبًا بالنسبةِ لكِ؟!

هزّت رأسها نافيةً، ثم قالت:

– إن قلبي يصدّقه .. وأصدّق الأمور الغريبة التي تحدث عنها ..

وصمتت للحظة لمعت بها في عينيها دمعة .. كأنها تذكرت نديم، ثم واصلت:

– يمتلك ما يوحي بصدق حديثه ..

فقلتُ بقلة حيلة:

- حسنًا .. أتمنى أن يكون القشة التي تنقذنا حقًا ..

قال ريان:

- سأدبّر لنا أمر عربة خشبية وحصانٍ يحملنا إلى هناك .. إن فرسه تحتاج إلى مَن يحملها ..

وغادرنا، فيما غادرت سبيل إلى غرفتها لتنام، وبقيت ناردين معنا تقاوم النعاس بجفون تتساقط رغمًا عنها، أما أنا فجلستُ أراقب غفران التي ظلّت موضعها شاردةً تنظر عبر باب الكوخ المفتوح إلى الرجل الراقد نائمًا في فنائها، كانت دمعةٌ هاربة قد تساقطت على وجنتها فمسحتها سريعًا، وكادت تنظر إليّ، فتصنعتُ النوم كي لا أسبّب لها حرجًا، وغصتُ في شرودي أنا الآخر بعقلٍ مستيقظ وعينين مغلقتين، إلى أن طلع الفجر ووجدنا العجوز ينهضُ من تلقاء نفسه باحثًا عنا، وابتسم حين وجدنا نجلس في انتظاره بالداخل.

كانت غفران قد استعدت للذهاب عندما أتى ريان بحصان وعربة خشبية لا أعرف كيف أتى بهما، فسألها الرجل عن سبيل، فأجابته:

- لن تأتي معنا .. يتبقى على ولادتها أيامٌ قليلة ولن تستطيع تحمل الرحلة إلى الجنوب ..

قال الرجل بإصرارٍ كبير:

- لا بد لها أن تأتي ..

تعجبنا من إصراره، ونظرتُ إلى غفران بعدما تزايدت شكوكي، فقالت السيدة:

- لماذا يستوجب عليها المجيء معنا؟

قال:

- ستعرفين هناك .. لكني لن أغادر بدونها.

قلت:

- إنني طبيبها وأقول لك أن قدومها خطر كبير عليها .. وأنا أرفض ذلك.

تساءل:

- هل هناك امرأة أخرى تحمل جنينا شريفًا من نسل النسالى؟

قالت غفران:

- لا ..

قال:

- لن أغادر بدونها إذًا .. ثمة أمر بإحدى جداريات الكهف المرسومة يتعلق بها .. لا بد لها أن تراه.

تساءلت غفران:

- ماذا بشأنه؟!

قال:

- ستعلمين كل شيء هناك .. لا بد أن نرحل قبل طلوع النهار لئلا ينتبه النسالى إلى رحيلكم .. عليكم أن تثقوا بي ..

سكتنا جميعًا ونظرنا إلى بعضنا البعض، كان الوقت ينفد منا حقًا، إلى أن قالت غفران:

- حسنًا، ستأتي معنا ..

ونظرت نحوي وقالت:

- سيرافقنا الطبيب ويبقى ريان مع ناردين هنا ..

تعجبتُ من قرارها، وقبل أن أنطق إليها معترضًا، همست إليّ وقالت:

- لا نملك خيارًا آخر .. ليس أمامنا سوى تصديقه ..

ثم قالت لناردين:

- أيقظي سبيل وأخبريها بأن تستعد للرحيل معنا ..

أومأت الفتاة برأسها، ودخلت إلى الكوخ لتخبر سبيل بما قالته غفران، فيما قالت غفران لريان:

- احرص على سلامتك أنت وناردين، سنعود ومعنا أخبار قد تغيّر مصيرنا إن صدق هذا الرجل ..

قال:

- سأفعل ..

بعدها خرجت إلينا سبيل، وركبنا العربة، معنا العجوز الذي أمسك بلجام حصانها ليتولى القيادة بنفسه بعدما عقل حصانه الهزيل بمؤخرة العربة.

كانت الشمس قد بدأت رحلة شروقها حين تحرك بنا العجوز، كانت طرقات الوادي في ذلك التوقيت خاويةً تمامًا وساكنة حتى الموت، حتى الكلاب الضالة التي كانت نائمة على جوانبها تكاسلت عن إطلاق نباحها وتركتنا نمضي في صمت إلى الطريق الرملي الممهد خارج ناحية الوادي الجنوبية، قال الرجل حين بلغناه:

- سنأخذ طرقًا أخرى بعيدة عن باقي الوديان.

لم نعقّب على كلامه سوى بإيماءة توحي بموافقتنا، وتركناه يوجّه حصان العربة كيفما يشاء، ربتت غفران على يد سبيل بابتسامة كأنها تعتذر عن قرارها بموافقتها على اصطحابها معنا، فابتسمت الفتاة .. وبدأ العجوز يثرثر مع مضي العربة عن الأهوال التي قابلها بين صحاري الجنوب ووديانها، لم نكن في حاجة لسماع المزيد عن معاناته بقدر ما كنا في تشوق إلى معرفة ما ينتظرنا داخل كهفه المزعوم .. فلاذ كل واحد منا بصمته دون أن نقاطع الرجل ولو لمرة واحدة .. تذكرتُ حين ارتفعت الجبال من حولنا رحلتي مع ديما وصدّيق عبر صحراء بني عيسى قبل تسعة سنوات، ومعها انشغل تفكيري بتذكر كل ما حدث لي منذ تلك الرحلة، كانت غفران هي الأخرى هائمةً في أفكارها بعيدًا عن حديث العجوز، فيما بدا على وجه سبيل تركيزها مع كل كلمة يقولها ذلك الرجل.

لم نقابل في طريقنا أي تجمعات لوديان أو سهول منبسطة تصلح لمعيشة التجمعات بعدما واصلنا التقدم عبر دروب وممرات جبلية مهجورة ومتشعبة .. كنت أشعر بالقلق كلّما انعطَف بنا إلى دربٍ جديد .. كنت أعلم تمامًا أن هذا العجوز لو أصيب بأي مكروه سيكون الضياع مصيرنا لا محالة ..

مع الوقت بدأت قمم الجبال الحمراء في الظهور .. عرفتُ ذلك اليوم سبب تسميتها بهذا الاسم بعدما كانت صخورها تكتسب لونًا أحمر باهتًا مع انعكاس الشمس عليها .. أخبرني ريان من قبل أن الوديان المنبسطة بين تلك الجبال تحتوي كثيرًا من تجمعات النسالى الذين تجمعوا حول الينابيع العذبة التي تناثرت هناك. ثم تحوّلت الرمال من أسفلنا إلى صخور صغيرة متكسرة بعدما قطعنا مسافة ليست قصيرة خلف تلك الجبال، فسألتُ العجوز أن يبطئ من سرعة العربة حمايةً لسبيل وجنينها ففعل ذلك مرحبًا.

لم يقبل داخلي ذلك الرجل قط، وبدأ عقلي يفترض كافة الاحتمالات التي أصرّ من أجلها على تواجد سبيل معنا، كذلك أدركتُ أن غفران قد وضعت احتمالاً لخيانته رغم زعمها بتصديقه عندما لمحتُ خنجرًا مُثبتًا بحزام جلدي حول ساقها اليمنى، ظهر حين مررنا بدربٍ ضيق بالكاد يمرر العربة، اضطرت معه إلى رفع ساقيها إلى ظهر العَرب فانكشف جزء من غمده بعدما ارتفع فستناها قليلًا عن ساقيها، دون أن يراه العجوز أو تعلم أنني رأيته.

بعد اجتيازنا دروب الجبال الحمراء سألت غفران الرجل فجأة أن يسمح لها بتفقد قطعته الجلدية فأعطاها إياها، فظلت تتفحصها بإمعان شديد دون أن تفصح لنا عما تفكر فيه أو ما يدور في رأسها

.. كانت تغتاظ فقط كلّما حاولت سؤال الرجل عن شيء فيجيبها بأنها ستجد كل الإجابات في خلال ساعات، إلى أن تحولت الصخور المتكسرة من أسفلنا إلى أرض من الحصى الناعمة حين هبطت العربة ببطء شديد دربًا شديدَ الانحدار، انتهى بنا إلى ممر متسع مستوٍ تحيطه التلال من كل جانب فتوقف بنا .. ثم أشار نحو قمة جبلٍ ظهرت خلف صدعٍ بين قمتين صغيرتين على يميننا، وقال:

- هناك..

نظرت نحو ما أشار إليه ثم نظرت إلى القطعة الجلدية بيد غفران .. لم يكن هناك ثلج على القمة التي أشار نحوها لكنها تشبهها في تضاريسها، فقالت سبيل:

- ألا يُفترض وجود ثلج على قمتها؟!

قال:

- ليس في كل أيام العام ياصغيرتي ..

وتابع:

- لن تستطيع العربة التقدم أكثر من ذلك .. سنكمل التقدم إليها سيرًا على أقدامنا ..

وثبتُ إلى الأرض، ثم ساعدتُ سبيل في نزولها، فيما حررت غفران الحصان من العربة، وربطته بمؤخرتها في حلقة معدنية منفصلة عن الحلقة التي رُبط بها حصانه العجوز، بعدها سرنا خلف العجوز.

أمسكتُ بيد سبيل عندما عبرنا ربوةً ترتفع قليلًا عن الأرض كانت الحصى والصخور التي تغطيها قد تسبب انزلاق قدميها إن صعدتها بمفردها .. فيما ابتعد عنا العجوز بخطوات تتبعه غفران، وبعد اجتياز بضعة ممرات بين تلال صخرية متوسطة الارتفاع، وعبور أخرى منخفضة الارتفاع، وصلنا أخيرًا إلى قاع الجبل المقصود .. ثم نظرنا إلى أعلى بعدما أشار العجوز بيده عاليًا، وقال:

– ذلك الكهف هناك.

فقلت بعدما تشابهت صخور الجبل جميعها في عيني:

– لا أرى شيئًا ..

وكذلك أظهرت غفران وسبيل أنهما لا تريان شيئًا هما الأخريتان .. فقال الرجل:

– إنه في الأعلى .. ستظهر صخوره مع صعودنا ..

قلت:

– يستحيل على سبيل الصعود .. سيتسبب ذلك في إجهاض الطفل لا محالة ..

سكتت غفران، كانت تعرف أنني محق فيما قلته، فعاد العجوز خطوات إلى سبيل ووضع خديّها بين راحتي يده وقال بلطف:

– ستستطيعين فعلها ياصغيرتي .. عليكِ أن تثقي بي ..

قلت لغفران محتدًا:

– علينا أن نعود .. إنني لا أصدّق هذا الرجل ..

كانت الحيرة واضحةً بشدة على وجه غفران فواصلت صمتها، فكررتُ ما قلته:

- علينا أن نعود .. إن هذا فخٌ مدبر بإحكام لإجهاض طفل سبيل.

فقال العجوز منفعلًا:

- مُدبر مِنْ مَنْ أيها الطبيب؟! .. إنك لست متضررًا من القواعد مثلنا .. لا بد للفتاة أن تصعد إلى الكهف، هناك شيء لا بد أن تراه بنفسها لا أن يحكي لها أحد عنه ..

وتابع بعدما رمقني بنظرة لوم:

- إن آخر شيء قد يفكر فيه رجل عاش مشردًا لسنوات بسبب قواعد ظالمة، أن يؤذي شخصًا باستطاعته أن ينهي تلك القواعد التي تسببت في معاناته ومعاناة الكثيرين مثله ..

قلت:

- وهل سبيل من ستنهيها؟!

قال:

- نعم .. إنها المرأة الوحيدة التي تحمل طفلًا شريفًا من أبوين نسليين حتى النخاع .. لو فعلها زُردق ووداد لما احتجت لها ..

قالت غفران:

- وكيف ستنهيها؟!

قال:

- ستعلمون كل شيء بالأعلى ..

قالت غفران بحدة:

- لن أصعد حتى تخبرني كيف تستطيع سبيل إنهاء القواعد ..

قال:

- سنصعد ..

قاطعته غفران صارخة في وجهه بغضب:

- لن نخطو خطوةً واحدة قبل أن تخبرنا ..

زمّ العجوز شفتيه غاضبًا بعدما رأى ذلك الإصرار على وجه غفران المحتقن غضبًا .. ثم نزع القطعة الجلدية من يدها وغمغم قائلًا:

- ظننتكِ تستحقينها ..

قبل أن يتركنا ويمضي بعيدًا في طريقه إلى الأعلى .. لم يحرك أحدنا قدمه، ووقفنا في أماكننا ننظر إليه وهو يبدأ رحلة صعوده منحدر الجبل بصعوبة دون أن يكترث بوقوفنا، قلت:

- سيقتل هذا الرجل نفسه ..

قالت غفران بلهجة جامدة:

- سأصعد خلفه إلى ذلك الكهف .. انتظر هنا مع سبيل ..

قلت:

- أخشى أن يصيبك مكروه بالأعلى ..

قالت بغيظ:

- لولا أن داخلي يصدّق هذا الرجل لعدت إلى وادينا على الفور .

وأضافت كأنها تبرر لنفسها تصديقها له:

- إن قمة الجبل حقًا تشبه القمة المرسومة بمخطوطته، وحديثه عن النسالى الزائرين يشبه حديث ريان عن نديم ..

وأكملت وهي تنظر نحوه بعدما تسلّق لأقدام كثيرة:

- هناك مزيد من الأسرار لا تزال في جعبة ذلك العنيد .. أسرار قد نكون في أمس الحاجة إليها ..

ثم نظرت إلى سبيل بنظرة متوسلة:

- أتستطيعين فعلها يا سبيل؟!

أومأت سبيل برأسها إيجابًا بعدما فكّرت لثانية، فنظرت غفران إليّ، فهززت كتفي حيرةً بدون أن أنطق، فقالت سبيل لي:

- سأفعلها سيدي ..

تنهدتُ، وقلت بقلة حيلة:

- حسنًا، سنصعد بأبطأ ما يمكننا، وإن شعرتِ بأي تعب لا تتوانيِ عن إخباري.

قالت الفتاة:

- حسنًا ..

ثم بدأنا نصعد في المسار ذاته الذي تحرك فيه العجوز .. تحركتُ أنا وسبيل على مهل شديد تمسك يدي يدها، فيما سبقتنا غفران بعدة أقدام .. كانَ الصعود أسهل مما أملنا، ووجدنا أنفسنا قد قطعنا ثلث المسافة في وقت قصير جدًا، وبين حين وآخر كانت غفران تلتفت إلينا وتتساءل إن كان كل شيء على ما يرام، فتجيبها سبيل بأنها بخير، قبل أن نواصل صعودنا أكثر وأكثر .. كان العجوز قد انتبه إلى صعودنا فأكمل طريقه إلى الكهف المحفور في وجه الجبل، والذي بدأت صخور بابه في الظهور كلّما صعدنا إلى أعلى ..

عندما وصل العجوز إلى الكهف بدأ يزيل الصخور التي تغلق بابه .. ثم دلف إلى داخله، قبل أن يخرج من جديد ليقف أمامه في انتظارنا .. كانت غفران أول الواصلين منا إليه بالطبع .. وبعدها بفترة ليست قصيرة وصلتُ أنا وسبيل إليهما بعدما نالت الفتاة فترتين من الراحة في النصف الأعلى من الصعود.

التقطتُ أنفاسي أنا وسبيل ثم تقدّم بنا العجوز إلى داخل الكهف، كانت شعلةٌ مُعلقةٌ على الحائط تنير المدخل، بدا أن العجوز قد أشعلها حين دلف إليه لدقائق أثناء صعودنا ..

بعد عبورنا باب الكهف قادنا العجوز حاملًا الشعلة عبر شق ضيق للغاية تنحدر أرضه بميل طفيف إلى الأسفل، حتى خرجنا منه بعد بضعة أقدام إلى سردابٍ أكثر اتساعًا، كانت جدران ذلك

السرداب ملساء وباردة كالزجاج حين لامستها بيدي، لكن العجوز لم يعطني مهلة للتفكير بهذا الأمر بعدما أشعل شعلةً أخرى كانت مُثبتة على يميننا وألقاها لي كي أمسك بها، ثم تقدم عبر السرداب فسِرنا وراءه، كانت بعض الكلمات المنقوشة قد بدأت في الظهور على الجِدران أمامنا، فتمهلنا، فطالبنا بأن نسرع الخطى لنرى ما هو أهم .. بدأ عقلي وقتها يتأكد بأن هناك ما هو عظيم حقًا ينتظرنا، وأننا على أعتاب معرفة سر هزيمة الأشراف كما قال ذلك الرجل الذي أظهر معرفته بكل بوصةٍ داخل ذلك الكهف منذ ولجنا إليه.

انتهى السرداب بباب ضيق، فتوقف قبل أن يعبره وقال:

– هناك سلم حجري .. توخوا الحذر أثناء نزوله.

أمسكت غفران بيد سبيل فيما قربتُ شعلتي من الأرض أمامهما ليريا درجاته بوضوح أثناء نزولهما، عندما بلغنا نهاية السلم كان العجوز قد سبقنا بخطوات، فاتجهنا إليه واقتربنا منه .. فلامس بشعلته بروزًا صخريًا كان يبرز من الحائط على ارتفاع قدم واحد عن الأرض، لنجد أن النيران قد امتدت عبره لتضيء حوضًا صخريًا ضيقًا ازدادت معه الإضاءة بصورة كبيرة ..

تنقّل الرجل وأشعل أحواضًا أخرى امتدت أمام الجدران الدائرية، لنجد أنفسنا داخل غرفة دائرية واسعة تنيرها النيران من كل جانب، ومعها شهقت سبيل، كان تمثال منحوت لرجل ضخم طويل الشعر واللحية ينظر إلى السماء فاغرًا فاه يتوسط الغرفة أمامنا .. كانت تفاصيل جسده منحوتةً ببراعة كبيرة .. كذلك وشم النسالى المنحوت على جانب صدره الأيسر .. تحركتُ نحوه منبهرًا بالبراعة التي نُحت بها، ولامستُ صخوره الملساء ليزداد انبهاري

.. ثم تلفّتُّ إلى غفران لأرى ردة فعلها، لكني وجدتُها تقف أمام أولى الجداريات المرسومة بألوان زاهية على جدران تلك الغرفة .. تحركت إلى جانبها، كانت البراعة التي رُسمت بها تلك الجدارية لا تقل براعةً عن نحت التمثال .. كانت لأناس يبنون جدارًا كبيرًا، عرفتُ من النظرة الأولى أنه جدار چارتين، وكانت بعض السطور قد نُقشت بحروف عربية على جانبها .. فاقتربت غفران منها لتقرأ ما كُتب، كذلك اقتربتُ أنا الآخر لكني لم أستطع أن أفسّر سطرًا واحدًا، كذلك بدت علامات التعجب على وجه غفران .. قال الرجل من خلفنا:

- كُتبت بالعامية الچارتينية القديمة التي يختلف فيها ترتيب حروف كثير من الكلمات عن كلمات لغتنا الحالية، كذلك لا توجد فيها نقاط على الحروف .. أخذت الكلمات وقتًا طويلًا جدًا وافتراضات كبيرة مني لأفسّر ما ترويه .. إنها تحكي عن مشاركة النسالى في إعادة بناء جدار چارتين.

تساءلت غفران متعجبة:

- هل أُعيد بناء الجدار من قبل؟!

قال الرجل:

- نعم..

وتابع:

- لتريْ باقي الجداريات، ثم سأخبرك بالقصة الكاملة المكتوبة على جدران هذا الكهف وسراديبه ..

انتقلنا إلى الجدارية التالية، كانت لأناس ملتفّون حول طاولة، كان باديًا أنه اجتماع ذو طابع رسمي بين الأشراف أصحاب الثياب الفاخرة والنسالى نصف العارين الذين يبدو عليهم الحياة البدائية .. تحركنا إلى الجدارية الثالثة .. كانت ساحة عظيمة، تساءلت غفران بدهشة:

- باحة جويدا؟!

قال الرجل:

- نعم، باحة جويدا قديمًا ..

لم تكن تشبه باحة جويدا الحالية إلا في أرضها الواسعة المستوية. أما الأمر الغريب في تلك الجدارية فكانت الأقفاص التي تتواجد بأرضها وبداخلها أسود ونمور وفهود وحيوانات أخرى، أقفاص كثيرة متراصة على جانب من الباحة، فيما تقف نساء عاريات الصدور في الجانب الآخر يظهر وشم النسالى على جباههن .. قالت غفران:

- قديمًا كانت نساء النسالى عاريات الصدور كالرجال الآن .. ولم يكن الوشم على أكتافهن ..

اتجه بنا العجوز إلى الجدارية التالية وعيني مُعلقة بأقفاص الحيوانات التي تشغل نصف الباحة تقريبًا .. فتساءلت سبيل فجأة:

- تزوج النسالى من قبل؟!

كانت الجدارية لرجلٍ نسلي وامرأة نسلية يقفان بباحة جويدا على منصة منخفضة تختلف عن المنصة الحالية أمام كثير من الحاضرين .. هز الرجل رأسه، وقال:

- نعم ..

ثم انتقل بنا بدون أن يقول المزيد إلى الجدارية التالية، كانت قاعدة صخرية بقاع جدار چارتين منقوش عليها سطور بالطريقة ذاتها التي نُقشت بها الكلمات التي لم نستطع قراءتها، فهمتُ أنها إحدى قواعد چارتين المنقوشة على قواعد الجدار .. انتظرتُ غفران أن تنطق بأي تعليق لكنها تحركت وراء الرجل إلى الجدارية التالية .. كانت لأكوام من الجثث العارية، تظهر أوشام جباههم، مُكوّمين فوق بعضهم رجالًا ونساءً وأطفالًا، وتحوم فوقهم الطيور الجارحة .. ثم في النهاية كانت الرسمة ذاتها التي رُسمت في مخطوطة العجوز الجلدية .. نسلي يزأر مُكبلًا بالسلاسل من كافة أطرافه، رُسمت بحجمٍ أكبر في آخر الجداريات، فنظرنا إلى الرجل، فقال:

- سأبدأ معكم بالجدارية الأولى، لكني سأعود بالزمن لسنوات طويلة قبلها لأخبركم بقصة دوّنتها جدران السراديب هنا ..

وقال وهو ينظر إلى أقفاص الحيوانات المفترسة بالجدارية الثالثة:

- كان بين حكام چارتين القدامى ملك مولع بتربية النمور والأسود، وكان معروفًا عنه اصطحابه لنمره المفضل من فصيلة الشامو الجبلية إلى الباحة أيام الغفران ليرقد بجواره هو وزوجته على المنصة، إلى أن جاء أحد تلك الأيام، وهاج ذلك النمر دون سبب وأفلت لجامه، وكاد يفترس زوجة ذلك الملك لولا أن أقرب الحراس إليها قد أخرج سيفه وشق عنقه بضربة واحدة .. انشغل الجميع وقتها بما حدث على المنصة، لكن أحد لم يعرف بأن جنينًا قد تحرّك فجأة في بطن فتاة

نسلية كانت في طريقها للخروج من الباحة خائبة الرجاء بعدما حصدت غيرها من نساء النسالى كل أرواح من أعدموا ذلك اليوم ..

وضعت الفتاة طفلها بعد ثلاثة أشهر وماتت في اليوم ذاته، لينشأ ذلك الطفل دون أي اختلاف عن باقي النسالى، حتى وصل سن بلوغه لتتضاعف قوته أضعافًا، وبدأت روحه الزائرة في الهياج كل ليلة .. ارتعب النسالى حين رأوا هيئته وسمعوا زئيره للمرة الأولى .. لكنهم اعتقدوا وقتها أن أرض چارتين قد وهبتهم ذلك النسلي الزائر لتنتقم من أفعال أشرافها .. وتناقلت الحكايات بينهم بأنه يقتل في الليلة الواحدة سبعةً من رجال الأشراف، ثم عرفوا قصته الحقيقية من امرأة كانت أمه قد حكت لها قُبيل موتها ما حدث لها ذلك اليوم في الباحة، فأخفوها فيما بينهم لسنوات طويلة .. إلى أن اختفى ذلك النسلي الزائر من بينهم فجأة. قيل أن الأشراف قتلوه، وقيل أنه قد هرب إلى جبال أقصى الجنوب حيث كانت تعيش فصيلته من نمور الشامو، غير أنهم لم ينسوه قط في حكاياتهم وأغانيهم اللاتي تناقلوها بينهم لعقود ..

قالت سبيل في استغراب شديد:

- لم أسمع قط بهذه القصة ..

قال الرجل:

- إنها جزءٌ من تاريخ كبير تم محوه ببراعة ..

وواصل:

- قبل ألفي عام تقريبًا كانت أعداد النسالى تفوق أعداد الأشراف بكثير، وإن تحكم الأشراف بكل شيء مثل وقتنا الحالي، بل كان بطشهم وظلمهم للنسالى يفوق ما يتعرضون له الآن آلاف المرات في عصور سُميت بعصور التعذيب، كُتب عنها أن الأشراف استخدموا أشد ألوان التعذيب بعدما أعلن النسالى اعتراضهم على القاعدة التي تنص على حمل أجنتهم الأرواح المذنبة .. إلى أن رضخ النسالى في نهاية الأمر بعدما لم تتحمل أجسادهم مزيدًا من العذاب ..

ثم تحرك إلى أمام الجدارية الأولى .. وقال وهو ينظر إليها:

- ثم أتت الفرصة على طبق من ذهب للنسالى عندما انهار جزء كبير من جدار چارتين الشمالي، وبدأت بوادر هياج بحر أكما من جديد تظهر بوضوح لسادة الأشراف، وانتشر الخوف بين العامة بأنه سيأتي على الأخضر واليابس في چارتين مثلما فعلها قبل بناء الجدار .. فلم يكن أمامهم سوى الاستعانة بالنسالى كي يساعدوهم في إعادة بناء ذلك الجزء المهدوم .. كان النسالى أكثر عددًا وقوة، وأكثر خبرة في تقطيع صخور جبال الجنوب ونقلها إلى الشمال، على عكس الأشراف أصحاب الأيدي الناعمة .. إلا أن النسالى قد اتحدوا جميعًا على الرفض وتحملوا ألوانًا أخرى من العذاب في سبيل تمسكهم برفضهم .. ولمّا كان هياج بحر أكما يتزايد يومًا بعد يوم وأجزم حكماء الأشراف بأنه سيُنهي چارتين إلى الأبد لا محالة، فوجئ النسالى بإعلان ملك چارتين موافقته لعقد عهدٍ

دموي معهم في وادي حوران، يتعهد فيه بتحقيق ما يطلبونه، ليجد النسالى أنفسهم للمرة الأولى في موضع قوة يستطيعون من خلاله إملاء شروطهم .. كان ذلك بعد أربعة قرون من اختفاء النسلي الزائر الأول ..

ثم أشار إلى الجدارية الثانية التي يجتمع فيها الأشراف والنسالى حول طاولةٍ حجرية وقال:

- تم العهد الدموي بالفعل في وادي حوران بين ملك الأشراف واثنين من وزرائه، وثلاثة من رجال النسالى اُختيروا من بين وديان النسالى الثمانية .. كان شرط النسالى واضحًا لا جدال فيه؛ أن تُلغى القاعدة المختصة بانتقال الأرواح الآثمة لأجنة النسالى، وأن يحملوا أرواحًا نقية مثل التي يحملها الأشراف تستطيع الأمهات حصادها خارج باحة جويدا مقابل إتمام بناء الجدار، وأن تُنقش قاعدة بذلك بين قواعد چارتين بعد اكتمال البناء ..

وافق الأشراف على ذلك، لكن النسالى أضافوا طلبًا آخر غريبًا ضمانًا لتنفيذ الأشراف عهدهم، وحمايةً لهم من التنكيل بهم إن خان الأشراف عهدهم ..

والتفت إلينا العجوز وهو يكمل:

- لم ينسَ النسالى قط النسلي الزائر الذي وهبته لهم أرض چارتين من قبل، فاشترطوا لإتمام ذلك العهد أن تحصد ألف نسلية حامل من وديان النسالى الثمانية أرواح ألف حيوان بري من حيوانات الصحاري الجنوبية الضارية في باحة جويدا ..

تظل تلك الأرواح خامدة في أجساد حاصديها غير مكتملة القوى إن حافظ الأشراف على عهدهم .. وتكتمل قواها وتثور داخل أجسادهم إن خان الأشراف عهدهم ..

اعترض الأشراف على ذلك الشرط رغم عدم تصديقهم لإمكانية حدوثه، ورفضوه رفضًا قاطعًا، لكن مع إصرار النسالى حتى الموت لإضافته إلى العهد الدموي، وتوارد أخبار البحارة بارتفاع أمواج بحر أكما، اقترح أحد وزيري الملك أن يكون العهد هكذا؛ أن يحصد النسالى أرواح الضواري كما أرادوا، لكن لا تكتمل تلك الأرواح بداخل أجساد النسالى إلا بشرطين؛ الأول: إن خان الأشراف عهدهم، والثاني: أن يقدّم النسالى ما يثبت فعلاً نيتهم في عيش حياة شريفة بعيدة عن حياتهم السابقة، وذلك بتقديم النسالى طفلٍ شريفٍ مولودٍ عن زواج شرعي لأبوين نسليين خالصين كذبيحٍ ترويٍ دماؤه صخور وادي حوران الشاهدة على هذا العهد.

فهمتُ حينها لماذا أصرّ العجوز على اصطحاب سبيل معنا، وحديثه عن بقائها النسلية الوحيدة التي تحمل بجنين شريف من أبوين نسليين خالصين، وبدا على وجه غفران وسبيل انتباههما إلى ما رمى إليه الرجل كذلك بعدما احمر وجهيهما، غير أنه أكمل حديثه بدون توقف:

- وافق النسالى على ما اقترحه ذلك الوزير، ووافق ملك الأشراف كذلك، لكنه اشترط أن يبقى العهد المختص بأرواح الضواري سرًا بينهم لا يعرفه عامة الأشراف، فوافقوا على ذلك، وإتمامًا لذلك العهد، شربوا جميعًا من الكأس الدموية

التي اختلطت فيها دماؤهم مع دماء نمر جبلي أحضرها معه أحد النسالى الثلاثة.

ثم صمت العجوز قليلًا ملتقطًا أنفاسه قبل أن يتحرك إلى الجدارية الثالثة، ويكمل:

- فيما تكفّلت أعدادٌ كبيرة من النسالى بإعادة بناء الجدار .. تكفل جانبٌ آخر منهم باصطياد ألف حيوان مفترس من صحاري وجبال الجنوب، أسود ونمور وفهود وضباع، وأخرى لا أعرفها.. وأشار إلى قفص مرسوم به حيوان يشبه الأسد لكنه في حجم قط ..

وتابع:

- حملوها في أقفاص بأفواه مُكبّلة بأصفاد حديدية إلى الباحة بحراسة ملكية في سرية كبيرة .. ثم قدموا بنسائهم الحوامل إلى هناك في يوم غفران مُنع فيه عامة الأشراف من الدخول إلى أرض الباحة للمرة الأولى في تاريخ چارتين بأمر الملك، ويومها ذُبحت الحيوانات تباعًا لتتحرك أجنة النسالى داخل بطون أمهاتهن ..

ثم سكت كأنه تذكر شيئًا، وقال:

- كان بين الحيوانات المذبوحة ثمانية نمور فقط من نمور الشامو الجبلية، الفصيلة النادرة ذاتها التي حمل روحها النسلي الزائر الأول، احتفل النسالى ليلتها بحاصدات أرواحهم دونًا عن غيرهم من النساء تيمنًا بذلك النسلي، واعتقادًا منهم بأن أصحاب تلك الأرواح سيصبحون قادةً لغيرهم إن ثارت

أرواحهم يومًا ما، حيث كان معروفًا عن ذلك النمر قوته الكبيرة وذكاؤه وسرعته، كذلك صوت زئيره العالي الذي يستنفر به باقي الضواري الأضعف منه .. وكُتب أن موسيقا الشامو سُميت بهذا الاسم لأنها أُلفت وعُزفت للمرة الأولى في تلك الليلة ..

بعد سبعة شهور من العهد الدموي كان النسالى قد أوفوا بعهدهم بإتمام بناء الجدار .. وخلال تلك الشهور السبعة كانت كل النساء قد وضعت أجنتها بسلام عدا الثمانية اللاتي حصدن أرواح نمور الشامو، مُتن جميعًا أثناء وضعهن .. غير أن أطفالهن قد نجوا ..

وقال وهو يتحرك إلى الجدارية التي يظهر فيها نسليان يتزوجان:

- كذلك شهدت تلك الشهور نية النسالى الصادقة في حياة جديدة بعيدة عن حياتهم السابقة، وقدّموا إلى الباحة ستة أزواج من العرسان خلال أيام غفران تلك الشهور .. ولم يتبقَ في هذا العهد إلا أن تُنقش القاعدة الجديدة بانتهاء عهد انتقال الأرواح الآثمة إلى النسالى .. فنقش البناءون على إحدى القواعد الصخرية في الجزء الذي بنوه قاعدة تقول: «يبقى النسالى مثلهم مثل الأشراف لا تميّز بينهم الروح النقية».

نظرنا مشدوهين إلى الجدارية التالية التي رُسمت فيها قاعدة الجدار البيضاء منقوشًا عليها الكلمات التي فسّرها لنا العجوز، قبل أن يكمل:

- إلا أن الأشراف قد خانوا عهدهم كعادتهم، بعد يوم واحد من اكتمال بناء الجدار ..

كان ذلك واضحًا أمام أعيننا بالجدارية التي رُسمت فيها أكوام الجثث العارية تحوم فوقها الطيور الجارحة، قال الرجل بعدما أخرج زفيره:

- الطغيان مرض، من يصبه لا يفارقه حتى يموت .. كذلك الغباء.

قُرب انتهاء الجدار استكثر الأشراف على النسالى أن يتساووا معهم في حق حصاد الروح النقية، وبدأت الألسنة داخل غرف السادة المغلقة تتحدث خوفًا عن مصيرهم إن امتلك النسالى زمام الأمور وخرجوا عن طوعهم إن نجحوا في تقديم طفلهم الشريف ذبيحًا إلى صخور وادي حوران وثارت أرواح الوحوش داخلهم .. وزاد قلقهم من انتشار أخبار حمل نساء النسالى اللاتي تزوجن في الباحة .. رغم أن العهد كان صريحًا، يُشترط خيانة الأشراف لثورة تلك الأرواح .. إلا أنهم نحّوا عقولهم جانبًا، وفجر اليوم الذي تلا اكتمال بناء الجدار صدر أمر ملكي بإزالة الكلمات المنقوشة التي نقشها النسالى على قاعدة الجدار، ووجّه قاضي الأشراف إلى النسالى تهمة خيانة چارتين بعدما استغلوا حاجتها إليهم ليفرضوا قاعدتهم الجديدة، ولم يأت مساء ذلك اليوم إلا وكان جنود چارتين وفرسانهم قد انطلقوا إلى وديان النسالى الثمانية بأوامر واضحة؛

يُقتل كل من تزوج في الباحة خلال الأشهر الماضية رجالًا ونساءً، تُقتل كل النسليات الحوامل سواءً عن زواج أو رذيلة، يُعتقل النسالى البالغون ويُقتادون إلى سجون جويدا مقطوعي الألسنة، يُقتل كل الأطفال الرضع الذين وُلدوا خلال تلك الأشهر وتُذاب أجسادهم الملعونة في قوارير ضخمة من الزيت المغلي ..

أما الأطفال الأكبر سنًا ممن لم يبلغوا العشر سنوات فأمر الملك بتركهم أحياء ليصبحوا بأعدادهم الكبيرة نواةً لنسل جديد من النسالى لا يعرف شيئًا عن العهد الدموي في حوران مؤيدًا نصيحة أحد مساعديه باحتمالية حاجة الجدار إليهم مستقبلًا .. فاقتيدت الفتيات في سن السابعة والثامنة إلى بيوت الرذيلة في مدن چارتين، كُتب أن الفتاة النسلية كانت تحمل سفاحًا في سن الثانية عشرة .. ومع كل حمل لإحداهن كان يُقدم أحد المساجين مقطوعي الألسن إلى منصة الباحة ليُعدم وتنتقل روحه إلى نسلي جديد يُولد لا يعرف شيئًا عن عهد أسلافه ..

ثم هدأ صوت الرجل، ونظر إلى تمثال النسلي الزائر المنتصب في منتصف الغرفة:

– لم يعرف الأشراف وملكهم أن كثيرًا من أولئك الرضع حاصدي الأرواح الزائرة قد تم تهريبهم إلى الجبال قبل قدوم الجنود .. قيل أن الوزير الحكيم الذي صاغ العهد الدموي هو من أبلغ النسالى بقدوم الأشراف .. كما قيل أن ذلك الوزير مَن قام برعايتهم في الجبال إلى أن شبّوا واختلطوا مع جيل النسالى

الجديد من غير أن يخبرهم عمّا تحمله أجسادهم ..

كانت جميعها افتراضات .. لم يعرف مدوّنو السطور داخل هذا الكهف حقيقة ما حدث لأولئك الأطفال بعد تهريبهم، أو أعداد الناجين منهم، لكن الأمر المؤكد أن الأشراف لم يعثروا عليهم قط، واكتفوا بتحقيق ما أرادوه بإنشاء جيل نسلي جديد يبقى أبد العمر خانعًا أسفل أقدام الأشراف .. نسل حُرّم عليه الذهاب إلى وادي حوران، ولا يعرف معجم كلماته معنى الزواج في باحة جويدا ..

طُمس كل شيء بخصوص ذلك العهد الدموي .. لم يعرف الأشراف كتابًا واحدًا تحدث عنه .. ولم تتكلم أغنية واحدة عن يوم الغفران الذي ذُبحت فيه حيوانات الصحاري .. كان الملك ماكرًا بعدم علم عامة الأشراف شيئًا عن ذلك اليوم .. ثم تكفلت القاعدة الأولى بمحي كل أثر باقٍ بعدما خضع إليها في خلال عشر سنوات كل من شهدوا ذلك العهد من سادة الأشراف .. ليصير رمادًا ذرّته رياح السنوات وكأن شيئًا لم يكن ..

قالت السطور بجوار الجدارية الأخيرة أن حاملي الأرواح الزائرة الخامدة قد شبّوا واندمجوا بين النسالى دون معرفة ما يمتلكون بداخلهم، عاشوا نسالى وماتوا نسالى تتناقل أرواحهم بالباحة من جيل إلى جيل.

ثم توقف عن الحديث، والتقط أنفاسه من جديد .. فقالت غفران:

- من دوَّن هذا التاريخ؟!

قال الرجل:

- لم يُذكر شيء عنهم .. المؤكد لي أنهم من أجيال متفاوتة، كذلك أعتقد أنهم من الأشراف وليس النسالى، ربما شريف صار نسليًا .. ربما كان أحد أجدادي الذين أوصوا بتوريث مخطوطاتهم جيلًا بعد جيل، لا أعرف، لكنه يبقى تاريخًا حقيقيًا، قُدر لي أن أجده.

ثم جلس ليرتشف مسحوقه العشبي بعدما أصابته نوبة السعال التي أصابته في الليلة الماضية، وتوقف عن الحديث لدقائق ليتركنا لأفكارنا .. كان ما تحدث به ذلك الرجل يفوق ما كنا نتوقعه، فوقفنا مبهوتين ننظر إلى الجداريات في حالة من الذهول والتشتت .. إلى أن سألته غفران:

- لماذا انتظرت كل هذا الوقت لتأتي إليّ؟!

قال الرجل:

- لقد انتظرت الوقت المناسب فحسب.

ثم نهض بعدما هدأ سعاله، وحمل شعلته، وأشار نحو باب بجانب الجدارية الأخيرة، وسألنا أن نتبعه بحذر .. سرنا خلفه، كان ذلك الباب مؤديًا إلى سرداب ضيق تشعّب إلى سراديب متشعبة هبطت بنا إلى الأسفل .. كانت جميع جدرانها منقوشة بالتدوينات، وقال الرجل وهو يكمل تقدمه:

- إنها القصة الكاملة التي حكيتها لكم .. أتمنى ألا أكون قد فوتُّ شيئًا ..

إلى أن وصل بنا إلى غرفة أخرى دائرية .. وأشعل نيران أحواضها مثل نيران الغرفة الأولى لتتسع حدقات أعيننا وتبلغ دقات قلوبنا أقصاها عندما ظهرت أمامنا جداريةٌ عظيمة واحدة رُسمت على امتداد حوائطها الدائرية لجيش عظيم من النسالى أصحاب الأجساد العارية الضخمة، أو ما سماهمً الرجل .. النسالى الزائرين..

كان عددهم كبيرًا للغاية، متراصين في صفوف كثيرة، ينظرون جميعهم في حماس نحو قائدهم الذي وقف أمامهم على رابية مرتفعة ينظر إليهم رافعًا يده اليمنى إلى السماء بقبضة مغلقة، فاغرًا فاه. فقال العجوز :

- لقد آن للنسالى أن تزأر أرواحهم.

(١٤)

غفران

تساءلتُ في ذهول وأنا أحدّق في النسالى المرسومين على امتداد الحائط الدائري للغرفة كأنني أقف بينهم:

- من أين يخرج هذا الجيش؟!

قال العجوز:

- من النسالى أنفسهم .. نسالى واديكِ، نسالى الوديان الأخرى .. النسالى الذين تركوكِ وعادوا أسفل أقدام الأشراف خانعين خوفًا من الموت .. لَن تسمح لهم هذه الأرواح بالخنوع مرة أخرى ..

وأضاف:

- ليس جميعهم بالطبع يحملون أرواحًا زائرة، لكن الباقين سيكتسبون قدرًا كبيرًا من الشجاعة ما إن يجدوا هؤلاء الشجعان في صفهم.

فسأله فاضل وهو ينظر إلى مَن رُسم واقفًا أمامهم:

- ومَن هذا القائد؟!

قال:

- لا أعرف .. قد يكون النسلي الزائر الأول .. قد يكون أحد حاصدي أرواح نمور الشامو الثمانية مثلما اعتقد النسالى القدامى بأنهم خُلقوا ليقودوا غيرهم ..

وأكمل:

- رُسمت هذه الجدارية نسخًا للنسلي الذي رُسم في الجدارية الأخيرة، لم أحدثكم عنها لكنها لنسلي ثارت روحه في وقت بعيد عن حقبة العهد الدموي .. أعتقل وأعدم بالباحة، وهناك من دوّن ورسم لحظة اعتقاله هنا ..

كتب المدوِّن أن الأشراف لم يفهموا قط ما به وقتها، وإلا لم يكونوا قد أعدموه بالباحة لتنتقل روحه إلى نسلي جديد في جهل شديد منهم، إلا أنهم تعمدوا إخفاء ذلك المشهد في تاريخهم وكتبهم فيما بعد خشية أن تنتقل الشجاعة التي أظهرها إلى النسالى ..

لكن ذلك الحدث لم يمر مرور الكرام على مدوِّن السطور والجداريات هنا، فظل يبحث لسنوات طويلة عن آخرين زائرين في الصحاري، خاصةً بالوديان التي زاد بها بطش الأشراف، ليدوِّن مؤكدًا أن هناك بعض الأرواح قد شذّت عن خمودها بالفعل مع عدم تحمل حاصديها لإيذاء الأشراف، ورجّح هو الآخر أن حاصدي أرواح نمور الشامو كانوا هم أصحاب تلك

الأرواح الثائرة خلال القرون الماضية مستندًا إلى زئير سمعه لأحدهم كتب أنه لم يسمع في قوته قط، ثم أكد في سطوره أن قواهم لم تكتمل قط، لديهم قوة أكبر من باقي النسالى .. سرعة أكبر حين تثور أرواحهم .. لكنها لا تزال خامدة، تكتمل قواها بعد أن تروي دماء الطفل صخور وادي حوران.

تجاهلتُ نظرته اللئيمة إلى سبيل، وسألتُه:

- هل هناك ما يميّز حاصدي أرواح نمور الشامو؟

هز رأسته نافيًا، وقال:

- يبقى حاصدو الأرواح كلهم مثلهم مثل باقي النسالى .. لن تعرف أحدهم إلا إن صادفتِ سماع زئيره.

تمنيتُ لو كان ريان بيننا ليؤكد لذلك الرجل ما رآه وما حكاه لنا مرارًا عما كان يحدث لنديم، لكن الطبيب قاطع تفكيري عندما سأل الرجل:

- هل يستطيع حاملو أرواح الشامو استنفار باقي الأرواح الخامدة حقًا؟

قال:

- جميعها تنبؤات مبنية على معرفة النسالى القدامى لطبيعة تلك النمور .. كما أن حاملي هذه الأرواح لا يعرفون ما يملكونه بداخلهم ..

وأضاف:

- إنني لم أسمع زئيرًا واحدًا منذ آخر زئير سمعته قبل عشرين عامًا .. تبقى احتمالية موتهم خارج الباحة لتنتهي روحهم دون الانتقال إلى أجسادٍ أخرى واردة .. إنهم ثمانية فقط عبر تلك القرون جميعها ..

إن في يدنا الآن القدرة على إيقاظ الأرواح الزائرة كلها دون الحاجة إلى أي منهم ..

وتابع بحماس:

- لن تحتاج سبيل إلى الذهاب إلى وادي حوران .. نجح بناة هذا الكهف في أن يوفّروا للنسالى ما يضمن لهم إتمام عهدهم هنا .. لقد صنعوا تمثال النسلي الزائر الذي رأيتموه في الغرفة الأخرى من صخور وادي حوران ..

كان وجه سبيل يعتصر رعبًا عندما انتهى الرجل من جملته، لكن الطبيب واصل أسئلته:

- قلت أن الأم التي حصدت روح نمر الشامو الأول والأمهات الثماني اللاتي حصدن أرواح النمور من تلك الفصيلة قد مُتن جميعًا أثناء وضعهن ..

قال الرجل:

- نعم ..

قال الطبيب:

- هل ذكرت التدوينات كيف ماتت تلك الأمهات؟

فكر الرجل قليلًا، ثم أشار لنا -وكأنه تذكر شيئًا- بأن نسير من خلفه نحو سرداب كنا قد عبرناه من قبل .. نظرتُ إلى الطبيب بعدما فهمت ما يفكر فيه، لكنه لم ينتبه إليّ وواصل تحركه خلف الرجل، إلى أن وقف بنا أمام جدار منقوش بأكمله بالكلمات الچارتينية القديمة، وبدأ يقرأ بعينه ما تظهره أمامه شعلته، ثم تحرك خطوة بعد خطوة أمام الجدار وهو يقرأ ما أمامه بشفاه متحركة دون أن يصدر صوت، حتى أشار بسبابته نحو بعض السطور، وقال:

- أعراضٌ واحدة حدثت مع الثماني، تشنجات قوية بدأت في الساعات التي تلت حصدهن الأرواح .. وازدادت قوة مع اقتراب موعد ولادتهن بصورة لم ينجح معها أي عشب بري .. إلى أن بلغت ذروتها أثناء وضعهن .. لم يستطعن النجاة منها، لكن أطفالهن قد وُلدوا بسلام .. حدث ذلك مع جميع الأمهات.

نظر الطبيب نحوي دون أن يقول شيئًا للرجل، فهمتُ من اللحظة الأولى أنها الأعراض ذاتها التي حكاها لي بأنها حدثت لديما أخت ريان الكبرى حاصدة روح نديم لطفلها، وظن أنها نوع من أنواع الصرع، فهززتُ رأسي إليه خلسةً .. ثم عاد بنا الرجل إلى غرفة الجداريات وتمثال النسلي الزائر، وهناك قال لسبيل:

- الآن صار الأمر في يديكِ يا صغيرتي، إنك الأمل الوحيد للنسالى .. لا بد وأن يُذبحَ طفلكِ هنا وأن تلطّخ دماؤه أحجار هذا التمثال من أجل قومك.

نظرت الفتاة إليّ بعينين ممتلئتين بالدموع والخوف كأنها تنتظرني أن أقرر بدلًا عنها .. فقلت بعدما صمتُّ مفكرة بأشياء شغلت بالي

منذ بدأ العجوز قصته:

– قلت إنك رأيت نسليين زائرين من قبل .. كان أحدهما يأكل أحشاء صديقك، والآخر أكل جزءًا من جسد أحد أثرياء الأشراف الظالمين ..

قال الرجل:

– نعم.

فقلت بعد هنيهة أخرى من الصمت:

– أعلم كم يتعرض النسالى للظلم وكم نحن في حاجة إلى مَن يدافع عنا، لكن إن كان ما رأيناه حقيقيًا وثارت تلك الأرواح بداخل النسالى فلن نكون أيقظنا إلا وحوشًا ضارية لن تفرّق بين الأشراف والنسالى .. وإن استطاعوا التفرقة بيننا وبين الأشراف فلن يميّزوا بين صالحي الأشراف وفاسديهم .. لن يفرّقوا بين طفل وامرأة وبين جندي يحمل السلاح ضدهم .. سيأتون على الأخضر واليابس، سيكونون هياجًا عظيمًا لبحر أكما في صورة آكلي لحوم البشر، لتصبح چارتين الجحيم بذاته ..

أيها السيد، أعلم أنك عانيت كثيرًا بعد تجاوزك القاعدة الأولى .. وعانيت حتى وصلت إلى هذا الكهف .. وأعلم أنك كنت تنتظر قدوم الطفل الأول بفارغ الصبر مثلنا تمامًا .. لكني لن أسامح نفسي ما حييت إن كنت سببًا في موت هذا الطفل وموت الكثيرين من بعده إن ثارت تلك الوحوش ..

ونظرتُ إلى سبيل وأكملتُ:

– إن كان هناك أمل للنسالى فهو بقاء طفل هذه الفتاة حيًا ليسعى النسالى ليكونوا مثله أشرافًا طيبين بعيدين عن حياة القتل والسرقة والرذيلة وإن هزمتهم أنفسهم الخائفة هذه الأيام ..

إنني أرفض عرضك سيدي.. وكذلك أرى أن صاحبة الشأن توافقني في هذا القرار.

أومأت سبيل برأسها موافقةً على الفور، فصاح الرجل نحوي بانفعال:

– إنه ليس عرضًا مني .. إنه حق النسالى الذين عانوا من الظلم كل هذه السنوات .. ماذا تنتظرين؟!! أن يحقق الأشراف العدالة بينهم وبين النسالى بأنفسهم؟!.. إن التاريخ لا يكذب، وأنتِ خير من تعرفين صدق كل كلمة هنا ..

لا تودّين موتهم؟!! .. سيقتلك كيوان آجلًا أم عاجلًا .. سيقتلك وسيقتل هذه الفتاة وسيقتل طفلها، وسنكون قد أضعنا بغبائك فرصةً عظيمة لن تأتي أبدًا مستقبلًا، ولن يسامحنا النسالى على ضياعها أبدًا.

قلت بثباتٍ كبير:

– لن أفعل ذلك، لن يستطيعوا ترويض أرواحهم، سيقتلون أناسًا أبرياء.

صرخ الرجل بنبرة أعلى من نبرته السابقة:

- سيُقتلون هُم إن لم تُثر أرواحهم .. لو علم كيوان بأمر هذا الكهف سيقتل كل نسلي بالغ .. سيعيد تكرار ما حدث للنسالى بعد إكمالهم الجدار .. سيقتل النسالى جميعهم خارج باحة جويدا لتنتهي تلك الأرواح للأبد .. سيبيد من تنتظرينهم أن يحذو حذو سبيل .. لن يترك رجلًا أو طفلًا أو امرأةً هذه المرة..

فصرختُ فيه:

- لن أفعلها.

ففوجئتُ به يجذب سبيل نحوه فجأةً، ويضم عنقها أسفل ذراعه بقوة، ويخرج سكينًا من ثيابه، ويضع نصله على بطنها، ويقول لاهثًا بعينين غاضبتين:

- لن تخرج الفتاة من هنا حتى تضع مولودها .. وإن اضطررتُ إلى شق بطنها وإخراجه وذبحه الآن.

قلتُ بارتباك شديد:

- أرجوك سيدي .. أرجوك ..

وكذلك صرخ الطبيب إليه:

- أيها السيد .. أرجوك .. إنها الأمل الوحيد المتبقي لنا ..

صرخ الرجل بنا:

- إن الأمل في تلك الأرواح ..

كان يقبض بساعده بقوة على رقبة سبيل، وبدأ يجرّها خطوات إلى الخلف وهو يقول:

- لن تخرج من هنا .. سأرعاها حتى تضع مولودها ..

فكرتُ أن أخرج خنجري المُثبّت حول ساقي الأيمن، وأصوّبه نحوه في ظل التعب الذي بدا على وجهه وهو يجرّ سبيل .. لكن فاضل اقترب منه رافعًا يده محاولاً تهدئته ليقف حائلًا بيننا، ثم وجدتُه يقول للعجوز:

- أيها السيد .. إن غفران محقة، إن ثار هؤلاء بدون قائد يحجّم قواهم سيكون الجحيم ذاته، ولن تغفر أبدًا لنفسكَ ما سيحدث .. أيها السيد، هناك فرصة أخرى لاستنفارهم دون الحاجة لدماء هذا الطفل .. وفي الوقت ذاته سنضمن وجود من يحجّم قواهم .. أرجوك، ما زال هناك مَن يحمل روح أحد نمور الشامو على قيد الحياة .. أقسم لك بذلك .. قتلته غفران على منصة الباحة، ووُلد على يدي .. ماتت أمه بالتشنجات نفسها التي أصابت الأمهات الثماني .. كنت مخطئًا حين ظننتها نوعًا من أنواع الصرع ..

نظر الرجل إلى الطبيب بعينين متشككتين .. أما أنا فهززتُ رأسي خائبة الرجاء، لم أرد قط أن يخبره فاضل بهذا الأمر .. تابع فاضل إلى الرجل:

- أرجوك اتركها .. قد يعود ذلك الصبي إلينا .. كان حامل الروح من قبله باستطاعته تحجيم روحه من أجل غفران .. لقد حكى لنا ريان الذي رأيته معنا بالأمس كثيرًا عن ذلك الأمر ولم نكن نصدّقه ..

فصرختُ في الطبيب مقاطعةً له:

– إنه ليس نديم .. يُولد كل طفل بطباع مختلفة .. وهذا الطفل وُلد لأب غجري .. سيكون أسوأ وأسوأ ..

تجاهل العجوز صراخي، وسأل الطبيب:

– أين هو؟!

ارتبك وجه فاضل وهو يقول:

– لقد فقدتُه منذ عام .. لكنه يبقى في چارتين ..

أطلق العجوز إيماءة بذيئة وقبض بذراعه بشدة على عنق سبيل .. فقال الطبيب:

– أقسم أنه يحمل روحًا من تلك الأرواح .. رأيتُ نظرته إلى جدار چارتين حين رآه للمرة الأولى هنا .. ورأيتُ القوة في عينيه وهو يصيب أنف أحد الضباط المعتدين على النسالى .. ورأيتُ السرعة التي كان يفر بها من الجنود .. هناك شريفة أخذته إلى حيث لا نعرف .. لكنه سيعود.. إن الضواري دائمًا ما تحن إلى أوطانها ..

نظر الرجل نحوي فجأةً، وقال:

– كان يحبك؟! هذا الذي كان يحجّم روحه من أجلك؟!

أومأتُ برأسي في انفعال، وقلت:

– نعم.

نظر إلي الطبيب، وسأله:

- كم عمر حاصد روحه الآن؟!

قال فاضل:

- عشر سنوات.

قال:

- لن تهيج روحه إلا بعد ستة سنوات إنْ هاجت .. سيكون الأشراف قد أذاقوا النسالى ألوانًا أخرى من العذاب والذل ..

وقبض بذراعه غاضبًا على عنق سبيل، فتهاوت الفتاة مُغلقةً عينيها كأنها فقدت وعيها، وانزلقت بقدميها إلى أسفل، فصرخ فاضل نحوه بأنها ستموت، فارتبك الرجل كأنه لم يتأهب لحدوث ذلك .. حاول فاضل الاقتراب منه، لكنه صرخ به بألا يتحرك، وحاول جذبها بذراع واحدة إلى أعلى من جديد .. تحركتُ خطوتين جانبًا عن مكاني دون أن يشعر، كانت الفرصة سانحة للغاية لي وهو مشتت الذهن بين حركة فاضل وجذب الفتاة إلى الأعلى .. قلتُ في سري:

- أعلم أيها السيد أنك تحب النسالى وتكره القواعد مثلي .. لكني لن أسمح لأحد بأن يقتل آخر أمل لي ..

وبخفة شديدة رفعتُ ساقي اليمنى نحو يدي لينكشف عنها طرف فستاني، وفي لمح البصر أخرجتُ خنجري وقذفتُه تجاهه بكل طاقتي، ليخترق نصله فخذه الأيمن أعلى رأس سبيل مباشرة .. صرخ الرجل من الألم، وسقط إلى الخلف تاركًا سبيل، فوثب الطبيب نحوه وأمسك بيده ليلقي بسكينه بعيدًا .. اقتربتُ من سبيل وهززتُ

كتفها كي تحدثني، فتحت عينها، فقلت لفاضل؛ أنها بخير، فوجدتُه يخلع قميصه ليربطه حول فخذ العجوز دون أن يخرج الخنجر منه .. ساعدتُ سبيل على النهوض، ثم حملتُ الشعلة التي كان يمسك بها العجوز أثناء عبورنا السراديب .. وتقدمتُ أمام سبيل، ثم تبعنا فاضل بعدما انتهى من ربط فخذ العجوز الذي تركناه راقدًا يصرخ نحونا بأن كيوان سيقتلنا وسيقتل كل النسالى، وظل يسبّنا بأقذر السباب.

واصلنا تقدمنا عبر السراديب التي دلفنا عبرها إلى أن وصلنا الشق الضيق الذي كنا قد عبرناه عند دخولنا ذلك الكهف، عبرناه واحد وراء الآخر لنخرج إلى خارج الكهف. كانت الشمس على وشك الغروب .. أمسك الطبيب بيد سبيل فيما أمسكتُ أنا بيدها الأخرى، وهبطنا منحدر الجبل بتمهل شديد .. كان الهبوط أكثر صعوبة من الصعود خاصةً مع الدوار الذي أصابني عند النظر إلى قاع الجبل من أعلى .. لكنني تمالكتُ نفسي وواصلتُ هبوطي معهما بحذر، إلى أن وصلنا قاع الجبل، وعبرنا الممرات الصخرية والتلال الصغيرة إلى العربة والحصانين اللذيْن افترشا الأرض بجسديهما .. تركنا حصان العجوز، وتحركنا بالعربة يجرّها الحصان الذي جاء به ريان .. قال الطبيب الذي أمسك باللجام:

– أخشى أن نتوه بين الممرات المتشعبة التي جئنا عبرها ..

فقالت سبيل:

– وُلدت وعشتُ بين الوديان، وأستطيع اقتفاء آثار الأقدام .. سأقتفي آثار الطريق الذي جئنا عبره إن ضللنا.

لكن الليل كان قد حلّ بعد تحركنا بفترة قصيرة، فاضطررنا

إلى المبيت مكاننا، على أن نتحرك من جديد مع شروق شمس اليوم التالي ..

قال الطبيب حين جلسنا بجوار العربة بالكاد نرى وجوه بعضنا البعض مع ظلام الليل:

- سيموت هذا الرجل من نزيف فخذه ..

قلت:

- لم أتمنَ أن تنتهي الأمور هكذا، لكني لم أكن لأسمح له أن يؤذي سبيل ..

وتابعتُ معاتبةً له:

- لم يكن عليك إخباره بأمر آدم ..

قال مبررًا:

- حاولتُ أن أشتّت انتباهه لنكسب مزيدًا من الوقت، كان الجنون يتطاير من عينيه، وخفتُ أن يطعن بطن سبيل حقًا ..

كانت سبيل لا تزال في حالة الصدمة التي أصابتها، وظلت صامتة .. فابتسمتُ إليها وأنا أربت على فخذها وقلت:

- ستضعين طفلكِ بسلام .. انسيّ ما قاله ذلك الرجل.

ثم وجهتُ حديثي إليهما، وقلت:

- لا أريد أن يعرف أحد غيرنا بما قاله العجوز .. حتى ريان وناردين، أعلم حبهما الكثير للخير لكن النفوس خائنة، ليبقَ هذا السر بيننا .. وسأختلق لهما قصة أخرى غير التي قالها العجوز.

أومأ الطبيب وسبيل برأسيهما موافقاني .. ثم قال الطبيب مؤنبًا نفسه:

- لو لم أفقد آدم!!

لم أشأ أن أدخل معه في جدال عن رغبته الظاهرة لإيقاظ أرواح النسالى إن عاد آدم إلينا واستطاع تحجيم روحه واستنفارهم، فاكتفيتُ بقولي:

- إنها أقدارٌ فحسب ..

ثم أكملتُ بعدما صمتنا لفترة:

- لم أتمنَ يومًا أن أُوضع في مثل هذا الموقف .. أن أُخيّر بين أقل الأرواح خسارة .. موت بعض الأفراد من النسالى ظلمًا، أم اكتساح الوحوش المفترسة لأشراف چارتين صالحيهم وفاسديهم إلى أن تفنى چارتين ..

وتابعتُ متذكرة:

- حين كنت طالبةً في المدرسة العليا لضباط الأمن حكى لنا معلمنا قصةً عن حربٍ عظيمة قامت قبل قرون طويلة بين بلدان بعيدة عن چارتين، كانت وقتها الأسلحة في تلك البلاد أكثر تطورًا عن عصرنا الحالي، وكان جنديًا صغيرًا في جيش أحد البلدين قد أُصيب بحرقٍ شديد إثر قذيفة كيميائية اُستخدمت في تلك الحروب .. ثم شاء القدر أن يصبح هو قائد جيش بلاده بعد سنوات، واستطاع بدهائه حصار مئات الآلاف من جنود عدوه .. توقّع الجميع أن يقوم بإحراق أجسادهم بالسلاح الكيماوي ذاته الذي أحرق جسده في صغره مُنهيًا

حربه .. لكنه على عكس ما توقّع الجميع لم يفعل ذلك، واكتفى بأسرهم قائلًا بأنه يعرف مدى الألم التي تسببه تلك الحروق، ولا يتمنى لشخص مهما كان أن يشعر بها .. وأكمل حربه مستخدمًا خططًاً أخرى ضد بقيتهم .. إلى أن خسر الحرب في النهاية.

وقتها نعتناه كلنا بالغباء، كيف يأتي لإنسان فرصة القضاء على كل أعدائه أو أغلبهم في لحظة واحدة ويرفضها ..

اليوم عرفتُ لماذا لم يفعلها .. يبقى كوننا بشرًا نحمل ذرة من خير في قلوبنا هو الفارق بيننا وبين الوحوش ..

قد أكون مخطئة في رأيي، لكن لا بأس بهذا .. لطالما كنت سيدة القرارات المصيرية الخاطئة.

سألني فاضل بعدما نهضت سبيل لتقضي حاجتها في مكان بعيد عنا:

– ما الجريمة التي كان نديم قد ارتكبها؟!

قلتُ:

– اتهمته امرأة أنه حاول قتلها .. لكنها اعترفت لي بعدها أنه بريء من ذلك الأمر .. ظللتُ تسع سنوات أظن أن روحه نقية لم يحصدها أحد .. إلى أن جئت وأخبرتنا عن ابن ديما، قد يكون فعل مثل ما فعله الزائرون الذين رآهم العجوز وقتل أحد الأشراف أثناء هياج روحه دون أن يدرك ذلك، قال ريان أنه كان يختفي كثيرًا في الأيام الأخيرة التي سبقت موعد زواجنا،

لا أزال أذكر كلماته لي على المنصة قُبيل موته؛ «لم أكن أنا» ..
إنهم لا يدركون ما يفعلونه حين تثور أرواحهم ..

وقد لا يكون قد ارتكب أي جريمة وانتقلت روحه إلى آدم على الرغم من ذلك، جال في خاطري اليوم والعجوز يحكي أن تكون تلك الأرواح مختلفةً عن أرواح النسالى في مثل هذا الأمر، لا يستطيع أحد معرفة الحقيقة.

كانت سبيل قد عادت وجلست بجواري عندما قال فاضل:

- لكنه يبقى حاول تحجيمها من أجلك.

وتابع:

- ماذا لو كان باقي المتعلمين مثله؟!

ونظر إلى سبيل، وقال:

- لا أقصد التضحية بطفل سبيل بكل تأكيد، لكني أفترض إنْ استطاع أحد حاملي تلك الأرواح استنفار الباقين فعلاً ..

قلتُ بحدة:

- لن يعلم بهذا الأمر غيرنا أيها الطبيب، لن أراهن على ترويض الوحوش.

ثم تثاءبتُ وتصنعتُ رغبتي في النوم لأنهي ذلك الحوار، فسكت هو الآخر، بعدها نهضتُ أنا وسبيل لننام على ظهر العربة، بينما افترش

هو الأرض ونام على الرمال، وظللتُ أنظر إلى السماء ونجومها من فوقي .. إلى أن غلبني النعاس، ولم أنهض إلا مع اشتداد حرارة شمس النهار التالي.

عدنا إلى الوادي مع منتصف ذلك النهار، قابلنا ريان بلهفةٍ كبيرة وانتظرني أن أخبره بما حدث .. فقلت:

- لم يقدّم العجوز كثيرًا عما قاله هنا، ثمة نسالي تثور أرواحهم مع اشتداد ظلم الأشراف رُسمت أجسادهم المُقيدة بسلاسل حديدية على جدران ذلك الكهف.

فسألني متعجبًا:

- وما حاجته إلى سبيل؟!

قلت كذبًا:

- اعتقد الرجل أن ذلك الجبل يضع قوة تلك الأرواح بالأجنة الشريفة من نسل النسالى، وأراد لسبيل أن تظل هناك حتى وضعها، فرفضنا هذا الأمر وتركناه وعدنا .. ليتنا لم نُضع هذه الليلة في هذا الهراء.

زمَّ شفتيه بائسًا بعدما ظن أننا سنعود إليه حقًا بسر يمكّننا من هزيمة الأشراف، فأخبرتُه عن حاجتي إلى النوم بعد تلك الرحلة المُجهدة، فسمح لي بأن أواصل طريقي إلى كوخي .. فيما تركني الطبيب ومضى إلى كوخه دون أن يقول أي شيء.



في خلال الأيام التي تلت ذلك اليوم لم ألتقِ الطبيب كثيرًا، كنت أُعلّم الصبية نهارًا وأخلد إلى كوخي ليلًا، وكلّما جالت بخاطري الأفكار والوساوس بأن العجوز محقٌ فيما قاله كنت أضرب رأسي مؤنبةً له لأطرد تلك الأفكار عنه، قبل أن أشغل نفسي بقراءة أي كتاب ولو كنتُ قد قرأته من قبل، انشغل الطبيب هو الآخر بعيادته وبزياراته السريعة إلى مرضى الوديان القريبة الذين لم يستطيعوا القدوم إليه، في تلك الأيام عادت إليّ الكوابيس مرة أخرى بعدما اقتحم نومي كابوسٌ واحد لأكثر من مرة، كنت أسير فيه عارية الجسد مثل النسليات القدامى منقوش على جبهتي وشم النسالى بطريق طويل تمطر فيه السماء دماءً بغزارة، نادى صوتٌ بعيد بأنها دماء النسالى التي أُهدرت بسببي، ومن بعده تعالت أصوات الزئير على جانبيّ الطريق دون أن يظهر من يزأرون، أواصل طريقي أسفل الدماء إلى أن تبصر عيني سبيل تقف بنهاية الطريق حاملةً رضيعها وتنظر نحوي في خوف، فتتعالى أصوات الزئير أكثر وأكثر كأنهم ينتظرونني أن أطلق سراحهم، فأتقدم نحو الفتاة وطفلها بعدما يظهر في يدي سكينٌ فجأة، وأقترب منها أكثر وأكثر، قبل أن تتوقف قدماي لأنظر ورائي حين سمعتُ من خلفي زئيره العالي الذي غطى على باقي الأصوات جميعها، كان نمر أبيض ضخم يركض نحوي بأقصى سرعته .. ظننته سيفترسني .. لكنه ما إن اقترب مني حتى خضع أسفل قدميّ متعبًا، ونظر في عيني بنظرة كنت أعرفها جيدًا، هبطتُ على ركبتي أمامه، ومددتُ يدي لألامس وجهه المُلطّخ بالدماء المنهمرة من السماء، لكنه أطلق زئيره العالي في وجهي .. فأنهض من نومي مفزوعةً، وأذهب إلى غرفة سبيل لأطمئن عليها، ثم أخرج إلى فناء كوخي، وأجلس بمفردي إلى أن يطلع النهار التالي.

لم أخبر أحدًا عن تلك الأحلام السيئة، إلى أن مضت الأيام تباعًا، ونهضتُ على صرخات سبيل بعد ستة أيام من يوم غفران ذلك الشهر .. أسرعت ناردين بإحضار الطبيب فيما اجتمع صبية وفتيات المدرسة أمام باب الكوخ في انتظار قدوم ذلك المولود الذي انتظرناه .. لم أستطع أن أبقى مع الطبيب وتركتُ ناردين لتساعده بعدما شعرتُ أنني متوترة للغاية، وأسرعتُ عائدة إلى غرفتي، وأغلقتُ بابي من خلفي يرتجف جسدي من شدة توتري مع كل صرخة من صرخات سبيل، حتى هدأ صراخها ليصرخ بعدها بلحظات صوت آخر .. كان صوت أول شريف من نسل النسالى .. لم أستطع تمالك دموعي وأنا أسمع صراخ الطِّفل، ثم وجدتُ ناردين تأتي به إليّ ملفوفًا في قطعة من الصوف المنسوج، فحملتُه إلى صدري وقبّلتُه، ثم نهضتُ وعدتُ به إلى أمه، وقبّلتُ رأسها وقلت:

- مبارك لكِ انتماءكِ إلى الأشراف تكريمًا لهذا الطفل.

ابتسمت إليّ الفتاة قبل أن تضم مولودها إلى صدرها وتنظر إليه .. سألني الطبيب:

- ما الخطوة التالية؟

نظرتُ إلى ريان الذي كان يقف هائم الوجه ينظر إلى سبيل وطفلها، وقلت:

- أخبر الجميع أن طفل سبيل الشريف قد جاء إلى الدنيا.

لم ننتظر كثيرًا حتى نعرف رد فعل الأشراف بعد ولادة سبيل، في مساء ذلك اليوم أتى إلى الوادي جماعةٌ من فرسان الضباط كانت تسبقهم أصوات طلقاتهم النارية مثل اليوم الذي أركعونا فيه، لم يكن بينهم كيوان هذه المرة .. كان قائدهم زميل صفي بالمدرسة العليا، وكنت أعرف أنه يمتلك قلبًا لينًا إلى حدٍ ما .. دلف إلى كوخي، وقال باقتضاب دون أن ينظر في عيني:

- سينتقل هذا الطفل وأمه للعيش في جويدا بأمرٍ من القاضي ..

نظرت إليّ سبيل بحيرة، بينما أكمل الضابط:

- سيعيش هذا الطفل بين الأشراف.

فهززتُ إليها رأسي إيجابًا مطمئنةً لها، كان هذا ما يستحقه ذلك الطفل وأمه التي عانت كثيرًا من أجل مجيئه. وكانت عربةٌ فارهةٌ مجهزة قد جاءت مع الضباط إلى الوادي من أجل حمل الطفل وسبيل، فأخبرتُ ناردين بأن تساعد سبيل في حزم أمتعتها، لكن الضابط فاجأنا بعدما انتهى من حديثه إلى سبيل حين نظر إلى الطبيب، وقال:

- أيها الطبيب لقد قمت بعملك على أكمل وجه في رعاية الفتاة حتى وضعها، لكن لم يعد مسموحًا لك بالبقاء في چارتين أكثر من ذلك.

نظر إليه الطبيب مذهولًا، وقال:

- ماذا؟!

قال الضابط:

- ستأتي معنا إلى جويدا، وسترحل على متن أولى السفن المتجهة إلى الشمال.

قال الطبيب معترضًا:

- لن أرحل.

قال الضابط:

- أصدر الفارس كيوان أمرًا باعتقالك واقتيادك إلى سجن جويدا إن لم تغادر الليلة الوادي.

نظر إليّ الطبيب حائرًا فيما بدأت الدموع تلتمع في عينيّ ناردين وسبيل .. فقلت بصوت هادئ:

- حسنًا أيها الضابط، سيرحل الليلة عن الوادي ..

فوجدتُ ذلك الضابط يتركنا ويخرج إلى فناء الكوخ مع جنوده .. فقال الطبيب:

- لن أتركك ..

قلتُ بعين تلمع بالدموع:

- أخبرتُكَ أن كيوان سيقلّم أجنحتي، سيؤذيك حقًا إن بقيت أكثر من هذا ..

قال بتصميم كبير:

- لن أرحل.

احتضنتُه وقلت:

- سأمسي بخير أيها الطبيب، لقد قمت بدورك على أكمل وجه .. شكرًا لأنك كنت خيرَ سندٍ لي طيلة الشهور الماضية ..

وتابعتُ وأنا أرتشف دموعي:

- لن نجني من إيذائهم لك إلا مزيدًا من الوجع.

وابتسمتُ إليه وقلت:

- على الأقل ضمنّا خروج أحدنا سالمًا ..

نظر إليّ متفاجئًا من قولي، وقال:

- سأموت هنا.

قلت:

- ومَن يروي قصصنا إلى الآخرين؟!

قال والدموع تتجمع في عينيه:

- لا أحد يعرف آدم هنا .. عليّ أن أنتظر حتى يعود ..

قلتُ وأنا أبتسم إليه والدموع في عيني:

- لن يعود ..

قال:

- سيعود .. لقد قرأتُ بالأمس كتابًا أحضرته إليّ نسليةٌ من جويدا عن حيوانات چارتين المنقرضة .. أتعلمين لماذا أحب الملوك القدامى تربية نمور الشامو دونًا عن غيرها من الحيوانات؟!

.. لأن تلك الحيوانات لا تنسى أبدًا من يحبونها مهما طالت بهم السنوات .. كانت روح نديم تحبك حبًا حقيقيًا .. سيعود آدم إليكِ حين تثور روحه .. سيتذكركِ لا محالة ..

لم أستطع أن أحبس دموعي أكثر من ذلك فتساقطت على وجنتيّ .. قبل أن يدلف إلينا الضابط من جديد، ويحثنا على الإسراع ، كان الخيار الأصوّب هذه المرة أن نمتثل لأمر الأشراف .. احتضنته من جديد وأنا أقول:

– سأبقى بخير .. أعدك بذلك .. عليكَ أن ترحل ..

حاول الضابط بعدها أن يجذبه من ذراعه عنوةً .. لكنه أخبره هادئًا بأنه سيرافقه، قبل أن يخرج مع الجنود ويركب بالعربة ذاتها التي ركبت فيها سبيل وطفلها .. وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي أرى فيها الطبيب فاضل.

(١٥)

سبيل

ركبتُ العربة الخشبية التي جاءت إلى وادي النسالى برفقة الضباط أحمل بين ذراعيّ طفلي الذي يبلغ يومًا واحدًا، ثم لحق بي الطبيب بعد قليل من الوقت، وجلس على المقعد المقابل لي ينظر بعينين ملتمعتين بالدموع عبر نافذة العربة إلى السيدة غفران التي كانت تقف تنظر نحونا، قبل أن تنطلق بنا العربة إلى جويدا.

كان الحزن البادي على وجه الطبيب عظيمًا، وبدا من صمته المُطبق أنه يغوص في أعماق أفكاره .. كنت أعرف أنه لم يرد الرحيل قط وترك سيدتي بمفردها لكنه انصاع إلى رغبتها في النهاية تقليصًا لمزيدٍ من الآلام. كان برفقتنا جنديٌّ واحد داخل العربة يجلس بجواري، فقطع الطبيب صمته وسأله بعد تحركنا بفترة قصيرة:

- متى ترحل أولى السفن إلى الشمال؟

أجابه الجندي بأنه لا يعرف، فأكمل الطبيب شروده ونظراته عبر النافذة إلى ظلام الطريق المحيط بنا إلى أن ظهرت أنوار جويدا وقلّت اهتزازات العربة بعدما صار الطريق مُعبدًا من أسفلنا، فسألني:

- ماذا ستسميه؟

قلتُ:

- أخبرتُ سيدتي أنني سأسميه حيدر .. على اسم أبيه ..

ابتسم لي وقال:

- أتمنى لكما حياة سعيدة.

فشكرتُه على لطفه وتمنيتُ له حياةً أكثر سعادة هو الآخر في البلاد التي سيذهب إليها، وبعد وقت قليل توقفت العربة، وطرق بابها من الخارج ضابطٌ أمر الطبيبَ بأن ينزل لمرافقة فارسين آخرين سيصحبانه إلى القرية الجنوبية حيث مرفأ السفن، فأومأ برأسه إليه، ثم احتضنني وهمس إلى أذني ببعض الكلمات دون أن يسمعها الجندي المجاور، وابتسم لي بعدما حدّقتُ به متعجبةً مما قاله، بعدها غادر مع الضابط، وأكملت العربة طريقها بي بين شوارع جويدا، حتى توقفت أخيرًا أمام بيت صغير من طابق واحد، وقال قائد الجنود بعدما نزلتُ من العربة:

- ستعيشين هنا مع ابنك ..

لم أصدّق أن يخصص الأشراف لي بيتًا .. ودلفتُ بأسارير منفرجة وراء الضابط عبر الباب الذي فتحه أحد الجنود، لكني أجفلتُ حين وجدتُ الفارس كيوان يجلس في ردهة البيت في انتظاري

.. بعدها انصرف بقية الضباط بإشارة منه، فيما وقفتُ يرتعش جسمي من الخوف وأنا أمسك بطفلي فوقَ ذراعيّ عندما اقترب مني وألقى نظرةً خاطفة عليه، وقال:

- سيُسجَل صباح الغد بين مواليد هذا العام، وستحصلين على صك انتمائِك للأشراف، وبعدها يمكنكِ تغطية كتفك.

هززتُ رأسي إيجابًا خوفًا دون أن أنطق .. فتحرك بعيدًا عني خطوة واحدة، وتابع:

- سُتقام احتفاليةٌ به في الباحة خلال يوم الغفران القادم بأمرٍ من الحاكم .. ستصعدين إلى المنصة بعد انتهاء الإعدامات، وسيعزف العازفون موسيقا الاحتفالات الوطنية ..

كنتُ أود سؤاله إن كان وشمي سيُزال أم لا، لكن خوفي منعني من نطق أي كلمة، غير أنه أجاب تساؤلي حين استدار فجأةً وصفعني صفعة قوية للغاية على وجهي كادت تسقط طفلي من يدي، وقال:

- سيظل وشمك على كتفك، وإن ارتكبتِ خطأً واحدًا فقط سيعيدك إلى حيثما كنت، وإياكِ أن أعرف أنكِ تحدثتِ إلى أحد من النسالى الأنجَاس .. أو خرجتِ إلى الجنوبَ مرة أخرى ..

أومأتُ برأسي إيجابًا في رعب، فقال:

- أمر الحاكم أيضًا بأن تجوبي باقي مدن چارتين خلال الشهور القادمة .. عليكِ الابتسام إلى الجماهير فحسب .. لا حديث مع أحد ..

وأضاف باشمئزاز:

- ستُرسل حصة من الطعام تكفيكِ أنتِ وطفلك لعامين .. لا حاجة للرذيلة إذًا ..

قلتُ:

- لم أمارس الرذيلة من قبل سيدي ..

فصفع وجهي بظهر يده، وقال:

- حين أتحدث تنصتين فحسب أيتها العاهرة ..

هززتُ رأسي إيجابًا وأنا أبكي .. ثم تركني بعدها وغادر، لأجلس مكاني يرتعش جسمي، ويجتاحني خوفٌ لم أشعر به منذ اليوم الذي ركعنا فيه في وادي النسالى.

في اليوم التالي سجلتُ حيدر بين مواليد الأشراف، وحصلتُ على ورقة صفراء بها صك انتمائي للأشراف من دار قضاء جويدا ..

كان شعوري مختلفًا حقًا وأنا أسير في شوارع المدينة مغطاة الكتف لا ينظر إليّ أحد باشمئزاز أو قرف مثلما كان يُنظر إليّ من قبل إن أتيت إلى المدينة عارية الكتف، لكن ذلك الشعور لم يدم إلا ليوم غفران ذلك الشهر عندما حدث ما تحدث بشأنه الضابط كيوان، ووجدتُ امرأة أربعينية تزورني قبله بأيام لتأخذ مقاسات جسمي من أجل تصميم فستان قالت بأن الفارس مَن أوصاها بنفسه بسرعة تصميمه، وجدتُ ذلك الفستان صبيحة ذلك اليوم يظهر وشمي وإن

كان تصميمه رائعًا .. ثم حملتني أنا وطفلي عربةٌ خشبية إلى الباحة حيث عبرت بي إلى داخلها من المدخل المخصص لكبار السادة .. وهناك انتظرتُ بداخلها طوال اليوم حتى سمعتُ أصوات بارود الإعدام، فعلمتُ باقتراب صعودي إلى المنصة، بعدها بوقتٍ قليل قادني جندي إلى السلم الخلفي للمنصة، وبعد حديث الحاكم بنفسه أشار لي جندي آخر بالصعود إلى المنصة وما إن صعدتُ حتى انطلقت التهليلات وأنا أقف أمامهم بفستاني المتلألئ مع أشعة الشمس، لم أنشغل بصيحات الجماهير وتهليلاتهم بقدر ما كانت عيني تسترق النظرات إلى الفارس كيوان الواقف كالتمثال على يساري والحاكم الجالس على مقعده الفخم بأقصى المنصة على اليسار أيضًا ..

تمنيتُ وقتها لو كانت السيدة غفران تقف بين هذه الجماهير لترى ثمار جهدها السنوات الماضية وهو يتحقق، لكني عرفتُ فيما بعد أن ذلك اليوم مُنع فيه النسالى من دخول الباحة أو من الاقتراب من جويدا حتى. ثم عزف العازفون موسيقاهم الوطنية فصمت الجميع، وبعدها غادرتُ المنصة حيث عادت بي العربة إلى بيتي.

منذ ذلك اليوم صار وجهي معروفًا للجميع، وعلى عكس ما ظنّه عقلي في الباحة لم أجنِ من احتفالهم بي إلا مزيدًا من لفت الانتباه والتحديق عند مروري في أي مكان هناك، ولم أجد نظراتهم لي بعدها إلا نظرات ازدراء وقرف، النظرات نفسها التي اعتدتها في حياتي منهم، كذلك لم تعرف الألسنة التي تتحدث عني إلا كلمات واحدة؛ «النسلية التي صارت شريفة»، ولم يسلم طفلي هو الآخر من شهقاتهم السخيفة كلّما رأوه على ذراعي:

– أووه .. الشريف من نسل النسالى.

سمعتُ امرأة تقول لأخرى باشمئزاز عندما رأته على ذراعي:

– لن يرضى أحد بأن يزوّجه ابنته، إن دماء النسالى تسري في عروقه .. هذا إن وصل إلى سن الزواج أصلًا.

لا أعلم كيف تحكم بلهاء كهذه على طفل لم يكمل شهرًا من عمره. ثم بدأتُ جولاتي التي تحدّث بشأنها الفارس كيوان بالشهور التالية، ثلاث عشرة جولة في ثلاث عشرة مدينة كنت أزورها للمرة الأولى في حياتي.

كانت جميعها تسير على النمط نفسه .. احتفالية كبيرة في كبرى ساحات تلك المدن، قبل أن يشير لي أحد المنظمين بأن أصعد إلى المنصة حاملةً طفلي بثوبي الذي يظهر كتفي لتحدّق بنا الحشود، قبل أن تدق موسيقا الاحتفالات الوطنية، لأعود إلى عربتي مرة أخرى حيث تعود بي إلى جويدا في انتظار تحديد يوم جديد للذهاب إلى مدينة أخرى.

لم ترحمني عيون الأشراف مرةً واحدة، وإن نظروا إلى بعضهم البعض متفاخرين بعدالة بلادهم. أما أنا فكنت أشعر أنني وطفلي الحيوانان اللذان يجوبان مدن چارتين من أجل أن ينال سادة الأشراف التصفيق على شرفنا فحسب. تمنيتُ لو استطعت في مرة أن أصرخ إليهم لأقول:

– أرجوكم .. أوقفوا هذا الأمر، أرجوكم توقفوا عن النظر لي بهذه الطريقة ..

لكن صراخي لم يتجاوز حلقي قط.

حتى سماء چارتين بدت وكأنها تضامنت معي عندما غيّمت بشدة في زيارتي إلى آخر المدن وأبعدها عن جويدا .. مدينة بريحا الصغيرة ..

كان عدد المحتشدين يومها لا يزيد عن بضعة آلاف عندما وقفتُ أمامهم بطفلي على منصة خشبية بساحة تلك المدينة .. كنت أشوّش عقلي متعمدةً بأي شيء آخر لأتجاهل النظرات التي اعتدتها منهم .. لكني لم أستطع تجاهل نظرة ذلك الطفل نحوي .. كان طفلًا يبلغ من عمره قرابة تسع أو عشر سنوات تحمله أمه بالصفوف الأولى القريبة من المنصة، شعرتُ في نظرته لي بنوع من التعاطف لا أعلم لماذا! .. قبل أن تمطر السماء بغزارة لم أعتدها من قبل، فحاول الجميع الاختباء من الأمطار الشديدة، وبدأوا يفرّون إلى بيوتهم حتى انفضوا جميعًا من أمامي .. يومها أصرّ المنظمون لذلك الحدث على استمرار وقوفي أنا ورضيعي على المنصة أسفل الأمطار دون حراك حتى تخلو الساحة تمامًا من أهل تلك المدينة .. إلى أن تحركتُ أخيرًا بثيابي وثياب طفلي الغارقة إلى العربة لتنتهي هذه المهزلة ..

ظل المطر ينهمر بغزارة طوال ذلك اليوم حتى أننا عُلقنا داخل العربة هناك ولم نستطع التحرك إلا مع مساء اليوم التالي .. عُرف هذا اليوم بعد ذلك بيوم المطر العظيم من كثرة الأمطار التي شهدها والأضرار التي لحقت ببيوت تلك المدينة يومها.

لا زلتُ أتذكر ذلك اليوم خصيصًا لأن حيدر مرض ليلتها هناك وأصابته حمى شديدة كادت تودي بحياته لولا طبيب شاب هناك ظل برفقتي إلى أن جاءت امرأة لتأخذه إلى بيتها من أجل طفلها المريض بالصرع .. ورغم مرض طفلي يومها إلا أنني تمنيتُ لو أمطرت

السماء بهذه الغزارة في كل يوم وطأت فيه أقدامي ساحات تلك المدن لتحمي أجسادنا من نظراتهم الأشد قسوة.

ظننتُ أن الأمور ستتحسن مع الوقت بعد انتهاء تلك الجولات واستقراري في جويدا، لكن ذلك لم يحدث قط، في أي مكان كان الجميع ينفر مني ويترددون في معاملاتهم معي كأنني مجذومة أو مصابة بمرض جلدي .. وعندما داعبت طفلة لا يتجاوز عمرها الست سنوات طفلي ذات مرة في السوق جذبتها أمها ونهرتها حين وجدتني أم هذا الطفل، وقتها حضرت إلى ذهني كلمات الطبيب فاضل الأخيرة لي يوم رأيته للمرة الأخيرة، لكني كنت أنظر إلى طفلي وأحدّث نفسي بأنني سأتحمل من أجله مهما يكن، لتمر الشهور شهرًا وراء آخر يتزايد معها يومًا بعد يوم خوفي من الخروج من بيتي تجنبًا لنظرةٍ من هذا أو كلمة من ذاك، واعتمدتُ على الفتات الذي كان يُرسل ليَ بداية كل شهر من أجلي أنا وطفلي .. تمنيتُ لو حملت الأخبار يومًا خبر حمل فتاة نسلية أخرى بجنين شريف لكن ذلك لم يحدث قط، بل قالت لي امرأة ثرثارة أتت إلى بيتي تحمل حصة الغذاء بدلًا من زوجها الجندي:

- إن أهلكِ يتلقون درسًا كبيرًا هذه الأيام على يد زوجي ورفقائه.

فكرتُ لحظتها أن أزور وادي النسالى خفيةً، لكني عدت وخشيت أن يعرف الفارس كيوان فيعاقبني بإلغاء صك انتمائي للأشراف أو ربما بإبعادي عن طفلي، وانتظرتُ حلول يوم الغفران التالي، وغامرتُ باندساسي بين الجماهير المحتشدة بالباحة وأنا أغطي

رأسي بقلنسوة معطف صوفي لبسته رغم اشتداد حرارة ذلك اليوم .. وواصلتُ تحركي بينهم إلى أن وقفتُ بجانب فتاة نسلية كانت بين فتيات مدرسة السيدة قبل تركها لها، وسألتُها عن السيدة غفران وريان وناردين، قالت أن السيدة غفران تلزم كوخها منذ رحيلي أنا والطبيب عن الوادي، فيما اختفى ريان بعد مطاردة الجنود لكل مَن عبروا الخامسة والعشرين من الذكور، أما ناردين فلا تعرف عنها شيئًا .. فأبلغتُ معها السلام إلى السيدة وناردين قبل أن أغادر إلى مكان آخر في الباحة.

في ذلك النهار أُعلن على المنصة ترقّي الضابط كيوان من الفارس المختص بشؤون النسالى إلى كبير ضباط جويدا رغم عمره الذي لم يكمل الأربعين .. فغادرتُ الباحة مع أصوات طلقات البارود التي أطلقت إلى السماء احتفالاً بهذا التكريم وكلّي رجاءٌ أن يجعله ذلك المنصب ينسى النسالى والسيدة غفران ولو لبعض الوقت.

مع انتهاء العام الثاني انقطعت عنا حصة الطعام والثياب المقررة لنا، ولم يعد أمامي إلا العمل أو الموت جوعًا أنا وطفلي. كما توقعتُ تمامًا، رفض الجميع تشغيلي معهم وإن أخبرتهم أنني أجيد القراءة والكتابة كخريجي المدارس المتوسطة، لكن وشمي ظل حائلًا دائم بيني وبينهم وإن وارته الثياب، طرقتُ الأبواب وعرضتُ على أهلها أن أعمل خادمة لدى منازلهم .. قالوا صراحةً أنني من القوم السارقين ورفض جميعهم عبوري لعتبة دورهم وكأنهم اتفقوا على نبذي .. زادت الأمور سوءًا مع ندرة اللبن في صدري لسوء تغذيتي، فخرجتُ من جديد أتسوّل طعامًا وأنا أحمل طفلي على ذراعي .. نظر الجميع

نحوي وسخروا مني ورفضوا إعطائي أي شيء .. ثم ألقى أحدهم بكسرة خبز أسفل قدمه وأشار لي كي آخذها .. ترقرقت الدموع في عيني وأنا أركع لألتقطها لكنه ركلها بقدمه بعيدًا عني إلى كلب ضال لم يتأخر عن التهامها .. نهضتُ وسرتُ في طريقي، فقام شابٌ آخر بنزع فستاني على حين غرّة من الخلف فظهر وشم كتفي، فصرختُ إليهم بصوت متعب:

- إنني شريفة مثلكم.

فأشار نحوي مَنْ نزع فستاني بإشارة بذيئة، فأطلق الباقون ضحكاتهم الساخرة أمام جندي وقف يشاهد ما يحدث دون أن يحرك ساكنًا ..

كان بيت من بيوت الرذيلة يقع على جانب ذلك الشارع، وقف صاحبه أمام بابه الكبير يضحك ويشير إليّ بأن أقترب منه، لكني أكملت طريقي وأنا أبكي بحرقة، قبل أن أسمع اسمي للمرة الأولى منذ وقت طويل حين ناداني صوت أنثوي:

- سبيل ..

التفتُّ إلى مصدر الصوت الآتي من الأعلى، كانت نافذة خشبية في الطابق العلوي لبيت الرذيلة .. تقف فيها فتاة نسلية ألقت نحوي وهي تبتسم بطيبة رغيفًا فيه قطعةُ من اللحم التقطته من الأرض ووضعته في فمي .. قبل أن تُغلَق النافذة ويتعالى الصراخ من خلفها وكأن أحدهم شرع في ضربها لما قامت به معي ..

في تلك الليلة وجدتُ جِوالًا من الدقيق وإناءً فخاريًا كبيرًا من العسل أمام باب بيتي، كنت أعرف مذاق ذلك العسل جيدًا، كان العسل الذي

لطالما اقتطفه لنا ريان في وادي النسالى، فعرفتُ أن سيدتي غفران من أرسلته إليّ، وبكيتُ، لا أعلم للمرة الكم تنقذ سيدتي طفلي من الموت .. تمنيتُ لو استطعت الذهاب إليها وتقبيل قدميها لكنني كنت أعرف أنها لا تريد مني سوى إكمال ما سعت إليه دائمًا .. يومها أشعلتُ مستوقدي وأخرجتُ سكينًا عريض النصل ووضعتُه فوق النيران، وانتظرتُ حتى احمرَّ نصله مع اشتداد سخونته، ثم قبضتُ بأسناني على قطعة من الجلد السميك، وأمسكتُ بمقبض السكين ولاصقتُ بنصله جلد كتفي الأيسر فوق وشمي وأنا أصرخ صرخات مكتومة شعرتُ معها أن عينيّ ستخرجان من مقلتيهما، حتى ألقيت سكيني أرضًا مع احتراق جلد وشمي بأكمله، وسقطتُ على الأرض ألهث وأتأوه من شدة الألم .. لكن داخلي أقسم أنني سأكمل ما بدأته سيدتي حتى موتي.

أكملتُ أيامي في المدينة التي أكرهها وأكره أهلها، وواصلتُ بحثي عن عمل يجلب لي ولو قدرًا ضئيلًا من المال، كانت النتيجة نفسها .. غير أنني فوجئتُ بعد أيام أخرى من البحث بمن ينحني إليّ حين جلستُ بطفلي متعبة على جانب الطريق، ويخبرني بأنه يريدني أن أعمل خادمة له في منزله، كان شابًا في المدرسة العليا لم يكمل العشرين يعيش بمفرده على ما تقدّمه له چارتين من منحة مقابل خضوع أبويه للقاعدة الأولى، قال أنه سيتولى إطعامي أنا وطفلي وإن استطاع ادخار شيئًا من نقوده سيعطيني ثلاث عملات نحاسية مقابل اهتمامي بنظافة بيته وطعامه، فوافقتُ على الفور .. شعرتُ أنني أعرفه أو ربما رأيته من قبل، فسألتُه إن كنا قد تحدثنا سابقًا،

فأنكر ذلك .. لكني منذ اليوم الأول في بيته عرفت أين رأيته عندما رأيتُ صورتها قبل سنوات في إحدى الخزانات الخشبية، كانت صورة مرسومة للسيدة غفران في ثوب مدرستها المتوسطة .. ومعها عاد ذهني إلى ذلك اليوم الذي حضر فيه الضابط كيوان للمرة الأولى إلى وادي النسالى وألقى القبض على أحد عشر نسليًا بينهم زوجي حيدر فيما أحضر معه شابًا صغيرًا أعلن للسيدة غفران عن موافقته بإزالة صفة الأشراف عنها .. كان أخاها زين، وقتها تساءل عقلي متعجبًا إن كان موافقته لأعمل معه ندمًا على ما فعله في حقها، أم أنه من قبيل الصدفة، أم تكون السيدة غفران من استعطفته بشأني .. لم أحدثه عن هذا الأمر وواصلتُ عملي في بيته .. أنظف غرفه وأُعد له طعامه نهارًا قبل أن أعود إلى بيتي مع طفلي مع حلول المساء أغطي رأسي بقلنسوة معطفي خشية أن يعرفني أحدهم فيقوم بنزع ثيابي للسخرية مني، كان في داخله الطيبة نفسها التي لطالما شعرتُ بها داخل سيدتي .. تحن الدماء لبعضها حقًا .. حين رآني ذات مرة أنظر إلى صورة السيدة غفران القديمة لم يعقّب على الأمر وسألني عمّا إن كان طفلي بخير، هززتُ رأسي إيجابًا إليه، وقلت وأنا أنظر إلى الصورة:

- لم أجد في نقاء قلبها ..

قال بجمود:

- لا أتذكر مواقفًا لي معها .. تركتني صغيرًا جدًا لتعيش بينكم.

قلت:

- ربما أرادت لك الخير بالبقاء هنا، لا تعرف المعاناة التي يواجهها كل طفل هناك ..

قال بالجمود ذاته:

- ربما ..

ثم تركني وغادر.

عرفتُ لاحقًا أنه كان يتابع أخبارها أولًا بأول على مر السنوات الماضية، ولا أدري إن كانت تعرف باهتمامه بأخبارها إلى هذا الحد أم لا، حتى أنني صرت أعرف أخبار الوادي وأخبار السيدة منه دون الحاجة إلى الذهاب إلى باحة جويدا من أجل لقاء أي نسلية هناك خلسةً، كنت كل ما أخشاه أن يؤذيه الفارس كيوان لإيوائي من الموت جوعًا .. لكنه طمأنني حين حدثته عن هذه المخاوف بأن الفارس كيوان يواصل ترقيته في المناصب بين مدن چارتين ولا يشغل باله بي .. لكن بال الأشراف الآخرين لم ينسني قط، واستمرت المضايقات إن رأوني دون انقطاع حتى أنني صرت ألبس معطفي ذا القلنسوة صيفًا وشتاءً اختباءً منهم .. كنت أعرف أن طفلي سينمو مصابًا باضطراب في شخصيته بعدما عزلتُه تمامًا عن الظهور للناس، لكنني اضطررت إلى ذلك خوفًا من تعرضه لأي نوع من أنواع الأذى .. لتمضي السنين دون توقف وأجده قد بلغ في غمضة عين عامه السادس .. سن الالتحاق بالمدرسة الأساسية في جويدا .. فكرتُ كثيرًا في هذه الخطوة خوفًا مما قد يتعرض له هناك، حتى انتهيت إلى قراري بانضمامه إلى غيره من الأشراف لعدم اختلافه عنهم، غير أنه عاد لي في اليوم الأول مُمزق الثياب مرسوم على جبهته بالرصاص الأسود رسمة قريبة من وشم النسالى .. ظل ينشج بقوة

يومها وهو يغمغم عن اعتداء من يكبرونه سنًا عليه دون سبب .. كنت أنا المخطئة لأنني ظننت أنهم يومًا ما سينسون أن أباه وأمه كانا حاملين للعار .. وقررتُ يومها أن أعلّمه بنفسي مثلما فعلنا مع أطفال النسالى في الوادي .. كنت على استعداد أن أصبر وأصبر وأصبر وإن عانى طفلي مع هذا الصبر .. على أمل أن يستعيد حقه كاملًا يومًا ما، كما علمتني سيدتي دومًا ..

لكن الرياح التي هبّت فجأةً لتقتلع كل شيء جاءت ذلك الصباح حين كنتُ في طريقي إلى بيت السيد زين أغطي رأسي بقلنسوة معطفي وفوجئتُ بذلك الزحام الغريب للكثيرين من أهل جويدا في الطريق المؤدي إلى دار الأمن، وقتها أصابني الفضول لأرى سر زحامهم الغريب في يوم غير يوم الغفران، فوجدتُهم يتطلعون في دهشة إلى الجنود وهم يجرّون رجلًا يصرخ بأعلى صوته بأنه يريد مقابلة الفارس كيوان، وحين تجاوزتُ بعض الواقفين أمامي كي أرى ذلك الرجل بعدما بدا صوته مألوفًا لي، كدتُ أفقد وعيي عندما وجدتُه ذلك العجوز الذي أراد شق بطني في كهفه قبل ست سنوات.



(١٦)

سيرين

خرجتُ من متحف الأمن بـ«قِبالا» بعد أن دسستُ صورة الضابطة التي انتزعتها من كتاب الخريجِين أسفل كم سترتي، وركبتُ فرسي عائدةً إلى بريحا، لا يفكّر رأسي إلا في شيء واحد؛ ماذا أفعل حين أصل؟! وتتشاجر في رأسي أفكاري إن كان ما افترضه عقلي من وساوس منذ البارحة صحيحًا أم مجرد خيالات ستودي بي إلى شر أعمالي، وإن كنتُ قد تسرعتُ بالقدوم إلى «قِبالا» .. وما الذي دفعني أصلًا إلى انتزاع تلك الصورة من الكتاب؟! .. وماذا لو استطاع آدم التعرف على صورتها وكانت روحه نسليةً كما أعتقد؟! .. ماذا سيترتب على ذلك؟! .. وماذا لو عرف أشراف بريحا والسيد عبود بذلك وأبلغوا رجال الأمن؟! هل سأصير أنا الأخرى نسليةً أعاني الويلات بعد كل هذه السنين؟! أم أعترف من الآن أنه لا يمتُّ لي بصلة وأتبرأ منه، فيعفون عني إن عرفوا حقيقته مستقبلًا؟ .. في هذه اللحظة جذبتُ لجام حصاني بقوة فجأة أثناء ركضه فرفع قائمتيه الأماميتين وكاد يسقطني، وحدثتُ نفسي بصوتٍ عالٍ في غضب:

- ماذا سيغيّر إن كان آدم نسليًا أو شريفًا في شيء؟!

فيمَ تفكرين أيتها الغبية؟! .. إنني أحب كونه معي وإن كان شيطانًا حتى ..

وأخرجتُ الورقة المرسوم فيها صورة الضابطة، وألقيتُ نظرة طويلة على وجهها قبل أن أكوّرها في يدي بغضب شديد، وألقيها بكل طاقتي بعيدًا عني، ثم لكزتُ حصاني بقدمي، وواصلت طريقي بسرعة أقل مما كانت عليه قبل توقفي، لكن شيطانًا بداخلي جعلني أتوقف من جديد بعد أمتار قليلة لأستدير بحصاني، وأعود وألتقط الورقة من جديد، ثم فردتُها ونظرتُ إلى وجه الضابطة وعينيها القويتين قبل أن أطويها بحرص، وأضعها أسفل كم سترتي مرة أخرى، وأواصل طريقي بدون توقف هذه المرة.

وصلت بريحا قبيل الغروب .. واتجهتُ إلى منزلي مباشرة، كان المنزل خاويًا فعلمتُ أن آدم لم يعد من الورشة بعد، لكنني ما إن أخفيت الصورة بين أغراضي بغرفتي وخلعت فستاني حتى وجدته يعود ويسألني مستغربًا:

- أين كنتِ؟

قلت:

- ذهبتُ إلى «قِبالا» صبيحة اليوم لأزور صديقةً لي هناك .. لم أرد أن أقلق منامك باكرًا، لذا ذهبت دون إخبارك ..

قال غاضبًا:

- لقد أقلقتني بالفعل ..

ثم خرج وأغلق الباب من خلفه بقوة، حاولتُ اللحاق به لكني لم أتجاوز عتبة الباب بعدما لم تسمح ثيابي الداخلية القصيرة بالخروج، وبقيتُ في غرفتي أنتظر عودته إلى البيت مرة أخرى وألوم نفسي بصورة أكبر مما كنت عليه أثناء طريق عودتي.

في ذلك المساء تأخر كثيرًا في الخارج مثل اليوم الذي عاد فيه برسمة صديقه، إلى أن عاد مع منتصف الليل، ثم فتح باب غرفتي ليلقي نظرةً عليّ فتصنعتُ النوم، فأغلق الباب برفق واتجه إلى غرفته.

في الأيام التالية كان التشوش الذي يعصف بعقلي يفضح تعابير وجهي رغمًا عني، أحيانًا كنت أجد لساني يفلت بأسئلتي إلى الزبائن عمّا إن كانوا يعرفون شيئًا عن مصير الضابطة التي تركت المنصة قبل سنوات، كان أغلبهم لا يعرف. وأحيانًا كانت عيني لا ترى آدم إلا عاري الصدر حامل الوشم علي صدره خاصةً مع مراقبتي اللاإرادية له في الورشة أو البيت مع كل حركة يفعلها، فآثرتُ أن أتجنبه تلك الفترة حتى تهدأ أفكاري، سألني بأحد الأيام على غفلة أثناء تناولنا العشاء:

- هل هناك خطب ما يا خالتي سيرين ؟

قلت بمكر:

- ماذا تقصد؟!

قال:

- أجد حالك متبدلة منذ أيام .. هل أذاكِ أحدٌ أو ضايقكِ؟!

قلتُ والطعام في حلقي دون أن أرفع عيني إليه:

- إنني بخير ..

ثم سألته لأبدّل مجرى الحديث:

- كيف أحوالك بعد رحيل زهير؟

قال:

- صارت الأيام طويلة ومملة .. لا شيء غير العمل والعودة إلى هنا .. أحيانًا أذهب بفرسي إلى التلة التي كنا نجلس عليها قبل غروب الشمس.

قلت:

- وماذا بشأن أحلامك السيئة؟

قال:

- لم تأتِ منذ زمن، ظننتها ستراودني من جديد بعد رؤيتي ذلك الشعار على سترة الفارس كيوان لكنها لم تأتِ..

قلتُ باسمة:

- مع الوقت ستذهب عنك تمامًا ..

قال:

- أتمنى ذلك.

ثم تابع متسائلًا:

- ألم يعد من ذهب برسالتي إلى زهير من جويدا؟

قلتُ:

- لا أعرف .. لماذا؟

قال:

- حدثني أحد الزبائن اليوم عن رحيلٍ وشيك لباقي العاملين بمعامل الذخيرة إلى هناك بعد رحيل كبيرهم، والد زهير ..

قلت متعجبة:

- لم أسمع عن هذا الأمر ..

قال بغير اكتراث:

- قال هذا الزبون أثناء ثرثرته معي أن هذا الأمر يحدث للمرة الأولى، يظن الرجل أن الأمر متعلق بحالة طارئة حدثت في وادي النسالى المجاور لجويدا ..

وتابع بصوتٍ قلق بعض الشيء:

- أخشى أن يُصاب زهير بأي أذى ..

قلتُ:

- سيؤمّن له عمه كل الحماية .. إنه كبير الضباط الآن ولن يجد صعوبة في حمايته هو وعائلته ..

سكت لحظات، ثم قال:

- هناك أمر أودُّ إخبارك به ..

سألته:

- ماذا؟!

قال:

- اقترح الرجل نفسه الذي أخبرني عن رحيل صانعي الذخيرة أن أذهب برفقتهم إلى جويدا .. قد تحتاج الأحصنة إلى تبديل حدواتها أو العربات إلى إصلاح عجلاتها أثناء الطريق الطويل إلى هناك، سيحدثون السيد عبود بشأن إرسال حدادٍ يرافقهم بالطريق ..

وتابع وهو يترقب رد تعابير وجهي:

- وهناك في جويدا سيكون العمل أكثر ربحًا من الورشة التي نعمل فيها، وسأكون قريبًا من زهير لحمايته من أي مكروه.

وخفض نبرة صوته وهو يقول:

- لكني أخبرت الرجل أنني لن أرحل بدونك .. ما رأيك في الذهاب سويًا إلى هناك؟

ضممتُ شفتي وقلتُ:

- تحمل لي جويدا كل الذكريات السيئة .. لن أعود إلى هناك، إن أردت الذهاب معهم اذهب.

تعجب من نبرة حديثي وقال:

- لا لن أذهب بدونك .. لقد كان اقتراحًا من الرجل فحسب، وظننت أنكِ قد توافقين.

وأكمل باسمًا:

- لي ذكريات سيئة هناك أيضًا .. أصبتُ أحد الضباط هناك وظللتُ مشردًا لأيام كثيرة حتى اعتنت بي المرأة التي سلمتني إليكِ، ما زلت أتذكر تلك الآونة رغم مرور سنوات عليها ..

قلت بصوت هادئ وأنا أنظر نحو طبقي:

- كانت نسلية.

قال:

- كانت امرأة طيّبة على ما أتذكر .. أتمنى ألا تكون قد أُعدمت في الباحة ..

فقلت وأنا أختلس النظر إليه:

- قد أصير نسليةً إن ارتكبت خطأً واحدًا بعدما تسبب أبي في اختزال حماية صفة الشرف لنا بهروبه من القاعدة الأولى.

قال بابتسامة رائعة:

- سأظل أحبك خالتي سيرين وإن صرتِ قردة حتى.

ضحكتُ، كانت الفطرة التي عليها آدم أكثر ما أحبه فيه، وقلتُ في سري:

- وأنا سأظل أحبك يا صغيري مهما كنت ..

ليلتها أقسمتُ لنفسي أنني سأنسى تمامًا أفكاري السيئة، وعلى مر الأسابيع التالية بدأتُ أتناسى تمامًا تلك الوساوس التي لم تجلب لي سوى وجع الرأس وتشتت الذهن، وواصلنا حياتنا في بريحا بين الورشة وبيتنا. في أوقات كثيرة كنت أذهب معه إلى التلة التي كان يعتاد الجلوس عليها هو وزهير بعدما قلّ حجم عملنا في ورشة الحدادة مع رحيل معظم راكبي الخيول إلى جويدا سواء كانوا فرسانًا أو من صانعي الذخيرة .. سألني ذات مساء ونحن نشق طريقنا عائدين منها إلى البيت:

- ماذا يفعل الرجل حين يصل سن البلوغ؟!

ضحكتُ وقلتُ:

- لا شيء.

وتابعتُ:

- ينتظر تسعة سنوات أخرى حتى يتزوج شرعيًا في باحة جويدا.

قال:

- سأكمل عامي السادس عشر قريبًا جدًا .. لا أعلم في أي يوم تحديدًا .. لكني أتذكر أن الرجل الذي جاء بي إلى چارتين أخبرني حينها أنني كنت أبلغ التاسعة .. أتذكر ملامحه قليلًا ..

وقتها رأيت الرجل الذي أرسلتُ معه رسالة آدم إلى زهير قبل أكثر من شهر يمر أمامنا، فقاطعت حديث آدم وناديتُ الرجل، ثم سألته عندما اقترب منا إن كان زهير قد أرسل شيئًا معه إلى آدم .. فقال:

- أخبرني أن ألقي إليكما التحية، وأوصاني بإبلاغ شكره إلى معلمه السيد شقير.

سأله آدم:

- هل التحق بالمدرسة المتوسطة هناك؟

أجابه الرجل:

- لم أسأله عن هذا الأمر، لم أحظَ بوقت طويل معه .. إنه يرافق عمه على الدوام .. والجنود هناك ينتشرون بكثرة حول بيتهم، كما ينتشرون بصورة كبيرة للغاية في جويدا بعدما حُدد يوم الغفران القادم لمحاكمة النسلية التي كانت رامية المنصة قبل سنوات ..

وأضاف:

- تتناثر الأخبار هناك أن النسالى يكنّون حبًا كبيرًا لتلك السيدة وقد يحدث نوع من الشغب إن أقر القاضي إعدامها.

قال آدم:

- ماذا ارتكبت تلك النسلية؟!

نظرتُ لحظتها إلى آدم، كانت تعابير وجهه عادية وبدا أن سؤاله للاستفسار فحسب، أجابه الرجل:

- لا أعرف، لم أشغل بالي .. الأجواء في جويدا خانقة هذه الأيام، وكثرة الجنود هناك زادها اختناقًا.

شكرتُ الرجل على اعتنائه بتوصيل رسالتنا لأُنهي ذلك الحديث، فرحب بشكري، قبل أن يتركنا ويمضي، وأكملنا طريقنا إلى بيتنا اختلس بعيني النظرات بين الحين والآخر على وجه آدم، ثم سألني عندما دخلنا إلى البيت:

- ما قصة النسلية التي كانت رامية المنصة؟

قلتُ بعد لحظة من التفكير:

- كانت رامية المنصة قبل سنوات، قبل أن تُتهم بجريمة ما، وحكم قاضي المنصة بنزع صفة الشرف عنها لتكون عبرةً للآخرين من أصحاب المناصب الرفيعة، هذا ما أعرفه ..

قال:

- لا بد أنها فعلت الكثير للنسالى حتى يحبونها ذلك الحب الذي تحدث عنه الرجل.

قلتُ:

- ربما، ولكن الناس في جويدا اعتادوا اختلاق القصص وتهويل الأمور ..

فكر قليلًا ثم قال:

- قد يتعلق حشد الجنود هناك بصورة النسلي القوي في الصورة التي رآها زهير مع عمه.

قلت وأنا أشعل نيران المستوقد:

- سيتضح كل شيء خلال يوم الغفران القادم .. إن الأحداث الكبرى في هذا البلد لطالما ارتبطت بهذا اليوم.

تساءل بشغف:

- هل أُعدم رامٍ للمنصة من قبل؟

قلتُ:

- لا أعتقد.

ثم تذكرتُ الرماة بالكتاب الذي تصفحته في متحف قبالا، فأردفت مؤكدة:

- لم يُعدم أي رامٍ من قبل.

قال بحماس:

- ستكون قصة مثيرة حتمًا للأجيال القادمة .. لهذا السبب أحب زهير الانتقال إلى جويدا حيث الحياة المفعمة بالأحداث المتسارعة.

بعدها غيرنا مجرى الحديث إلى مجال آخر حتى تمكن النعاس منا، ومضت تلك الليلة وما بعدها من ليالٍ قليلة، إلى أن جاء صباح أحد الأيام بنهاية ذلك الأسبوع ولاحظتُ تبدّلًا وجهه، وقبل أن أسأله عما أصابه وجدته يقول بوجه حائر متقلب بعدما جلس إلى الطاولة:

- زارني الكابوس بالأمس.

انتظرته يكمل، لكنه سكت للحظة، ثم رفع عينيه إليّ وقال:

- ظهرت ملامح مَن يقتلني للمرة الأولى، لم يكن الضابط كيوان من يرتدي شعار الرامي على سترته .. كانت امرأةً جميلة .. تذبح عنقي بخنجرٍ أسفل قدميها ..

رأيتُ ملامح وجهها وهي تنظر في عيني .. امرأة شابة ذات عينين خضراوين، وشعر بني ملموم، ترتدي ثيابها العسكرية، مُثبت على صدرها ذلك الشعار المعدني، لم أستطع المقاومة، كنت مستسلمًا للغاية .. أنظر في عينيها فحسب.

أصابني التوتر مما قاله، فحاولتُ إخفاء توتري، وقلتُ باسمة:

- كما قلت لك، تتعلق كوابيسك بما يدور حولنا ..

قال شاردًا:

- لم أرَ وجهًا بهذا الوضوح في أحلامي من قبل، لكنكِ محقة .. لولا حديث ذلك الرجل منذ أيام عن ضابطة المنصة النسلية لما زارني ذلك الحلم ..

وضم شفتيه وأردف بنبرة حزينة:

- ظننت أن تلك الأحلام ستختفي مع اقترابي من عامي السادس عشر ..

ثم حول نبرته الحزينة إلى نبرة ساخرة وهو يقول مغتاظًا:

- كدتُ أعرف ما يناديني به المحدقون بي في الحلم .. لولا أنها قتلتني قبل وضوح أصواتهم تمامًا ..

قلت بابتسامتي ذاتها وأنا أحمل معطفي لأسبقه إلى الورشة:

- ستعرف الحلم القادم إذًا ..

لم يستطع عقلي تجاهل ذلك التطور في أحلام آدم، وخاصةً مع التشتت الكبير الذي ارتسم على وجهه طيلة ذلك اليوم، فانتهزتُ فرصة عدم تواجد السيد عبود بالورشة، وأخبرت آدم أنني ذاهبة من أجل شراء بعض الفاكهة من السوق الشرقي، واتجهت إلى الطبيب ذاته الذي فحص آدم قبل ست سنوات حين أصابه ذلك الهياج، وسألته:

- هل يستطيع أحد تذكر حياة حاصد روحه السابقة؟

قال بكل هدوء وثقة:

- لا

قلت:

- ولا في أحلام نومه؟

قال:

- لم تسجّل كتب الطب التي قرأتها حالة مشابهة.

قلتُ:

- وإن حدثت؟ .. ماذا سيحدث إن حمل أحدنا ذكريات حاصد روحه؟

قال:

- سيعيش الجحيم ذاته بين الماضي والحاضر .. سيكون فريسةً للضياع بين مَن يحبهم ويكرههم في حياته الحقيقية ومَن أحبهم وكرههم قديمًا .. ستطيح به أمراض اضطراب النفس إن حُوصر في ذلك الخندق من التخبطات، وإن لم يكن عقله قويًا بما يكفي سيهوي إلى برزخ الجنون لا محالة ..

زاد ما قاله الطبيب من مخاوفي، فقلتُ له بعدما خطرت في بالي فكرة لم أفكر بها من قبل:

- تزورني أحلام غريبة هذا الآونة تشتت أفكاري كثيرًا .. هل هناك أعشاب تجعلني أغط في منامي دون قلق لأصحو بدون تذكر أي شيء منها؟

قال:

- نعم ..

ثم نهض وملأ لي كيسًا قماشيًا صغيرًا بعشب مسحوق كان بأحد الأواني الزجاجية المتراصة على جانب من الغرفة، وقال وهو يناوله لي:

- اخلطيه مع الماء قبل النوم .. سيجعل نومك هادئًا للغاية، إن مفعول هذه الأعشاب سحر حقيقي ..

فقلت وأنا أخرج له كل ما في جيبي من عملات نحاسية:

- اعطني ما يكفيني لمدة شهر كامل.

ففعل ذلك مرحبًا .. ثم شكرتُه وعدت إلى الورشة، قبل أن أعود أنا وآدم إلى البيت بعد انتهاء عملنا، وانتظرت حتى المساء ثم أذبتُ

جرعةً من عشب الطبيب في شرابه الساخن دون أن يدري .. وحين نظرتُ إليه وهو يتجرعه قلتُ في سري:

- سامحني يا آدم .. أعرف أنك سترفض الأمر إن أخبرتك به، لكنني أحبك ولا أريدك أن تخسر عقلك .. لا يتبقى إلا ثلاثة أسابيع على يوم الغفران القادم وإعدام الرامية غفران كما يتوقع الجميع .. ستضمن لك هذه الأعشاب نومًا هادئًا كل ليلة خاليًا من وميض ذكرياتك حتى تمر هذه الأيام، بعدها ستنسى أرض چارتين تلك الرامية للأبد، وبدورها ستنساك في أحلامك، لتكمل حياتك قويًا كما أنت دائمًا، يفتخر بك أهل بريحا جميعهم .. لقد خسرت الجميع على امتداد سنواتي ولا أريد أن أخسرك أنت أيضًا ..

بالفعل نجحت تلك الأعشاب كما قال الطبيب، وإن أصاب الفتى نوعٌ من الخمول أثناء النهار جعل السيد عبود يتذمر منه، لكني كنت أعلم أنه لن يستغني عنه أبدًا، فلم أهتم بذلك كثيرًا ..

وبدأت الأيام تمضي يومًا وراء الآخر نحو يوم غفران ذلك الشهر .. تزداد معها سعادتي بعدما توقفت أحلام آدم عن زيارته خلالها، وتوقعي الكبير بتوقفها تمامًا مع موت رامية المنصة .. وفي ظل فرحتي بمرور الأيام فوجئتُ قبل يوم الغفران بخمسة أيام بأختي تطرق بابي ليلًا بعد نوم آدم .. تعجبتُ حين وجدتها أمامي، وظننتُ أنها استجابت أخيرًا لرسالتي التي أرسلتُها إليها قبل عامين كي تأتي للعيش معي في بريحا، فاحتضنتها بشوقٍ كبير، وأدخلتها إلى الداخل على الفور، وقبل أن أنطق بأي شيءٍ عندما جلسنا إلى الطاولة وجدتها تتلفت حولها وتقول هامسةً:

- لقد ظهر والدنا من جديد ..

تعجبتُ وتساءلتُ إليها غير مصدقة:

- والدنا؟! .. إن كان حيًا لكان عمره خمسة وسبعين عامًا الآن ..

وأردفتُ بعد لحظة بالتعجب ذاته:

- هل اُعتقل ليُعدم على المنصة بعد كل هذه السنوات؟!

هزّت رأسها نافية في توتر، وقالت:

- أخبرني أحد أقاربنا من جنود جويدا أنه من قدّم نفسه إلى الفارس كيوان .. وعلى عكس المتوقع لم يقدمه الفارس كيوان إلى القاضي لمحاكمته بل جعل كبار أطباء جويدا يشرفون على علاجه في اهتمامٍ كبير ..

تساءلتُ باستغراب:

- ولماذا يتغاضى الفارس كيوان عن جريمته باختراق القاعدة الأولى؟

قالت هامسةً وهي تقرّب رأسها مني:

- يظن الرجل أن أبانا لديه ما يقايض به سادة چارتين مقابل تبرئته وتبرئة نسله من تلك الجريمة ..



(١٧)

غفران

كنت أقف أمام كوخي أنظر إلى العربة التي ستحمل سبيل وفاضل إلى جويدا ولا تدور في رأسي إلا كلمات كوابيسي القديمة؛ «كُتب عليكِ الوحدة»، وإن كان جانبًا بداخلي رأى بكل واقعية أن ما حدث لهما هو أفضل ما قد نحصل عليه طبقًا لما صار في الفترة الأخيرة.

ثم تحركت العربة وعيني مُعلقة بأعين الطبيب إلى أن اختفت عن أنظاري، فعدتُ إلى غرفتي وجلست على سريري شاردة في أفكاري، قبل أن أنهض وأقوم بتعليق قطعة خشبية مطلية بالأسود من التي نستخدمها في المدرسة على الجدار أمامي، وقسّمتها إلى خانات بالطبشور الصخري الأبيض، ثم كتبتُ بالخانة الأولى اسمي، ومن أسفله خمسة وثلاثون عامًا .. وفي الخانة الثانية كتبتُ حيدر الطفل، ومن أسفله يوم واحد .. وفي الخانة الثالثة كتبت آدم، ومن أسفله عشرة أعوام، وحدثتُ نفسي باسمةً حين انتهيت ونظرت إلى أعمارنا:

– لو كنت لا أزال شريفة لكنت قد ذهبت إلى وادي حوران مع بلوغ آدم سن الزواج ..

وقبل أن أضع الطبشور جانبًا وجدتُ نفسي أضيف خانةً رابعة كتبتُ فيها «كيوان»، ومن أسفله كتبت ثمانية وثلاثون عامًا .. ثم عدت إلى سريري وجلستُ أنظر إلى تلك الخانات حتى أغمضت عيني.

في اليوم التالي وجدتُ الكتاب الذي تحدث عنه فاضل في عيادته، تصفحتُ أوراقه سريعًا حتى وصلتُ إلى الصفحات المكتوبة عن نمور الشامو الجبلية، كانت مثلما قال لي قبل رحيله تحكي باستفاضة عن الصفات التي تميّزت بها تلك النمور من قوة افتراس وسرعة وذكاء، وأفردت صفحة كاملة عن حب الملوك القدامى لتربيتها لوفائها الشديد لمحبيها، كذلك انتقامها العنيف بغير رحمة ممن يؤذونها، وقتها جال في بالي قصة العجوز عن زوجة الملك التي كاد يفترسها النمر على منصة الباحة، وعندما خطرت إلى ذهني كلمات الطبيب حين قال أن آدم سيعود من أجلي همستُ إلى نفسي بابتسامة حزينة وأنا أتذكر ما فعلته بنديم:

- بل سيعود ليقتص مني، أيها الطبيب ..

ثم أخذت الكتاب إلى كوخي، وهناك سألتني ناردين عندما لاحظت أن عدد الحاضرين من الأطفال لم يزد بعدما انتقلت سبيل للعيش بين الأشراف وظل كما هو لا يتجاوز عشرة أفراد:

- ماذا سنفعل سيدتي؟

فابتسمت وقلت:

- سنكمل ما نفعله.

قالت بنبرة محبطة وهي تنظر إلى الأطفال:

- حتى هؤلاء سيتركوننا بمجرد أن يشبّوا، مثل غيرهم ..

قلت باسمة:

- إنهم وإن ضلّوا سيهديهم تعليم عقولهم من جديد .. لنكمل يا صديقتي إلى أن تفارق أرواحنا أجسادنا.

أومأت برأسها مبتسمة، وبالفعل واصلنا دروسنا إلى الأطفال أنا ونادرين فيما تكفّل ريان بتوفير ما يعيننا على مرور الأيام من طعام من خير الأرض الخصبة بجوار الوادي وأقراص العسل بكهوف الجبال القريبة.

فرحتُ كثيرًا عندما عرفت بصعود سبيل بطفلها على منصة الباحة ليصبح حيدر الصغير على مرأى من أعين الأشراف جميعهم، وتمنيتُ لو رآها النسالى هناك لكنهم مُنعوا ذلك اليوم من دخول جويدا حتى، كنت أعرف كذلك أن كيوان سيمنعها عن زيارتنا أو من تواصلها بالنسالى، فتقبلت ذلك بصدر رحب يؤمن بأن بقاءها حية هي وطفلها هو في حد ذاته نصرٌ كبير لنا ..

في تلك الأيام اتجه جنود الأشراف إلى مطاردة شبان النسالى الذين عبروا الخامسة والعشرين وإن لم يرتكبوا أي جرم كأن بلوغهم سن الزواج كان الجريمة التي ارتكبوها، فغادر معظمهم عن وادينا، فآثرتُ بعد نقاش طويل مع ريان الذي ظل يختبئ ليالٍ كثيرة في الكهوف القريبة من الوادي بأن يبتعد عن وادينا هو الآخر لئلا يؤذيه

كيوان، وبعد رفض مُطلق مثل الطبيب، انصاع إلى رغبتي في نهاية الأمر بعدما وعدتُه بأنني سأبقى بخير .. وبهذا فقدت جناحي الثالث في غضون أيام قليلة ولم يتبقَ لمعاونتي إلا ناردين التي تحملت معي شئون المدرسة صباحًا وجمع أقراص العسل وبعض الثمار من الوادي الخصب المجاور مساءً، وأحيانًا سؤال بعض الفتيات اللاتي يترددن إلى جويدا إن كنّ قد رأين سبيل أو سمعن أخبارًا عنها.

مع مرور كل اثني عشر يومًا للغفران كنت أضيف لسنوات أعمارنا على القطعة الخشبية في غرفتي عامًا واحدًا، وعندما أتم حيدر الصغير عامين زاد متنفس وادينا قليلًا بعدما انشغل عنا كيوان بمنصبه الجديد، لكني عرفتُ من إحدى النسليات بما حدث لسبيل والمعاناة التي عانتها في شوارع جويدا، فكلّفت أحد الشبان الشجعان ممن كانوا يتعلمون معي قبل سنوات بحمل حصص من طعامنا إليها في أوقات الليل، كنت أعلم أنها ستعرف أنها منا وأننا سنكون دعمًا لها لإكمال هدفها، ثم عرفتُ أن أحد الأشراف قد وفّر لها عملًا فاطمئن قلبي قليلًا.

لم يحدث جديد خلال الأشهر الكثيرة المتتالية بعد ذلك، الطلاب وكانوا يزيدون أحيانًا وأحايين أخرى يقلّون، والحانات كما هي تصدح بالموسيقا طوال الليل بين ضحكات سكارى الأشراف .. والفتيات اللاتي وجدن سبيل كسبهن هناك، والإعدامات التي كانت تطول مَن يعتقله الجنود لسبب أو بدون سبب، والنسليات الحوامل الذاهبات كل يوم غفران إلى الباحة. أوقات كثيرة كانت مخيلتي تذهب إلى عد الأيام إلى بلوغ آدم عامه

السادس عشر، فأجد نفسي أعيد فتح كتاب الطبيب الذي تركه لي لأقرأ الصفحات الخاصة بنمور الشامو من جديد، وأعيش بين خيالاتي بتذكره لي وعودته إلى الوادي شابًا يشبه نديم في كل شيء .. لم أتمنَ قط أن يعود ثائرًا بروحه، أردت أن يعود كما هو .. شابًا قويًا يكمل معي الطريق في بناء عقول القادمين من النسالى. كذلك كنت أشتاق كثيرًا إلى الطبيب وجلسات نقاشنا سويًا كما هو الحال مع ريان الذي انقطع عن زياراته الخفية لي فجأة، لم يقبل عقلي أن يفكّر في احتمالية موته أثناء هروبه من إحدى دوريات خيالة الأشراف، وظللتُ متمسكة بأمل زيارته لي في إحدى الليالي القريبة ليحكي لي سبب اختفائه المفاجئ .. لتمضي الأيام جميعها على هذا النحو وأبلغ عامي الأول بعد الأربعين في وقت كنت أشعر داخل نفسي بأنني تجاوزت المائة عام بعدما بدأت الأحلامُ تذبل بداخلي.

في ذلك العام ترقّى كيوان ليصبح كبير ضباط چارتين في عمره الرابع والأربعين .. تمنيتُ لو انقضت السنوات الست الباقية على بلوغه الخمسين سريعًا لنرتاح من شره، لكن ما حدث أنه عيّن ضابطًا شابًا ليختص بشئون النسالى كان يشبهه في طباعه وغلظته إلى حد كبير، وكأنه أراد أن يبلغنا أن هذه الدائرة لن تنتهي أبدًا حتى تفنى الحياة على الأرض.

منذ بداية ذلك العام وبدأ ذهني ينشغل لا إراديًا بكل ما يحدث في جويدا، ووجدتُ نفسي أذهب بين الحين والآخر إلى حانات الوادي وسط دهشة كبرى من ناردين ومَن يرونني هناك، لأستمع إلى الأحاديث التي تتناقلها ألسنة فتيات الرذيلة دون أن ألقي سؤالًا واحدًا، كنت أعرف أن خبر سماع صوت زئير واحد في أي مدينة بمدن چارتين سيصير في سرعة البرق حديث الألسنة جميعها هناك، وإن

كنت ألوم نفسي كثيرًا لتعلقي كل هذه السنوات بوهم رجوع آدم الذي حتى وإن عاد لن يكون نديم أبدًا .. وأظل أكرر تساؤلاتي إلى نفسي لعلّها تقتنع بعدم عودته:

- ماذا سيعيده إلينا إن كان قد عاش بين الأشراف وتجرّع كراهية النسالى بينهم، وما الذي سيجعل روحه تثور من الأساس إن لم يعانِ من الضغط الذي عاناه نديم؟ ..

لكني كنت أجد نفسي أفعلها مجددًا وأذهب إلى الحانات في انتظار خبر سماع ذلك الزئير .. وبين انتظاري لأي خبر آتٍ من مدن الأشراف، وبين أوهامي بأن أجده ذات يوم يدقّ بابي ليحتضنني بعد كل هذا الغياب، وجدتُ سبيل تعود إليّ تلك الليلة لتخبرني عن ظهور ذلك العجوز «خُشيب» مرة أخرى، تساءلتُ إليها في خوف:

- ألم يمت؟!!

هزّت رأسها نفيًا، وأضافت بتجهم كبير:

- رأيتُ الجنود يمسكون به ويجرّونه نحو دار الأمن فيما كان يصرخ إليهم بأنه جاء لمقابلة الفارس كيوان بنفسه ..

وجدتُ فخذيّ تهتزان من الرعشة التي سرت فيهما، وقلت:

- حين يعلم كيوان بما لديه لن يتأخر عن قتل طفلك، وقتلكِ أنتِ أيضًا، وقتلي، وقد يرسل من يقتل الطبيب في الشمال .. قبل أن يقتل النسالى جميعهم ..

قالت:

- لذا جئت إليكِ سيدتي .. من حسن حظنا أن السيد كيوان في زيارة إلى مدينة أخرى ولم يلتقِ العجوز إلى الآن ..

وتساءلَت بحنق شديد:

- لماذا يظهر ذلك الرجل في هذا التوقيت؟! .. لماذا انتظر كل تلك السنوات؟!

قلت:

- يريد هذا المجنون الانتقام مني ومن الأشراف في وقت واحد .. ارتكب الطبيب خطأً كبيرًا عندما أخبره بأن آدم الذي يحمل روح الشامو كان لديه عشرة أعوام حينها .. إن هذا العام أنسب توقيت له لتنفيذ ما خطط له .. آدم وقد بلغ السادسة عشر، وكيوان الأهوج وقد صار أمن چارتين بأكمله بين يديه .. سيشرع كيوان في قتل النسالى بمجرد أن يزور ذلك الكهف ويتأكد من مُختصي النقوش القديمة بقِدم تلك النقوش والجداريات وصحتها .. وسينتظر ذلك الرجل أن تثور روح آدم ليستنفر الباقين ليردوا عدوان الأشراف المميت لتصبح حربًا لن ينجو منها أحد ..

وتابعتُ بعدما صمتُّ لهنيهة:

- إنّ هذا الرجل نذلٌ كبير .. سيقدّم ما يعرفه إلى كيوان مطالبًا بإخضاعه للقاعدة التي تعفي المذنبين من جرائمهم إن حموا أرض چارتين، لن يلتفت كيوان بطيشه إلى الخبث الذي يكنّه ذاك الرجل ، سيظن أنه يريد فحسب التكفير عن ذنبه .. قد يبرئه فعلًا من جُرمه باجتياز القاعدة الأولى إن دلّه على

مكان الكهف، وقد يقدّمه كبطلٍ إلى أهل چارتين ..

ثم سألتها:

- متى يعود كيوان إلى جويدا؟

قالت:

- لا أعرف..

كان عقلي متوترًا للغاية وأنا أقول:

- إن الدماء آتية لا محالة .. أفسد ذلك الرجل كل الأمور فجأة..

ووسط تفكيري المشوش وتجمد عقلي وجدتُ سبيل تقول بلهجة جافة كنت أسمعها منها للمرة الأولى:

- وماذا إن لم تثر أرواح الضواري بداخل النسالى ليردّوا على ماسيفعله كيوان؟ .. ماذا إن لم يكن هناك آدم أصلًا ليستنفرهم؟

نظرتُ نحوها وزممتُ شفتي وسكتُّ، لم تكن تحتاج إلى إجابتي، فقالت:

- هل نقدّم رقابنا بهذه السهولة سيدتي؟

نظرتُ نحوها في دهشة من اللهجة التي تحدثت بها، وتساءلتُ داخل نفسي:

- أتكون السنوات الست التي قضتها بين الأشراف قد غيّرت بداخلها إلى هذا الحد؟!

فقالت مضيفة باللهجة ذاتها:

- سيقتلني كيوان أنا وطفلي بمجرد معرفته بشأن ذلك العهد الدموي، وإن قتلني أمام أشراف چارتين جميعهم. سيهللون لمقتلنا لا أكثر، وسينسوننا قبل أن يعودوا إلى بيوتهم .. لقد عرفتُ ما بداخلهم تجاهنا. إننا نسالى وسنظل حيواناتهم مهما فعلنا سيدتي ..

سألتُها في استغراب شديد في تشكك مما تفكر به:

- هل ستفعلينها؟!

صمتت لثانية، وقالت:

- سأترك لهم الخيار أولًا .. إن ارتكب كيوان هذا الخطأ سأعاقبه هذه المرة .. لن أعود إلى جويدا سيدتي .. ربما حلمتُ كثيرًا بأن أصبح أنا وطفلي شريفين، لكننا تجرعنا ما لا يُطاق خلال تلك السنوات هناك ..

وتابعت بعدما أخرجت زفيرًا هادئًا:

- لكن يحسب لها أنها غيّرت الكثير بداخلي ..

وأضافت:

- أعرف واديًا بعيدًا لا يتجاوز سكانه العشرات من الرحالة النسالى .. لا أعتقد أن كيوان وجنوده يعرفون عنه شيئًا، سآخذ حيدر إلى هناك .. أريدكِ أن تأتي معي، لن يتركِكِ كيوان هذه المرة.

فابتسمتُ إليها وقلت:

- لم أعتد الهروب يا صغيرتي .. سأبقى هنا .. اهتمي بأمركِ أنتِ وحيدر هناك ..

ثم وجدتني أقول بعدما فكرتُ فيما سيفعله كيوان بمجرد أن يستمع إلى العجوز:

- لن تستطيعي الاقتراب بطفلك من الكهف بعد معرفة كيوان بأمره .. سيحاصره جنوده من كل جانب.. وسيقتل كل نسلي يقترب منه على مسافة ميل.

فابتسمت لي سبيل وقالت:

- لستُ في حاجة للذهاب إلى هناك سيدتي .. أدرك الطبيب فاضل أن هذا الأمر سيحدث قبل ستة أعوام.



(١٨)

غفران

تساءلتُ في دهشة كبيرة:

- ماذا أدرك الطبيب قبل ستِ سنوات؟!

قالت سبيل:

- يبدو أنه عرف أن ذلك العجوز سينجو من نزيف فخذه .. وتوقّع بأنه سيفعل ما ينوي فعله الآن، فوجدتُه يقول لي هامسًا يوم حملتنا العربة سويًا إلى جويدا؛ إن أغضبوكِ فاذهبي إلى قبر حيدر لتنتقمي منهم ..

أدركتُ لحظتها أنه نقل تمثال النسلي الزائر إلى قبر حيدر القابع بين قبور قتلانا .. ومع كل اشتداد للمعاناة التي عانيتها في جويدا كانت كلماته تقفز إلى رأسي .. لكني كنت أصبر من أجل يوم ينسى فيه الأشراف أصلنا .. ويعاملون طفلي كواحد منهم ..

سكتُّ مفكرة للحظات متشككة مما قالته، أو تحديدًا مما فهمته من كلام الطبيب، ثم قلت:

- هل تأكدتِ من ذلك؟!

أومأت برأسها نافية، وقالت:

- لا .. لكني حين لمّحت له إن كان ما فهمته صحيحًا .. ابتسم لي وهو يومئ برأسه قبل أن يغادر مع الجنود ..

أعتقد أنني أعرف تفكير الطبيب فاضل جيدًا، وأنا متأكدة أنه عنى ذلك حقًا ..

قلت وأنا أتذكر الأيام التي كان يغيب بها قُبيل ولادة حيدر بحجة ذهابه إلى بعض الوديان الأخرى لمداواة مرضاهم:

- لنتأكد من ذلك إذًا ..

ثم تركنا حيدر الصغير مع ناردين، وحملتُ مصباحًا زيتيًا ومعوّل وجاروف حديديين كانا يخصّان ريان، وذهبنا إلى مقابر النسالى تغطي سبيل رأسها بقلنسوة معطف ثقيل، إلى أن وصلنا هناك.

لم تأخذ سبيل لحظة في التعرف على قبر زوجها، فاتجهنا إليه مباشرة، ثم بدأتُ أحفر رماله بالمعول والجاروف بينما أمسكت سبيل بالمصباح .. وبعد جهد كبير بلغتُ عمقًا كافيًا ليصدر الجاروف الحديدي رنينًا مختلفًا بعدما ضرب شيئًا بأسفله .. قرّبت سبيل المصباح إلى داخل الحفرة، كانت إحدى عظام جثة زوجها التي تهشمت من الضربة، لاحظتُ أن سبيل أجفلت حين أزلتُ بيدي التراب عنها وظهرت معها عظامًا أخرى وضلوع قفصه الصدري،

فيما بدأتُ أتيقن أن سبيل قد أساءت فهم كلمات الطبيب .. لكني أكملت حفري على امتداد القبر ناحية عظام الساقين دون أن أصنع مزيدًا من العمق، وخاصةً بعدما تحسستُ بيدي الرمال أسفل العظام ووجدت ملمسها رمليًا لا يوحي بوجود شيء صلب بأسفلها، قالت سبيل بإحباط وهي تجلس مقرفصةً تنظر إلى العظام:

- يبدو أن الطبيب قصد شيئًا آخر ..

قلت وأنا أنخر بسن الجاروف الرمال التي تغطي نصف الجثة السفلي:

- لو قال لك ذلك لقصده بالفعل .. لكننا على الأقل عرفنا أنه لم يعنِ أنه أَتى بالتمثال بأكمله.

ثم توقفتُ عن حديثي عندما ارتطم سن الجاروف بشيء صلب، فقالت سبيل متسائلة:

- هل وجدتِه؟!

قلت وأنا أحرك الجاروف للداخل والخارج ليحتك برفق بذلك الشيء:

- غالبًا ..

ثم بدأتُ أزيل على نحوٍ سريع الرمال التي تغطيه لتظهر أنف رأس التمثال .. هبطت معي سبيل إلى الحفرة، وثبتت قدميها بحرص بعيدًا عن العظام من أسفلها، وبدأت تزيل بيدها الرمال إلى جانبي القبر فيما خلخلتُ بيدي الرأس يمينًا ويسارًا إلى أن اقتلعتُه .. فقلت وأنا أنظر إلى وجه التمثال الزائر:

- يبدو أن هذا الطبيب وُلد في بلده ليغيّر مصير النسالى في چارتين .. تارةً ينقذ آدم بعد موت أمه قبل أن تضعه، وتارةً أخرى يحمل صخور حوران بعيدًا عن أيدي كيوان.

حفرتُ مزيدًا من الرمال، لم أجد أي صخور أخرى .. قالت سبيل وأنا أضع الجاروف جانبًا:

- إن صدق ذلك العجوز بأن ذلك التمثال صُنع من صخور حوران سيفي هذا الرأس بالغرض ..

فقلت:

- هل لا زلتِ تودّين فعلها حقًا؟

قالت وهي تمسح بيدها الرمال عن رأس التمثال:

- سيقتلنا كيوان على أي حال سيدتي ..

وأضافت بعد لحظة من الصمت:

- سأكون ردة فعل لا أكثر .. أتمنى أن يسجن العجوز ولا يصدّقه .. أعدك أنني لن أفعل شيئًا وقتها .. أما إن تركته يقتل النسالى جميعهم خوفًا من إيقاظ الأرواح بداخلهم، فسكوتنا سيكون الخيانة الكبرى لأهلنا .. هيا، علينا أن نعود إلى الوادي، لا بد أن أرحل في أسرع وقت ..

ردمنا القبر مرة أخرى على نحو سريع، ثم عدنا بثيابنا المُتربة إلى الوادي تضع سبيل رأس التمثال أسفل معطفها المتسع، إلى أن وصلنا الكوخ فوضعته بين أغراضها، وقبل أن تغادر قالت لي:

- إن أخاكِ من آواني في بيته .. إنه طيبٌ مثلكِ، ويعرف دائمًا أخباركِ .. إن جاءتكِ فرصة ذات يوم لمسامحته فلا تتأخري في ذلك سيدتي.

تفاجأت مما قالته .. كان ذلك أسعد الأخبار التي أسمعها منذ وقت طويل، فسألتُها:

- هل هو بخير؟

قالت وهي تغادر:

- في أفضل حال سيدتي .. إنه من الصالحين الذين تحدثتِ عن وجودهم بين الأشراف.

فقلت:

- فلتفكري فيه إذًا قبل أن تأخذي ذلك القرار ..

قالت:

- سأفعل بكل تأكيد ..

ثم حملت طفلها وحقيبتها التي تحتوي رأس التمثال واحتضنتني ثم احتضنت ناردين لتغادرنا .. وتتركني أعيش بين مخاوفي وأنا أتخيّل الحوار الذي يدور بين العجوز الخبيث وكيوان، قبل أن ترى مخيلتي كيوان وهو يلمس بيده المخطوطات التي يملكها العجوز .. ويمرّر يده على الجداريات والكلمات التي دوّنتها جدران الكهف ليأخذ قرارًا كفيلًا بمقتل عشرات الآلاف من الأبرياء في آن واحد .. وبدأتُ أعد الأيام في انتظار قدوم فرسان الأشراف إلى الوادي بحثًا

عن سبيل وطفلها، ينتابني الخوف الأشد في حياتي كلها، حتى أنني لم أستطع تقديم دروسي إلى الأطفال ولو لمرة واحدة منذ زارتني الفتاة .. كنت فقط أجلس في غرفتي أنظر إلى أعمارنا المُدوّنة على القطعة الخشبية .. والستة عشر عامًا التي وصلها آدم .. ونفسي تحدثني أن نهاية چارتين التي لم أتمناها قط قد أوشكت على الحدوث .. سألتُ ناردين إن كانت تعرف واديًا بعيدًا لتختبئ فيه تلك الأيام .. سألتني باندهاش عن السبب، فقلت إن عاصفة من الدماء قادمة ستطيح بالجميع .. فابتسمت وقالت:

- لقد مررنا بالكثير سيدتي .. لا أعرف مكانًا آخر، وإن كنت أعرف حتى .. فهنا مكاني.

كنت كل مساء في تلك الأيام أنظر بعيدًا نحو مدخل الوادي في انتظار قدوم الأشراف في أي لحظة .. فيما أرى ضحكات النسالى وهم يسيرون جيئة وذهابًا، لا يعلمون ما هو آت .. تمنيتُ فقط أن يكون ما فعلتُه معهم في السنوات الماضية قد يُجدي نفعًا إن ثارت أرواحهم ..

ثم حدث ما انتظرته لستة أيام .. ووجدتُ الطلقات النارية تدوي في سماء الوادي بكثرة لم نعهدها من قبل، ووجدتُ مجموعة من الخيالة يقتحمون شوارع الوادي ظهرًا مثلما حدث من قبل .. لكنهم كانوا جميعًا في طريقهم مباشرة إلى كوخي .. كان يقودهم الفارس الشاب الذي عيّنه كيوان، والذي ترجّل عن حصانه قبلهم وتقدّم إليّ وسألني بحدةٍ دون مقدمات:

- أين الفتاة وطفلها؟

قلت:

- أي فتاة؟!

فوجئتُ به يصفع وجهي صفعةً أسالت الدماء من وجهي، وأشار إلى جنوده بالبحث عن الفتاة في كل أرجاء الوادي .. ثم دخل إلى كهفي ليفتّشه بنفسه، كنت أعرف أنه سيبحث عن رأس تمثال النسلي ظنًا منه أنني أخذته .. ثم خرج إليّ وفي يده كتاب الحيوانات المنقرضة، بعدها أشار إلى أحد جنوده دون أن ينطق، فقام الجندي بتكبيل يديّ وقدميّ بغلظة .. وكذلك قام جندي آخر بتكبيل ناردين، قبل أن يُغطى رأسي بغطاء قماشي أسود حجب عن عيني الرؤية، ويدفعني أحدهم عنوةً إلى إحدى العربات التي حملتني إلى جويدا.

تم اقتيادي إلى زنزانة ضيقة كنت أعرف أنها في سجن جويدا الذي ذرعتُ درجاته قديمًا عديد المرات، وهناك كشف السجّان عن رأسي الغطاء الأسود قبل أن يُغلق الباب الحديدي من خلفه دون أن ينزع الأغلال عن يدي أو قدمي .. اقتربتُ من باب الزنزانة وناديتُ بأعلى صوت:

- ناردين .. ناردين ..

لكن أحدًا لم يجبني قط.

مكثتُ في زنزانتي لا أستطيع عد الأيام أبدًا بعدما كان ظلامها لا يفرّق بين الليل والنهار وكأنهم اعتبروني من أشد المجرمين خطورةً، والذين أُعدت من أجلهم الزنازين السفلية المصمتة الجدران، لكني

انتبهت مع الوقت إلى الوجبة الواحدة التي يدفعها لي السجان عبر فتحة صغيرة بباب الزنزانة الحديدي .. لأعتمد عليها في عدّ أيامي.. وبين اشتعال ذهني بضجيج أسئلته، كنت أقف وراء الباب حين أسمع جلبة أقدام الحارس لألقي أسئلتي إليه:

- هل حدث شيء في الجنوب أيها الشاب؟!

- هل تحرك الفارس كيوان بأسلحته الثقيلة؟!

لكنه لم يُسمعني صوته قط.

وبدأت الأيام تمر تباعًا حتى تجاوزت يوم الغفران لذلك الشهر وفق حسبتي للأيام، ولم أُقدّم إلى القاضي الذي كان سيحكم بإعدامي بالطبع .. لم أكن أعلم أي جريمة سيقولون أنني ارتكبتُها، لكن ما أسهل ذلك الأمر في چارتين .. ليستمر مرور الأيام وأنا ماكثة بين ظلام الجدران، إلى أن مر شهر آخر ويوم غفران جديد دون أن يُفتح باب زنزانتي .. كنت على ثقة أن الإبقاء عليّ حية كل هذا الوقت يعني أن كيوان لم يعثر على سبيل ويخشى حقًا أن تقوم بإيقاظ أرواح الضواري داخل النسالى .. وفكرتُ في أنه يستخدم حبسي كأداة ضغط على الفتاة من أجل أن تظهر من جديد .. أو ربما تركني لأكون ورقته الرابحة إن ثارت روح آدم .. وربما تركني لأفقد أعصابي بين تلك الجدران المظلمة فأعلن له هزيمتي وانهياري وأخبره بمكان الفتاة .. فكرتُ في ذلك الأمر بعدما مر يوم الغفران الثالث دون أن يظهر لي شخص واحد أتحدث إليه .. خشيتُ حقًا أن ينجح فيما ينوي فعله تجاهي بعدما اضطرب نومي للغاية ولازمني الأرق لأيام متتالية دون لحظة نوم واحدة من كثرة التفكير، حتى وجدتُ نفسي أصرخ إلى الحارس بأسئلتي من جديد .. قبل أن أصرخ إلى الفراغ بأعلى صوت:

« ناردين .. ريان .. فاضل .. نديم .. سبيل ..». قبل أن أسقط إلى الأرض وأواصل نداءاتي بأسمائهم بصوت ضعيف متعب ..

بعد أيام من الشهر الثالث توقفتُ عن عد الأيام، ثم مرت أيام أخرى قبل أن أسمع وأنا نائمة على الأرض من الوهن الذي أصاب جسدي وقعَ أقدام تقترب من باب زنزانتي .. لم أنهض عن نومتي عندما فُتح باب زنزانتي ظنًا مني أنها هلاوس يتخيلها عقلي، إلى أن وجدتُ كيوان يظهر أمامي متقدمًا بخطوات عن مساعديه .. نهضتُ عن نومتي، وجلستُ أنظر في عين كيوان الذي أمر الحارس بإغلاق الباب من خلفه، ثم هبط على ركبته أمامي وقال:

- أين اختفت الفتاة وطفلها؟

أكملتُ تحديقي به دون أن أقول شيئًا كأن غيامةً غطت عقلي .. قبل أن يصرخ إليّ بسؤاله مرة ثانية، فتنبهتُ إلى ما قاله، فقلت:

- لا أعرف.. لو أكرمتموها مرة واحدة بينكم لما فعلت ذلك.

قال:

- أين بقية تمثال النسلي؟

هززتُ رأسي نافيةً بجفون شبه متساقطة دون أن أنطق .. فقال:

- أتظنين أنهم سينقذونكِ؟.. إنهم هناك يرقصون في حاناتهم لا يفكر أحدهم فيكِ ..

نظرتُ إلى مشبك الرامي الفضي المُعلّق بصدر سترته، فتابع:

- لقد أضعتِ عمركِ بينهم، وأعدكِ بأنني سأمحو كل ما يتعلق بكِ هناك مثلما مَحوّتُ كل ما يتعلق بكِ في جويدا .. لن يذكركِ أحَد بعد موتك.

وأضاف بنبرة حادة:

- سينتهي أخي من تصنيع قذائفه قريبًا .. سأقتل كل البالغين بينهم .. سأقتل أطفالهم .. لن أترك أحدًا ينجو هذه المرة.

ابتسمتُ وقلت:

- أترى ما الممتع في هذا الأمر؟ .. أنني أشمُّ رائحة خوفك.

قال:

- حسنًا، تمتعي بما يكفيكِ من خوفي .. سأحدّد يوم الغفران القادم موعدًا لإعدامكِ بتهمة اختطاف الفتاة وطفلها .. سأكون أنا الرامي يومها ليكون وجهي آخر مَن ترينه .. وليأتوا لينقذوكِ من بين يدي ..

وقبّل أطراف إصبعيه السبابة والوسطى ثم لامس بهما منتصف جبهتي، وقال ببرود بالغ:

- سأرسل طلقتي النارية إليكِ كقُبلة ..

بعدها وقف ونادى على السجّان بصوت غاضب كي يفتح الباب، قبل أن يلتفت إليّ مرة أخرى قُبيل مغادرته ويسألني كأنه تذكر شيئًا:

- قال العجوز بأنكِ تعلمين أمر ذلك الكهف قبل ستة أعوام .. لماذا لم تفعليها وتقتلي الطفل هناك لتنتقمي مما فعلته بكِ كل

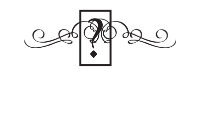
هذه السنوات؟

قلت:

- لأنني لست مثلك.

أومأ برأسه دون أن يقول شيئًا، ثم غادر تجاه مساعديه، فنهضتُ لأقف وأنظر إلى الفتى الذي لا يرتدي ثياب الأمن بينهم والذي كان ينظر نحوي هو الآخر .. قبل أن يُغلق الباب ويحلّ الظلام مجددًا .. فجلستُ وأسندتُ ظهري إلى الحائط، وأغمضتُ عيني وتمتمتُ إلى نفسي هامسةً حين وجدتُ أنفاسي تتسارع خوفًا:

- لا تخافي أيتها الفتاة .. ستعودين إلى صديقتك القديمة ومنصتها فحسب .. لا يخذل الأصدقاء بعضهم أبدًا.



(١٩)

زهير

تسمرت قدماي وتجمد الدم في عروقي عندما سمعتُ والدي يقول لأمي بأن الأوامر قد صدرت بإبادة النسالى وأن هناك قذائف مدفعية سيصنّعها في جويدا من أجل ذلك، وكأن لسان أمي قد تسمّر هو الآخر وجدتُها قد توقفت عن الكلام، ولم تنطق بكلمة واحدة كأنها بوغتت مما قاله أبي، ثم سمعتُ أصوات وقع أقدام أحدهما في الغرفة تقترب من الباب، فانسللتُ مسرعًا على أطراف أصابعي إلى غرفتي حيث لم أعرف للنوم طعمًا قط في تلك الليلة.

في صباح اليوم التالي رحلنا عن بريحا في موكبٍ صغير .. كنت مع أمي وأخويّ في عربة واحدة فيما ركب أبيً مع عمي في عربةٍ أخرى كانت تسير أمامنا، ورافق طريقنا عددٌ من الفرسانٍ انقسموا إلى مجموعتين إحداهما تسبقنا وأخرى تتبعنا. ظلّ الشرود منطبعًا على وجه أمي طوال الطريق ولم تحرك عينها عن الفراغ الممتد خارج نافذة العربة، وبينما انشغل أخواي بأحاديثهما

التافهة .. جلستُ أراقب تعبيرات وجهها وأنا أحاول الإمساك بلساني بكل طاقتي بعدما كادت الكلمات تقفز منه للاستفسار عمّا إن كان أبي قد حدّثها عن السبب الذي ينوي عمي من أجله إبادة النسالى وإن كان يعني بالإبادة معناها الحرفي .. أن يُقتل جميع النسالى؟ .. وأن تصير چارتين بلا نسالى للمرة الأولى في التاريخ، ووددتُ لو تركتُ تلك العربة وانتقلتُ إلى عربة عمي وأبي، كنت متأكدًا أنهما سيتحدثان بخصوص ذلك الأمر طوال الطريق .. وحدثتُ نفسي مغتاظًا:

- لقد كبرتُ بما يكفي وأستطيع المشاركة في المناقشات الهامة وإبداء رأيي ..

ثم تذكرتُ صوت أبي وهو يتحدث عن القذائف التي سيصنّعها .. فحدثتُ نفسي مستثارًا:

- ألف قذيفة مدفعية؟! .. إن القذيفة الواحدة تستطيع تدمير نصف بريحا بما فيها من بيوت وبشر .. إنني لمحظوظ حقًا أن أعيش هذه اللحظات في تاريخ بلادي ..

ثم عدتُ وسألت نفسي:

- ولكن ما الذي فعله النسالى من أجل حكم بالإعدام على الجميع؟! ..

وظللتُ شاردًا بأسئلتي إلى أن غلبني النعاس بعدما لم أذق النوم الليلة الماضية، ولم أنهض إلا مع وصولنا جويدا.



بعد يوم واحد من الراحة، كنت قد انتظمتُ أنا وأخواي في المدرسة المتوسطة هناك .. كان الجميع هناك لا يتحدثون إلا عن استنفار الجنود في جويدا بالأيام الأخيرة بصورة مُبالغ فيها .. حتى أن بعض زملاء صفي الجدد سألوني عندما عرفوا أنني ابن أخ الفارس كيوان إن كان هناك شيء ما يحدث وأعرفه، لكنني أخبرتهم بكل صدق أنني مثلي مثلهم لا أعرف شيئًا ثم عرفتُ من بعض الثرثارين أن الشائعات تنتشر إلى حد كبير جدًا خاصةً الشائعة التي سرت بعد اختفاء النسلية التي صارت شريفة وطفلها الشريف صاحب الستة أعوام بأن النسالى هم مَن اختطفوها، وأن ذلك الاستنفار جاء من أجل إعادة الطفل وأمه، وأن هناك إعدامات بالجملة ستحدث قريبًا في أيام الغفران القادمة عقابًا لهم على ذلك الجُرم، لم أنطق لأحد بما سمعتُه من أبي وأكدتُ لهم عدم معرفتي بأي شيء وعدتُ إلى بيتي تشتعل رأسي بأسئلتها التي كانت تتزايد كل يوم عن اليوم الذي يسبقه، ثم سألتُ أمي بصوت خفيض عندما وجدتها تجلس بمفردها:

- هل سيبيد عمي النسالى حقًا؟!

نظرت نحوي متفاجئة من سؤالي، وبحاجبين معقودين سألتني في ارتباك:

- من قال لك هذا؟

قلتُ بخجل:

- سمعتُ أبي يتحدث إليكِ ليلة رحيلنا عن بريحا، وأنا في طريقي إلى دورة المياه ..

سكتت للحظة ثم قالت بوجه جامد:

- لا أعرف شيئًا عن هذا الأمر .. إنني لا أتدخل في عمل أبيك، كما يجب أن تفعل ذلك أيضًا ..

وأضافت محذرة:

- لا تخبر أباك أنك قد سمعت شيئًا لا يخصك حتى لا يغضب منك ويعاقبك .. وأنا لن أخبره بما قلته.

قلتُ:

- إنني أريد معرفة الحقيقة فحسب .. لم أعد صغيرًا يا أمي.

قالت:

- لا يتعلق الأمر بكونك صغيرًا أو كبيرًا يا زهير .. إن أباك وعمك يشغلان مناصب هامة في حارتين، وأي حديث يقولانه بينهما لا يجب أن تسمعه حتى آذان الحوائط.

قلتُ:

- الأمر حقيقي إذًا يا أمي ..

وتابعتُ:

- إننا لا نرى أبي منذ جئنا هنا إلا كل بضعة أيام مرة.

احمرّ وجهها وقالت:

- سيفعل أبوك ما يرضي ضميره على كل حال ..

كان القلق البادي على وجهها يظهر أن ثمة نقاش طويل دار بينهما بشأن هذا الأمر انتهى بعدم رضائها عمّا سيحدث أو اقتناعها على الأدق، إلا أنها انصاعت بالنهاية لرؤيته.

في الأيام التالية سألتُ معلم التاريخ في مدرستي الجديدة عمّا إن كان صادف رسمةً مثل رسمتي التي رسمتُها من جديد للنسلي الضخم المكبّل، فأخبرني أنه لم يرَ مثلها من قبل، كذلك نفى لي كبير مكتبة جويدا الكبرى أن يحتوي أي كتاب من كتب المكتبة المُقدرة بالآلاف على أي رسمة مشابهة، لكنه أعطاني وعدًا بمزيد من البحث عندما كررتُ كذبتي التي كذبتُ بها على السيد شقير في بريحا، وأخبرته أن عمي يهتم بشخصه بذلك الأمر.

في الشهر الثاني لي هناك حاولتُ التقرب من عمي، وادعيّتُ كذبًا أنني قد عدّلتُ رأيي بشأن مستقبلي وأنني أرغب في الالتحاق بمدرسة الأمن العليا بعد انتهائي من السنة الباقية لي من المدرسة المتوسطة .. فرحب بذلك بكل سعادة، وجعلني أرافقه في جولاته في جويدا بدون أن أطلبها منه .. لكنه لم يتحدث ولو لمرة واحدة عمّا يحدث أو ينوي فعله في القريب العاجل، سألتُه على غفلة ذات مرة حين كنا نجلس بمفردنا في غرفة مكتبه:

- هل اختطف النسالى الطفل الشريف الذي وُلد لأبوين نسليين حقًا وأمه؟

قال:

- نعم، لكني لن أمرّر هذا الأمر مرور الكرام .. سيدفعون ثمن فعلتهم غاليًا.

شعرتُ في حديثه بقدر من الغيظ ينبئ بنواياه السيئة تجاههم، لكن عقلي لم يقتنع بأن تكون جريمة كتلك سببًا لفعل ما سمعتُ أبي يتحدث عنه، فسألتُه بعد هنيهة من التفكير:

- هل استطاع أحد معرفة الشخص الذي فعلها؟

هز رأسه نافيًا وهو ينظر إلى بعض الأوراق المتناثرة أمامه، فقلتُ:

- ربما لم يفعلها أحدهم ولا حاجة إلى عقابٍ جماعي لهم ..

رمقني بنظرة غاضبة وكاد يتحدث إليّ، لكنه لم يفعل بعدما طرق الباب أحد الفرسان ودلف إلى الغرفة .. فأمرني عمي بأن أغادر الغرفة لبعض الوقت، ففعلتُ ذلك، ولم يمر وقت قصير على جلوسي بالخارج حتى وجدتُ عمي يغادر الغرفة مع الفارس، وحين شرعتُ في اللحاق بهما أخبرني بأن أنتظره إلى أن يعود.

عدتُ إلى غرفته مرة أخرى وأغلقتُ الباب من خلفي في انتظاره، وبعدما اطمأننتُ عبر النافذة من رحيله مع باقي الفرسان، تأكدتُ من انشغال الجندي المتواجد خارج الغرفة، قبل أن أفتّش بخوفٍ شديد بين الأوراق القابعة على مكتبه عن المخطوطة التي رأيتُها من قبل، وبعد بحث سريع لم أعثر عليها .. لكن انتباهي قد جُذب إلى بعض الأوراقٍ الصفراء القديمة المكتوبة بخط يدوي رديء باللغة الچارتينية القديمة التي سبق وأن درسنا عنها درسًا في المدرسة .. لم أستطع فهم ما كُتب في تلك الأوراق، والحقيقة أنني لم أكن لأنتبه إليها لولا تلك الدوائر التي رُسمت بقلم رصاص على ظهر إحداها .. وبداخل كل دائرة كُتب بخط عمي الذي أعرفه اسمٌ من الأسماء الأربعة .. غفران .. الطبيب .. خُشيب .. سبيل .. وفي أسفل ظهر الورقة رُسمت دائرة أكثر ظهورًا وبداخلها رُسمت علامتي استفهام، وكُتب: «لا يحمل وشمًا» .. وكان هناك سهمٌ مرسوم يصل بين هذه الدائرة والدائرة التي كُتبت فيها غفران .. لفتت هذه الدوائر انتباهي خاصةً مع وجود اسمين مألوفين لي هما خُشيب وسبيل،

أعرف أن خُشيب هو اسم العائلة التي تنتمي إليها خالتي سيرين خالة آدم، وسبيل جميع أهل جويدا يعرفون أنها الفتاة النسلية التي صارت شريفة وانتشرت الشائعات باختطافها من قِبل النسالى .. وشعرتُ وقتها أن تلك الأوراق تتصل بشكل أو بآخر بالمخطوطة التي يمتلكها عمي وكذلك بالحديث الذي تحدث به أبي إلى أمي .. وربما بحالة الاستنفار الغريبة التي تشهدها جويدا، فوجدتُ نفسي أنتزع ورقة بيضاء من أحد الدفاتر على الطاولة، وأمسكتُ بقلم رصاص، وبسرعة كبيرة قمتُ بنسخ سطور الورقة التي رُسمت علًى ظهرها الدوائر بحروف مشابهة تمامًا لما كُتب بها دون أن أفهم ما تعنيه، وحدثتُ نفسي وأنا أراقب زجاج باب الغرفة المُغلق خشية أن يدلف الجندي إلى الغرفة فجأة:

- ورقة واحدة قد تكفي .. ليس هناك وقت لنسخ كل هذه الأوراق .. إن أمسك بي ذلك الجندي أو عمي، فلن يتوانى عمي عن تقديمي إلى منصة الباحة ..

ثم أخفيتُ الورقة أسفل جوربي الأيمن، وأعدتُ ترتيب كل شيء كما كان على سطح الطاولة، قبل أن أعود بقلبٍ مضطربٍ متسارع النبضات وأجلس على مقعدٍ قريب من الباب، إلى أن هدأ توتري فنهضتُ وخرجتُ، وأخبرتُ مَن يجلس بالخارج أنني سأعود إلى بيتي من أجل استذكار دروسي بعد تأخر عمي.

لم يعد عمي ذلك اليوم إلى البيت وكذلك أبي، ثم كان الحديث كله باليوم التالي بالمدرسة عن اعتقال من تُسمى غفران النسلية التي عملت في يوم من الأيام راميًا للمنصة،

وهناك من ادّعى أنها كانت مُعتقلة بسجن جويدا قبل ثلاثة أشهر دون أن يعرف الكثيرون بذلك، أما أنا فانشغل بالي باسمها الذي كان بين الأسماء الأربعة المكتوبة على أوراق عمي .. وعزمتُ على الإسراع بترجمة ما نسختُه من كلمات لعلها تكشف لي بعضًا مما يخفى عن الجميع، فعدتُ إلى البيت ذلك اليوم ونسختُ الكلمات المكتوبة في الورقة التي نسختها إلى عشرة أوراق صغيرة، كتبتُ في كل ورقة ثلاثة أسطر منها فقط، ثم أعدتُ ترتيب الكلمات بترتيب أعرفه بعد خوفي الشديد مما إن كانت تحتوي على أسرار هامة لا يريد عمي لأحد أن يعرفها، وذهبتُ بكل يوم من الأيام التالية بورقة منها إلى معلم عندي كان خبيرًا بالڤارتينية القديمة من أجل توضيح ما تعنيه الكلمات بلغتنا، قبل أن أعود إلى البيت وأُعيد ترتيب الكلمات إلى الترتيب القديم أثناء نوم أخي، إلى أن انتهيت من آخر المقاطع فوجدتُ أن الورقة التي نسختها تتحدث عن دماء تروي تمثال النسلي الزائر المنحوت من صخور حوران فتثور معها أرواح الضواري، فاستعادت ذاكرتي هيئة النسلي المُقيد المرسوم في مخطوطة عمي ووجهه الزائر، كان مثل الحيوانات الضارية فعلًا، فوجدتُ وجهي يزداد احمرارًا وقلبي يدق خوفًا مما قرأتُه، وتزايدت في لحظة مشاعر الكره بداخلي تجاه النسالى المجرمين بعدما تخيّل عقلي تحولهم جميعًا إلى ما يشبه النسلي الذي رأيت صورته ليخرجوا عن طوع القواعد التي تحكمنا وترسي استقرار بلادنا بعدما يقتلون الكثيرين منا دون رحمة، ثم قمت بتمزيق الورقة التي نسختها على الفور عندما تقلّب أخي في سريره، وأنا أزداد إعجابًا بعمي الذي لطالما أراد لڤارتين وأهلها كل الأمان، وفي الأيام التالية أكثرتُ من مرافقتي له. جاءني رجل من بريحا يخبرني برسالة من آدم عن عدم عثور السيد شقير على شيء يخص رسمتي، فأرسلتُ شكري إلى صديقي

ومعلمي مع ذلك الرجل الذي لم أتحدث معه كثيرًا بعدما كان عليّ اللحاق بعمي الذي كان في طريقه إلى سجن جويدا .. وخاصةً أن عمي فاجأني بعدم رفضه مرافقتي له ذلك اليوم ..

كانت المرة الأولى التي أزور فيها ذلك السجن، وكذلك كانت المرة الأولى التي أرى فيها النسلية غفران، رأيتُها عندما فتح السجان باب زنزانتها، كانت امرأة قد تبلغ الأربعين من عمرها، تتناثر خصلات كثيرة من الشعر الأبيض بين شعرها البني، وكان التعب والهزال باديًا للغاية على وجهها عندما نهضت من نومتها والتفتت إلينا حين توقفنا جميعًا في الرواق الممتد أمام الزنازين بينما تقدّم عمي نحوها بمفرده وأغلق الزنزانة من خلفه، فلم نعرف عمّا تحدث به إليها، قبل أن يخرج إلينا بعد دقائق محتقن الوجه من الغضب فيما كانت تنظر السيدة بثبات نحوه وهو يبتعد عنها، قبل أن تحوّل نظرها إليّ وتنظر في عيني، بعدها أغلق السجان باب زنزانتها، فقال عمي لمساعده:

- أعلن بجميع المدن تقديم النسلية للمحاكمة يوم الغفران القادم .. سأكون أنا الرامي الذي يعدمها.

كنت أظن أن هذا أكثر ما سيجعل حدقتيّ عيني تتسعان، لكن الدماء اندفعت إلى عروقي عندما تابع عمي إلى مساعد آخر له قبل أن نغادر ممر الزنازين:

- لن ننتظر الانتهاء من صنع جميع المقذوفات .. ستتحرك المدافع الثقيلة من الغد إلى وديان الجنوب بما تم تصنيعه من القذائف إلى الآن.

في ذلك المساء حضر أبي إلى مكتب عمي وتحدثا منفردين بينما جلستُ خارج الغرفة بين مساعديه في انتظار انتهاء حديثهما، ثم دقّ قلبي حين سمعتُ صوت أبي يرتفع كأنه اعترض على شيء قاله عمي، قبل أن يخرج إلينا محتقن الوجه ويهرول خارجًا دون أن يلتفت إليّ حتى، وكأن نقاشهما أغضبه للغاية.

عندما عدت إلى البيت سألتُ أمي إن كان أبي قد عاد فنفت ذلك، فأخبرتُها بما حدث قبلها بساعات بين أبي وعمي، قبل أن نجد أبي يعود بعد نوم أخويّ، كان الارتباك والتشتت باديين للغاية على وجهه، فدخل إلى غرفته مباشرة وتبعته أمي، لم أكن لأفوّت فرصة التلصص على حديثهما هذه المرة .. سألته أمي عن سر حزنه البادي على وجهه، وعندما أنكر كونه حزينًا أخبرته أمي بأنني حدثتها عمّا حدث بينه وبين أخيه ذلك المساء، فقال أبي بعد فترة من الصمت:

- يوّد كيوان إقناع من حوله بأن تقديم رامية المنصة النسلية إلى المنصة خير وسيلة للضغط على الفتاة من أجل الظهور مجددًا إن كانت توّد بقاءها حية ..

قالت أمي:

- إن هذا أمر جيد ..

قال أبي:

- قد يكون صحيحًا، لكن في الوقت ذاته قد يدفع الفتاة إلى قتل طفلها لإيقاظ أرواح النسالى حسب ما قرأنا على جدران الكهف ..

وتابع:

- لقد قرر إرسال المدافع لمحاصرة وديان النسالى من الغد لكنه لن يأمر بإطلاق القذائف إلا بعد إعدام الرامية ..

وتغيّرت نبرته عندما قال:

- إن المتهور يصرّ على السماح للعشرات من ذكور النسالى بحضور يومِ الغفران القادم مع أهل جويدا الأشراف الذين لا يعرفون شيئًا عن الأمر ..

قالت أمي بلهجة متعجبة:

- لماذا يريد ذلك؟! .. ماذا إن فعلتها الفتاة فعلًا وكان بين الحاضرين نسالى يحملون أرواحًا تثور لتقتل من حولها من الأشراف!!

صمت أبي ثم قال:

- هذا ما يريده كيوان .. أن يرى الأشراف بأنفسهم ما ستفعله تلك الأرواح بهم .. لا يهمه أن يموت فرد أو اثنان أو عشرة من الأشراف بقدر ما يريد أن يرى في أعينهم وأعين كبير قضاة چارتين الخوف الذي يبرر له ما سيفعله بجموع النسالى بعد لحظات من إعدام الرامية ..

فسألته أمي حينها بلهجة خائفة:

- هل تستطيع قذائفك فعلًا القضاء عليهم وحمايتنا منهم إن ثارت أرواحهم؟ ..

قال أبي:

- نعم ..

لكنه تابع بعد لحظات بلهجة مترددة:

- إلا في حالة وحيدة ..



(٢٠)

سيرين

سألتُ أختي في تعجب:

- أي شيء يستطيع به أبونا مقايضة سادة چارتين لتبرئته من اجتياز القاعدة الأولى؟

قالت:

- لا أعرف .. قال قريبنا بأن تبرئته من جريمته قد يتم الإعلان عنها يوم الغفران القادم .. على أن يذهب إلى وادي حوران بعدها .. وعلى الأغلب سيتم إعلان إنهاء اختصام الأرواح لأجنتنا يومها أيضًا ..

ضحكتُ ساخرة، وقلتُ:

- وماذا سيفيد ذلك، لقد عبرنا الأربعين، وأوشك سن الإنجاب لدينا على الانتهاء ..

فسكتت للحظة، ثم قالت بنبرة هادئة:

- قال الرجل أيضًا أنه توّسل إليه حتى البكاء كي يبلغنا برغبته الشديدة في رؤيتنا قبل رحيله إلى حوران، لذا جئتُ إليكِ.

وأضافت:

- ربما أراد ذلك ليطلب منا مسامحته عمّا تكبدناه من عناءٍ بسبب فعلته ..

اضطربت المشاعر بداخلي، لم أكن على استعداد لكل هذه الأحداث فجأة في هذا الوقت القليل، فلذتُ بصمتي، وبدأتُ أنقر بإصبعي على الطاولة أمامي بينما كانت أختي تنظر نحوي في انتظار إجابتي .. وبعد صمتٍ طويل هززتُ إليها رأسي موافقةً، قبل أن أقول بغيظ:

- لو كان رجلًا آخر لصفعته على وجهه عمّا فعله بنا ..

فابتسمت أختي وهي تربت على يدي.

في تلك الليلة تأخرتُ كثيرًا عن موعد نومي بعدما انشغل تفكيري بسفري إلى جويدا وأنني بذهابي إلى هناك لرؤية أبي قد وضعتُ نفسي بين خيارين بالنسبة لآدم .. إما أن أصحبه معي إلى هناك وفي هذه الحالة سيكون قريبًا جدًا من رؤية الرامية التي سيتم إعدامها بعد خمسة أيام على منصة الباحة، ولا أدري ماذا سيحدث وقتها، أو أتركه في بريحا وأذهب بمفردي مع أختي ووقتها لن أكون متواجدة لأذيب له الأعشاب المنوّمة في شرابه خلال الأيام المتبقية على إعدامها وقد تعاوده أحلامه المتعلقة بها من جديد .. وبعد جدال كبير بين

أفكاري استقر عقلي على الخيار الثاني بأن أذهب إلى جويدا بدونه على أن أعود قبل يوم الغفران إن سمحت الظروف هناك بذلك، حتى إن لم أستطع فكلّها خمسة أيام فقط، لا أعتقد أنها ستغيّر شيئًا كبيرًا من الأمور ..

وفي الصباح أخبرتُه بأنني سأرافق أختي إلى جويدا من أجل أمر عائلي هام سأخبره به بمجرد عودتي، فسألني بأن أجد زهير لأرسل تحياته إليه، فوعدتُه بذلك.

ذهبتُ إلى جويدا برفقة أختي، كانت المشاعر لا تزال مضطربة بداخلي إلى حد كبير يسودها لومٌ كبير لنفسي على موافقتي بالذهاب معها، حتى أنني فكرتُ في منتصف الطريق في أن أستدير وأعود إلى بريحا بعدما لم أجد داخلي ذرة تعاطف واحدة مع أبي، حتى وإن حاول تصحيح خطئه قبل موته، لكن شعورًا خافتًا بداخلي منعني من العودة ودفعني لإكمال طريقي إلى المدينة التي تحمل لي كثيرًا من الذكريات السيئة، إلى أن وصلناها مع شروق شمس اليوم التالي، واتجهنا إلى بيتٍ استأجرناه لنستريح من وعثاء السفر ..

في مساء ذلك اليوم ذهبنا إلى دار الأمن التي يقيم فيها أبي .. كانت الشوارع كما قال الرجل الذي حمل رسالتنا إلى زهير مزدحمةً بالجنود فعلًا، كذلك كانت المرة الأولى التي أرى فيها المدافع الطويلة العنق التي يجرّ الواحد منها أربعة أزواج من البغال، كانت تتحرك بثقلها الشديد للخروج من المدينة تجاه أطرافها الجنوبية .. تعجبتُ أن يكون إعدام الرامية غفران قد يسبب كل هذا الاضطراب .. لكنني عدت وانشغلت باضطرابي أنا وما قد تحمله إليّ الساعات القليلة

القادمة من تغيير للمصير، ولم يوقظني من أفكاري إلا الجندي الواقف أمام بوابة دار الأمن عندما منعنا من تجاوز البوابة متعللاً بأنه تلقى أمرًا بعدم السماح بزيارة العجوز خُشيب إلا بإذنٍ مُسبق من الفارس كيوان بشخصه، وعندما لم يشفع لنا توسلنا إليه بأننا لن نقضي مع أبينا إلا دقائق عدنا أدراجنا إلى بيت إقامتنا في خيبة أمل.

لم أصدّق أن ذلك الإذن للقاء أبي سيستغرق ثلاثة أيام كاملة، قضيتُها جميعًا في التفكير في كوابيس آدم التي بدأت تفاصيلها تتضح أكثر وأكثر مع وصوله سن البلوغ، وما قد يراه من تفاصيل جديدة بهذه الليالي بعدما أوقفتُ جرعات الأعشاب المنومة من أجل المجيء إلى جويدا، وتمنيتُ نادمة لو عاد بي الزمن هذه الأيام لأرفض مرافقة أختي وأظل بجانبه حتى عبور اليوم الذي تُعدم فيه الرامية، ولولا أن جنديًا قد جاء إلينا عصر اليوم الرابع ليخبرنا بأن الفارس كيوان قد وافق على زيارتنا لأبينا لكنت قد ركبتُ حصاني وعدت إلى بريحا.

قادنا الجندي الذي منعنا من تجاوز البوابة من قبل عبر ممر طويل انتهى بسلم حجري صعدناه من خلفه إلى الطابق العلوي بدار الأمن، قبل أن يفتح لنا بابًا خشبيًا كبيرًا لتدلف أختي وأنا من بعدها .. كان أبي راقدًا على سريره، عجوزًا للغاية، غيّرت التجاعيد الكثير من بقايا وجهه العالقة في ذاكرتي، كان ينظر إلى سقف الغرفة حين اقتربنا بخطوات حذرة منه، كان طبيبٌ شاب يجلس بجواره نهض وخرج مع الجندي الذي رافقنا بمجرد أن دخلنا إلى الغرفة، ثم تنحنحت أختي فحرّك والدنا رأسه إلينا ليدفع بجسده إلى أعلى في تعبٍ شديد ليجلس، كنت أبتلع ريقي من الاضطراب الذي بلغ ذروته

بداخلي بمجرد رؤيته، ووددتُ لو تركتهما وخرجتُ بعدما شعرت أن صدري يضيق من قلة الهواء في ذلك المكان، لكن أختي قبضت برفق على يدي. وجدتُ الدموع تسقط من عينيه قبل أن ينطق بأي شيء، ليتني كنت أستطيع التعاطف حقًا لكني وقفتُ بجسدٍ جامد ومشاعر راكدة أنظر إليه فحسب، وعيناي تحدثاه:

- من أجل هذه الرقدة وهذه التجاعيد أضعت حياة كلينا؟! .. اللعنة على الطمع يا أبي .. يكفي أن يوقفك الفارس كيوان حقًا أمام أهل چارتين بهيئتك هذه ليتعظ من يفكّر بأن يحذو حذوك ..

ظل الصمت قائمًا بين ثلاثتنا لدقائق قبل أن تنطق أختي:

- لقد كبرت سيرين يا أبي ..

مد يده إلينا كي نقترب منه فاقتربتُ بخطوات متثاقلة حتى أمسكَ يدي بيده المرتعشة، ثم قال بصوت متعب:

- لم يكن عليّ تركركما تعانيان .. لقد كفّرتُ عن ذنبي في حقكما، سيعلن الفارس كيوان إعفاء نسلي من جريمتي غدًا قبل إعدام الرامية .. لقد وعدني بذلك، كما وعدني بإعلان براءتكما أمام أهل چارتين جميعهم ..

قلتُ بوجهٍ جامد:

- ماذا قدّمت يا أبي من أجل إعفائك من جريمتك؟

قال:

- ستعرفان كل شيء قريبًا .. لكني أريدكما أن تبحرا على أولى السفن المغادرة چارتين ..

تعجبتُ من قوله، وكذلك أختي التي سألته باستغراب:

- نُبحر؟! .. لماذا إن كان حقنا في ولادة أطفال أحياء قد عاد إلينا؟!

نظر نحو الباب بعينين متثاقلتَين كأنه لم يرد أن يسمعنا أحد، وقال:

- لا بد لكما أن ترحلا .. ليس هناك وقتٌ للشرح .. ولا حاجة لحضوركما يوم الغفران غدًا .. ستُعلن براءتكما وإن لم تحضرا ..

قلتُ بحدة:

- لقد تسببت في عيشنا غريبتين في بلدنا لأكثر من نصف عمرنا .. واليوم حين نسترد شرفنا الناقص تريدنا أن نترك چارتين؟!

قال بصوت خفيض:

- مَن لن يترك چارتين في الساعات القليلة القادمة سيندم أشد الندم ..

سألتُه بإصرار:

- ماذا هناك يا أبي؟!

قال:

- هناك حربٌ شعواء ستقوم بين الأشراف والنسالى ستخلّف وراءها عشرات الآلاف من القتلى ..

قالت أختي ساخرة:

- النسالى؟! .. ألم ترَ الأسلحة التي يمتلكها جنودنا؟!

قال أبي مصرًا:

- عليكم أن تستمعوا إلى ما أقوله .. إن الأيام القادمة ستكون صعبةً للغاية على الجميع ..

قلتُ:

- هذا من أجل الرامية؟!

قال:

- الرامية أحد أسبابها .. لكن هناك كثيرًا من التفاصيل كنت أنا ركنًا أساسيًا فيها .. ليس هناك مجالٌ لقولها .. اذهبا إلى المرفأ الجنوبي، واركبا أولى السفن المغادرة إلى أي بلد آخر ..

قالت أختي:

- لا تقلق يا أبي .. إن التطور الذي حدث لأسلحة بلادنا في السنوات التي قضيتها بعيدًا سيخمد أي شغبٍ يقوم به النسالى في غضون دقائق ..

قال أبي:

- لن يكون الجانب الآخر النسالى الذين تريهم في الباحة .. إنهم نسالى من نوعٍ آخر .. سيربك زئيرهم قلوب حاملي الأسلحة ..

رنّت كلمة زئيرهم في أذني كمَن دق جرسًا عملاقًا بجوار صوانها، فسألتُه على الفور في توجس:

- زئير مَن؟

قال بصوته المتعب:

- النسالى ..

وتابع بعد لحظة:

- لقد اكتشفتُ نوعًا من النسالى يحملون أرواحًا مفترسة، ما إن تثور ستقتل كل من يقابلها .. سيثورون بمجرد أن تقتل النسليةُ الشريفةُ التي اختفت طفلَها ..

وأكمل كأنه يتوسل إلينا:

- لقد تمسكتُ برؤيتكما قبل يوم الغفران من أجل إخباركما بهذا فقط .. أنا سأذهب إلى وادي حوران أما أنتما فغادرا چارتين ولا تعودا إليها أبدًا .. إنها أرض ملعونة هي وقواعدها ..

ضحكت أختي ونظرت إليّ نظرةً تقول بها أن أبي قد كبر وأصابه الخرف، أما أنا فازداد وجهي احمرارًا وأنا أتذكر زئير آدم القديم يوم المطر العظيم، كذلك حلمه بأنه يخضع كحيوان أسفل أقدام أحدهم .. فسألتُ أبي في ترقب بصوت مختنق بالدموع:

- هل ما تدّعيه صحيح يا أبي؟!

هز رأسه إيجابًا وقال بصوته الخافت:

- نعم .. كل من يحمل هذه الأرواح ستثور روحه بمجرد أن تقتل الفتاة طفلها، أو يثور أحدهم كان قد انسلّ بين الأشراف منذ سنوات ووصل سن بلوغه هذا العام .. قد يستطيع ذلك النسلي إن عرف حقيقة ما يحمل بداخله أن يستنفر الباقين .. لكنهم لن يكونوا بقوتهم الكاملة إن لم تفعلها الفتاة ..

لقد عثرتُ على كهف قديم كُتبت فيه كل هذه الحقائق باللغة الچارتينية القديمة، ونقشتُها على أوراقٍ سلمتُها إلى الفارس كيوان مقابل أن يعفيني من جريمتي بعبوري عامي الخمسين، قبل أن أدلّه على مكان الكهف، سيشرع كيوان في إبادة النسالى عن بكرة أبيهم، لكن الأمر لن يكون بالسهولة التي يتخيلها أبدًا إن فعلتها الفتاة ..

وتابع وهو يغمض عينيه:

- ستكون حربًا عظيمة لن تنتهي إلا بقضاء أحد الطرفين على الآخر ..

اقتربتُ منه أكثر وسألتُه بقلب مضطرب:

- والنسلي الذي يحمل هذه الروح ويعيش بين الأشراف، ماذا سيخمد روحه إن ثارت؟

فتح عينيه بثقل، وقال وهو ينظر إلى سقف الغرفة:

- لا أحد يعرف .. سيتمنى الأشراف وقتها أن يقتله كيوان قبل أن تفعلها الفتاة وتصل قوته ذروتها .. أعتقد أن كيوان قد بدأ بالفعل في البحث بين الفتيان الذين وصلوا سن البلوغ في كل المدن .. ومن لن يجد له نسبًا واضحًا لن يتوانى عن فصل رأسه عن جسده ..

قبل أن يضيف:

- إن كان هذا الفتى على قيد الحياة .. لن تترك روحه الرامية تموت .. ستثور روحه من أجلها ..

تذكرت التطور الكبير الذي حدث في كوابيس آدم بعد أن حدثنا الرجل الذي جاء من جويدا عن تحديد موعد إعدام الرامية .. وتأكدتُ أنني ارتكبت خطأ عمري بوقف جرعات منوّمه في الأيام الخمسة الأخيرة .. فتمتمتُ في سري إلى نفسي بخوفٍ شديد:

- لو ثار آدم كما رأيتُه قبل سنوات وسمع أحد الجيران زئيره سيقتله الجنود لا محالة .. لا بد وأنهم قد تلقّوا أوامر بذلك ..

ثم وجدتُ نفسي أترك الغرفة وأركض إلى الخارج لأهبط درجات السلّم ركضًا، لكني أبطأت من سرعة نزولي عندما وجدتُ بعض الفرسان يصعدون السلّم كان يتقدمهم الفارس كيوان، ووقفتُ على أحد جوانب السلّم أنظر إلى أسفل قدمي دون أن أرفع عيني، ففوجئتُ بزهير يناديني من بينهم:

- خالتي سيرين ..

كنت أود أن أواصل ركضي، لكني حاولتُ التماسك كي لا يبدو عليّ شيء غير طبيعي خاصةً مع التفات الفارس كيوان بعينيه القويتين

إليّ مع نداء ابن أخيه لي، فأومأتُ برأسي إليه مرحبةً وعيني كلها رجاء بألا ينطق بكلمة واحدة عن آدم في ذلك التوقيت أمام عمه الذي أعرف أنه ذكي ليعرف أن آدم لن يكون أبدًا ابن أختي بعدما انقطعت الروح عن نسل عائلتنا قبل ولادته بتسعة سنوات، وهززتُ رأسي هزات متتالية في اضطراب حتى عبر هو ومن معه في دهشة مني، فتنفستُ الصعداء، وواصلتُ نزولي السلّم ركضًا، ثم ركضتُ بالممر الطويل بالطابق السفلي بدار الأمن إلى الخارج، كان الجميع يندهشون من ركضي في شوارع جويدا بسرعتي القصوى لكني لم أعبأ بأي شيء من حولي، حتى وصلت إلى البيت الذي كنا نقيم فيه وهناك قفزتُ على صهوة جوادي، وقبل أن ألكزه بقدمي وجدتُ أختي التي لحقت بي وبدا أنها كانت تركض هي الأخرى تمسك لجام حصاني، وتسألني:

- إلى أي تذهبين؟!

قلتُ:

- إلى بريحا.

قالت مستنكرة :

- لماذا تعودين إلى هناك ؟! .. ستوفّر لنا چارتين منحة ذهاب أبينا إلى وادي حوران .. سنجد لنا أزواجًا بعد أن يعلن القاضي غدًا تبرءتنا .. ستستطيعين تكوين عائلة هنا مثلما كنتِ تحلمين طوال عمرك.

قلتُ وأنا ألكز حصاني:

- إن عائلتي هناك ..

ثم لكزتُ حصاني بقدمي ليركض بي في اتجاه الشمال .. كانت الشمس تقترب من الغروب في ذلك التوقيت فأدركتُ أنني لن أصل إلى بريحا قبل عصر اليوم التالي - يوم الغفران - إن سرتُ بالسرعة المعتادة، فصرختُ إلى حصاني كي يسرع .. وأنا أتمتم داخل نفسي:

- لو نطق زهير بكلمة واحدة عن آدم إلى عمه أو حدثه عن كوابيسه التي كان يحكيها له سيرسل جنوده إليه ليقتلوه ولو لم تثر روحه ..

مع حلول الظلام أبطأ الحصان من سرعته رغمًا عني لكني لم أتوقف ولو لمرة واحدة ، وواصلتُ حثه على التقدم بعدما لم تتوقف التخيلات السيئة التي افترض عقلي حدوثها مع شروق شمس النهار التالي عن العبث بي .. إلى أن وصلت أطراف قبالا مع الفجر، فدلفتُ إلى شوارعها الساكنة من أجل اتخاذ طريق جبلي في شرقها كان أكثر اختصارًا إلى بريحا عن الطريق الرئيسي الذي يستخدمه الجميع، لكنه في الوقت ذاته كان شديد الانحدار، فأوقفتُ حصاني للمرة الأولى، وهبطتُ عنه حتى يكتمل شروق الشمس لتكشف أمامي منحدراته الخطرة تجنبًا لسقوط فرسي المتعب في إحداها، وبعدما أسقيته وأطعمته من الأعشاب التي تناثرت على جانب ذلك الطريق كان ضباب الصباح قد انقشع قليلًا وأرسلت الشمس أشعتها ليظهر الطريق أمامنا جليًا، فلم أضع مزيدًا من الوقت ووثبتُ إلى ظهر حصاني، وهمستُ إليه وأنا أحرك يدي برفق على عنقه:

- هيا يا صديقي .. لم يعد إلا القليل ..

ليركض بي بين التلال في اتجاه الشمال.

مع تقدمي كنت أرفع عيني إلى السماء لمعرفة الوقت من موضع الشمس فيها .. اختصر لي ذلك الطريق بضع ساعات حقًا، لكن مع جهلي بما يحدث في جويدا في ذلك الوقت أو بما يحدث لآدم في بريحا كانت الدقيقة الواحدة تمضي كأنها عمر كامل، إلى أن وصلت بريحا قبل منتصف النهار بقليل في أمر كان أشبه بمعجزة بالنسبة لي .. اتجهتُ إلى ورشة السيد عبود مباشرةً، وهبطتُ عن حصاني وركضتُ إلى الداخل، من نظرة واحدة إلى مكان آدم المعتاد بالورشة لم أجده، فخفق قلبي مضطربًا، وسألتُ السيد عبود الذي ظهر لي بثيابه المتسخة بالركام الأسود:

- أين آدم؟! ..

قال في عصبية شديدة:

- لم يأتِ اليوم .. أخبريه أنني سأخصم أسبوعًا كاملًا من أجره على تغَيّبه اليوم وعلى ما فعله صباح الأمس.

سألته في تخوّف:

- ماذا فعل؟!

قال:

- تركنا فجأة دون أي مقدمات وركض إلى خارج الورشة، ولم يعد ليكمل عمله المكلّف به، آه .. وتلك النظرات التي نظر بها إليّ قبل مغادرته .. أخبريه أنني لن أسامحه عليها أبدًا .. لقد أخافني حقًا ..

ضاعف ذلك من مخاوفي .. فهرولتُ إلى الخارج دون أن أقول شيئًا له، ثم ركبتُ حصاني من جديد وركضتُ به تجاه بيتي .. كان باب البيت مفتوحًا على مصراعيه فابتلعتُ ريقي خوفًا عندما ترجلتُ عن حصاني وتحركتُ بحذر إلى داخل البيت، ثم ناديتُ في ترقب:

- آدم .. هل أنتَ هنا؟

لم أسمع إجابته، فواصلتُ تقدمي الحذِر إلى الداخل، وناديتُه من جديد وأنا أقلّب بعيني بين كل جانب من جوانب الردهة، حتى كاد قلبي يسقط في قدمي عندما دلفتُ عبر باب غرفته المفتوح لأجد أحد جدرانها مخدوشًا بخدوش طولية عميقة كأن مخالبًا حديدية قد غُرست فيه .. هنا توقفتُ مكاني بعدما شعرتُ أن قواي قد خارت رعبًا .. وبدأ صدري يتعالى ويهبط بأنفاس عميقة متباطئة .. ناديتُ بصوت ضعيف:

- آدم ..

قبل أن أبحث بجسد متجمد في باقي الغرف دون أن أجده .. خرجتُ إلى جيراني لأسألهم إن كان أحدهم قد رآه .. نفى لي الجميع رؤيته .. انتظرتُ أن ينطق أحدهم عن صوت غريب صدر من بيتي، لكنهم لم يفعلوا .. قبل أن يظهر لي صبيٌّ صغيرٌ من خلف أمه ويقول:

- لقد رأيتُه يركب حصانه ليلة أمس، ويركض في ذلك الاتجاه بسرعة كبيرة للغاية ..

وأشار نحو الطريق الذي تجنبته لطوله، قبل أن يتابع:

- كان عاري الصدر مثل النسالى ..

وقتها سقطتُ على ركبتيّ، وبدأتُ أغمغم إلى نفسي لاهثةً وأنا أضع رأسي بين كفيّ:

- لقد صدق أبي فيما قاله .. لقد ذهب إلى جويدا من أجل الرامية .. سيقتلونه قبل أن يصل إليها ..

وتابعتُ نادمةً:

- لو كنت أكملت بالطريق ذاته لقابلته في الطريق ..

ثم تنبهتُ إلى أمر لم ينتبه له عقلي، لقد تحرك إلى جويدا في الوقت الذي كنت فيه هناك تقريبًا .. لقد ثارت روحه قبل أن تفعلها الفتاة.



الفصل الأخير

زهير

حاولت أمي التخفيف من مخاوف أبي بعدما حدّثها عن الحالة الوحيدة التي لن تستطيع وقتها قذائفه من القيام بمهامها كاملة .. أما أنا فعدتُ إلى غرفتي وجلستُ إلى طاولتي واضعًا رأسي بين كفيّ، يدق قلبي خوفًا مما سمعتُه، ولساني يردد إلى نفسي هامسًا؛ إن عمي سيستطيع التعامل بذكائه مع الأمر .. لا داعي لكل هذا القلق يا أبي .. بعدها أشعلتُ مصباح طاولتي، وأخرجتُ أوراقي البيضاء وأمسُكت بقلمي، وبدأتُ أدوّن ما شهدتُه من أحداث منذ زارنا عمي في بريحا.

على مدار الأيام التالية بدأت المدافع المجرورة في التحرك إلى جنوب جويدا، كذلك قام عمي بزيارات خاطفة إلى المدن التي تقع تجمعات النسالى على مقربة منها .. ومع رفض أبي لتغيبي عن مدرستي لم أستطع مرافقته في أي زيارة له خارج جويدا .. فاستغللتُ هذه الأيام في تدوين باقي الأحداث بأوراقي.

مع اقتراب يوم الغفران أكثر وأكثر كان الخوف يتزايد بداخلي خاصةً مع عودة دوريات الفرسان كل مساء من الجنوب لتعلن عن

عدم عثورها على الفتاة النسلية سبيل كأنها قد تبخرت هي وطفلها .. ثم جاء اليوم الأخير قبل يوم الغفران المنتظر حين قابلتُ خالتي سيرين على سلّم دار الأمر صدفةً، استغربتُ كثيرًا رد فعلها حين ناديتُها بعدما وجدتُ وجهها يرتبك للغاية، لكن عذرتُ ذلك الارتباك مع وجود عمي وكل هؤلاء الفرسان ذوي الهيبة الكبيرة من خلفه، تأكدتُ حينها أن العجوز الذي يرقد في الطابق العلوي لدار الأمن والذي يمنع عمي الجميع زيارته ذو صلة قرابة بها، ووددتُ لو كان هناك وقت لسؤالها عن آدم، لكن بقاء نصف يوم فقط على أهم أيام چارتين منعني من الوقوف لتبادل الحديث معها خشية أن تفوتني أي تفصيلة هامة قد يتحدث عنها عمي لمساعديه، وتمنيتُ أن أجد وقتًا آخر بعد مرور يوم الغفران للجلوس ولو لوقت قليل معها.

في ذلك المساء وجدتُ عمي يقف مع معاونيه أمام مُجسّم صخري مُصغر للباحة، وأشار بيده إلى الأماكن العالية القريبة من الباحة التي سينشر فيها جنوده البارعين في التصويب من المسافات البعيدة، والذين قد اختارهم بنفسه، لكن ما أثار انتباهي هي الشباك اللينة التي تحدث عن إخفائها أسفل رمال الجزء الجنوب شرقي للباحة، والذي سيُجبر النسالى على الوقوف به، لتنتشلهم جميعًا إلى الأعلى عن طريق الرافعات الأفقية القابلة للانتصاب في لحظات، والتي ثُبتت بها أطراف الشباك بمهارة كبيرة تحت إشراف مهندسي جويدا، تحسبًا لأي رد فعل مفاجئ لهم.

أدركتُ وقتها أن أبي قد أساء فهم عمي بأنه ينوي التضحية ببعض أشراف چارتين، وأن عمي قد أعدّ احتياطاته جيدًا من أجل كبت أي عنف قد يحدث من أولئك المجرمين، ثم دخل إلينا أحد الفرسان وأخبر عمي بأن المدافع طويلة العنق قد اتخذت أماكنها لدك وديان

النسالى الثمانية في وقت واحد عندما يصدر الأمر بذلك، فأثنى عمي عليه، قبل أن يكملَ حديثه عن الترتيب الزمني لكل أحداث المنصة .. تعجبتُ حين قال بأن الفقرة التي ستسبق إعدام الرامية ستكون إعلان قاضي المنصة لبراءة السيد خُشيب من تجاوز القاعدة الأولى وإعلان براءة ابنتيه سيرين وهجر من الجريمة التي ارتكبها، وقال بغير اكتراث لأحد مساعديه:

- سيُؤخذ ذلك الحقير إلى وادي حوران بنهاية اليوم.

قلتُ في سري فرحًا:

- لا بد وأن آدم سيكون هنا في جويدا من أجل الاحتفال بهذه المناسبة ..

وتمنيتُ لو قابلتُه وأوصيتُه بالابتعاد عن الأماكن المخصصة للنسالى، سأل أحد الفرسان عمي بلهجة مترددة عندما انتهى من حديثه عن العجوز:

- ماذا إن لم يحدث رد فعل من النسالى بعد إعدام الرامية؟

صمت عمي مفكرًا للحظة، ثم قال:

- هل تريد أن يأتي اليوم الذي يهاب فيه الأشراف من النسالى؟

هزّ الفارس رأسه نافيًا وزاد التوتر على وجهه، فقال عمي:

- إذًا .. سنحمي بلادنا من خطر قد يأتي مستقبلًا في أي وقت .. الآن نحن نمتلك القوة التي تساعدنا على ذلك، غدًا لا نعرف كيف سيكون الحال .. إنها لحظة فارقة في تاريخ هذا البلد ..

وتابع بلهجة صارمة:

- ستُعزف الموسيقا الوطنية لبلادنا ما إن ينتهي القاضي من إعلان حكمه بإعدام الرامية .. ستكون رصاصتي المُصوبة إلى رأسها إذنًا بإشعال الشعلة الكبرى أعلى سجن جويدا ..

ونظر بعينه نحو أحد مساعديه عرفتُ أنه من سيتولى ذلك الأمر .. وأكمل:

- سيكون إشعال الشعلة أعلى سجن جويدا أمرًا مباشرًا مني لبدء دك الوديان بالقذائف الثقيلة دون رأفة .. أما من يقفون بالباحة فسيتم اعتقالهم وحملهم إلى الجنوب ليتولى أقرب المدافع إلى جويدا أمرهم بتصويبة مباشرة .. لن يُقتل نسلي داخل الباحة غدًا إلا غُفران .. إنها الوحيدة التي نضمن أنها لا تحمل أي روحٍ شريرة ..

وأخرج زفيره قبل أن يقول:

- سيحلّ بعد غد على چارتين ليكون أول أيام هذا البلد بدون النسالى ..

احمرّ وجه الفارس الذي سأل عمي وهز رأسه موافقًا دون أن يقول شيء، قبل أن يأمرنا عمي بالانصراف بعدما أراد أن يبقى بمفرده ..

عندما عدت إلى البيت دوّنتُ ما دار بين عمّي ومعاونيه في أوراقي، قبل أن أذهب إلى فراشي وأغط في نومي استعدادًا لذلك اليوم الحاسم، لكني فوجئتُ في الصباح بأمي تمنعني أنا وإخوتي

من الخروج من البيت إلى الباحة، قالت بأن تواجدنا في الباحة ذلك اليوم خطرٌ شديد دون أن تشرح سر قلقها لإخوتي، تذمّر أخي وأختي كثيرًا لكن تذمّرهم لم يمثل ذرة واحدة من الغضب الذي أصابني، حاولتُ إخبارها بأن عمي قد خصص أماكن محددة للنسالى سيحيطها الجنود من كل جانب، غير الشباك التي ستصطادهم إن صدر منهم أي رد فعل عنيف لكنها أصَرّت على عدم خروجنا، حاولتُ التوسل إليها بأنني لا أريد أن أفوّت أحداث هذا اليوم الفارق في تاريخ چارتين، لكن توسلي لم يفد شيئًا مع إصرارها ..

عاد أخواي إلى غرفتهما يائسين .. وكذلك عدت أنا الآخر في غضب شديد كان يتزايد بداخلي وأنا أرى الساعات الأولى من النهار تمر واحدة تلو الأخرى .. وعقلي يفكر بأن الباحة لابد وأنها قد امتلأت عن آخرها، وأن فرصتي بتواجدي في الصفوف الأولى قد تلاشت، وجلستُ إلى طاولتي غارقًا في غيظي وأنا أنظر إلى الأوراق التي كتبتُها، إلى أن نهضت دون تفكير وفتحت نافذة الغرفة، كان ارتفاع الطابق الثاني كبيرًا لكنني عبرت النافذة ووقفتُ على الجزء البارز من السقف إلى الشارع .. صرخ أخي إلى أمي، لكني كنت قد قفزتُ إلى عربة خشبية محملة بالأجولة خففت كثيرًا من صدمة سقوطي، وإن آلمتني ساقي، ثم قفزتُ من العربة إلى الشارع، وبدأتُ في ركضي تجاه الباحة بأقصى سرعتي، كانت الشوارع شبه خاوية إلا من الجنود الذين تراصوا بانتظام على مسافات متساوية على جانبيها متأهبين بأسلحتهم، فواصلتُ ركضي دون أن يعيقني شيء .. حتى اقتربت من الباحة. كنت أعرف أن الزحام سيكون شديدًا هناك لكنني لم أتخيّل قط أن يكون بمثل هذا الشكل الذي رأيتُه عندما صارت الباحة والمحتشدون فيها في مرمى بصري ..

توقفتُ عن الركض يائسًا عندما أدركتُ أنني قد تأخرتُ كثيرًا، وأكملتُ الطريق إليها مشيًا فيما كانت موسيقا المهرجين تدق على منصتها .. حاولتُ الانسلال بين المتزاحمين لكن مع التلاصق الشديد بين الواقفين لم أستطع أن أتقدم ثلاث خطوات كاملة إلى أقرب البوابات مني، وأدركتُ أن عبوري سور الباحة في ذلك التوقيت للوقوف في مكان يمكّنني من رؤية ما يحدث على المنصة سيكون أمرًا محالًا ..

عدت بجسدي خارجًا من الزحام عندما عزف المهرجون مقطوعة أخرى من موسيقاهم .. ثم وقفتُ على أطراف قدمي لعلي أجد منفذًا آخر للتسلل عبره إلى الداخل لكني لم أجد، في تلك اللحظة لمحتُ الجنود الواقفين أعلى سجن جويدا بالناحية الأخرى من الباحة، فابتسمتُ وأنا أنعت نفسي بالغباء بعدما كان وجودي في الباحة سيضيّع عليّ أفضل الأماكن التي سأستطيع منها مشاهدة كل ما يحدث .. ثم عدت راكضًا مبتعدًا عن الزحام لأدور عبر الممر المحيط بالباحة إلى الجانب الغربي منها، إلى أن وصلت بوابة السجن .. لم يوقفني الحارس الواقف أمام البوابة بعدما رآني أكثر من مرة أرافق عمي بل أعطاني تحيته، فسألتُه:

- هل اُقتيدت الرامية إلى الباحة بعد؟

قال:

- نعم سيدي، منذ الشروق.

فدلفتُ إلى الداخل ركضًا، وصعدتُ السلم وثبًا إلى أعلى الطابق الأخير، كان الفارس الذي كلّفه عمي بإشعال الشعلة الكبرى أعلى

السجن يقف خلف جنوده المنبطحين بأسلحتهم المُصوّبة تجاه الباحة .. أو على الأدق تجاه الجزء الجنوب الشرقي منها الذي يقف فيه النسالى، والذين ظهر اختلافهم بين الواقفين بوضوح بأجسادهم التي كانت تلمع بقوة مع أشعة الشمس، يحيطهم صفين أو ثلاثة من الجنود في إطار دائري، كانت خوذاتهم المعدنية تلمع بشدة هي الأخرى .. ثم انتهى المهرجون من عزفهم فلمحتُ أبي يصعد إلى المنصة ليجلس بجوار بعض السادة، لم أكن أعرف منهم إلا قاضي المنصة والذي نهض عن كرسيّه مع انتصاف الشمس السماء وأتم زواجًا بين عروسين من أشراف بلادنا .. حين انتهت مراسم الزواج صعد عمي للمنصة للمرة الأولى، وتلقّى ترحيبًا كبيرًا من الحاضرين الذين واصلوا الهتاف والتهليل له لبعض الدقائق المتواصلة، بعدها صعد العجوز خُشيب إلى المنصة، فاتخذ عمي مكانًا على جانب المنصة الأيسر ليفسح المجال للقاضي الذي تحرك إلى منتصف المنصة وبدأ حديثه، لم أسمع ما كان يقوله بالطبع لكني كنت أعرف أنه سيتحدث عن تبرئة ذلك الرجل من اجتياز القاعدة الأولى، وقتها هزّ مساعد عمي الذي كنت أقف بجواره رأسه، وقال مشفقًا حين وجد العجوز يقف على المنصة محني الجسد واهنًا:

- لم ينل من هروبه طوال الخمسة وعشرين عامًا إلا حرمان بناته من إنجاب أطفال أحياء ..

فسألتُه متعجبًا:

- اجتاز القاعدة الأولى منذ خمسة وعشرين عامًا؟!

قال:

- نعم ..

قلتُ في استغراب:

- لكن حفيده ستة عشر عامًا فقط ..

قال الفارس دون اكتراث وهو ينظر تجاه الباحة:

- مستحيل.

قلتُ بإصرار:

- إنني متأكد من ذلك .. إنه صديق عمري .. وأعرفه وأعرف خالته سيرين منذ ست سنوات .. ألا تتذكر السيدة التي قابلتنا على سلّم دار الأمن بالأمس؟ .. إنها ابنة ذلك العجوز وخالة صديقي الذي أتم بلوغه فقط هذا العام.

فكّر الفارس وشرد قليلًا، قبل أن ينظر في عيني، ويسألني:

- هل يعرف عمك بذلك؟!

انقبض قلبي من النبرة التي سألني بها، فقلت:

- لا ..

سألني مجددًا:

- هل رأيت صديقك هذا مع تلك السيدة في جويدا؟

قلتُ وأنا أخشى إن كانت إجابتي ستضر آدم في شيء:

- لا .. رأيتُ خالتي سيرين أمس فقط .. لا أعرف إن كان هنا في جويدا أم لا ..

قال:

- هل تستطيع رؤيته بين الواقفين؟

سألتُه:

- أتمزح يا سيدي؟! .. بالطبع لا .. ماذا هناك؟!

قال مغمغمًا:

- أتمنى أن يكون ما أفكر فيه خاطئًا.

ثم تابع بعد لحظة:

- لكن لا بد وأن يعرف عمك بالأمر ..

ثم تركني مهرولاً وهبط عن السطح .. فناديته متسائلًا:

- ما دخل آدم بما يحدث في چارتين؟!

لكنه واصل طريقه مسرعًا دون أن يلتفت إليّ .. بعدها سألتُ نفسي بشيء من التعقل:

- كيف يكون آدم في سن السادسة عشر إن كان ذلك العجوز قد تجاوز القاعدة الأولى قبل خمسة وعشرين عامًا؟ .. هل هناك ما هو خفي بشأن صديقي؟!

وقتها لا أعرف لماذا خطرت إلي بالي فجأة أحلام آدم التي حكاها لي مرارًا، وخاصةً الجزء المتعلق فيها بكونه يركض متعبًا حتى يخضع

كحيوان أسفل أقدام أحدهم .. كذلك أحضرت ذاكرتي الكلمات التي ترجمتُها من أوراق عمي عن إثارة أرواح الضواري، وحديث أبي إلى أمي عن شراستهم المتوقعة .. تداخل معها الارتباك الذي بدا على وجه خالتي سيرين عندما ناديتها بالأمس .. وذلك الاضطراب الذي رأيتُه على وجه الفارس حتى إنه لم ينتظر إلى نهاية اليوم ليخبر عمي بشأن ما قلتُه له .. فسألتُ نفسي غير مصدق:

- أيعقل؟!!

لكنني هززتُ رأسي لأطرد تلك الوساوس عنها، ونظرتُ إلى الباحة لأنشغل بما يدور على منصتها .. رأيتُ مساعد عمي الذي تركني قبل قليل يشقّ الصفوف تجاه البوابة الشمالية المخصصة للسادة، فتزايدت أفكاري السيئة بشأن صديقي .. وحدثتُ نفسي وأنا أفكر في قدرة آدم العجيبة على ترويض الخيول منذ صغره:

- لا .. لا .. إنها مهارة فحسب ..

لم يقاطع تفكيري إلا الموسيقا التي تسبق الإعدام، والتي صمت معها ضجيج الحاضرين في الباحة .. لحظتها اقتربتُ من حافة السطح، وهبطتُ مرتكزًا على ركبتي اليمنى وعيني تراقب الجانب الواقف فيه النسالى، كذلك بدأتُ أبحث بعيني في قلق عن مساعد عمي الذي غاص بين المزدحمين من أجل إخباره بشأن آدم ولم يتبق إلا دقائق وتُعدم الرامية وعليه أن يعود إلى جانبي كي يشعل بنفسه الشعلة الكبرى خلفنا لتبدأ المدافع الثقيلة في تنفيذ مهمتها، لكني لم أستطع تمييزه بين المتزاحمين، فعدتُ ببصري إلى النسالى ..

كان عمي قد تحرك إلى منتصف المنصة بخطوات منتظمة ثم وقف كالتمثال واضعًا يده على مقبض سلاحه الناري المُعلّق بحزام خصره، فهلّل الجميع رغم عدم انتهاء العازفين من عزفهم، ثم تعالى هتافهم حين تبدّل عزف الموسيقا، وصعدت إلى المنصة الرامية النسلية مُكبّلة الأيدي والأرجل يجرّها زوجٌ من الجنود .. لم تكن مغطاة الرأس كعادة من يُحاكمون على المنصة أيام الغفران، لا أعرف إن كان عمي قد قصد ذلك أم ماذا؟ ثم أزال أحد الجنديين أغلال قدميها عندما نهض كبير قضاة چارتين إلى جانب المنصة الأيمن ليعلن إدانتها أمام الجميع، في هذه اللحظة تحوّل هتاف الحاضرين إلى ضجيج وجلبة فجأة عندما فوجئوا وأنا معهم باندفاع النسالى المحتجزين في الجزء الجنوب شرقي خلف صفوف الجنود كسيلٍ واحد بصورة مفاجئة ليصنعوا أكثر من فجوة بينهم، قبل أن يتحركوا بسرعة كبيرة وحركة عشوائية بأجسادهم العارية بين صفوف الحاضرين دون أن يستطيع أحد إيقافهم بعدما كان واضحًا أن أجسادهم كانت تنزلق من أيدي مَن يحاول الإمساك بهم، وكأنهم قد طلوا أجسادهم بالزيوت التي سهلت انسيابية حركتهم .. كذلك لم يستطع أي جندي سواءً من الذين حاصروهم في الباحة أو الراقدين بجواري إطلاق طلقة نارية واحدة مع انتشارهم السريع المفاجئ بكل أرجاء الباحة بين أشراف چارتين .. بدا الارتباك على وجه كبير القضاة، وكذلك السادة الذين وقفوا عن كراسيهم في قلق ليراقبوا ما يحدث من هرج ومرج بين الحاضرين، وجدتُ أبي يهبط عن المنصة مهرولاً عبر السلم الخلفي لها .. أما عمي فأخرج سلاحه الناري وقتل اثنين من النسالى كانا يشقان الصفوف للاقتراب من المنصة، وصاح إلى بقية الفرسان بأن يهبطوا إلى أرض الباحة .. قبل

أن ينظر بعينه تجاهنا أعلى السجن .. كان مساعده الذي هبط إليه لم يعد بعد .. فكرتُ أن أشعل الشعلة بنفسي لكن الارتباك أصابني ولم أعرف ماذا أفعل .. ثم وجدتُ ذلك الفارس يصعد إليّ لاهثًا .. ويسألني:

- هل أعطى الفارس كيوان أمرًا بإشعال الشعلة؟

قلتُ:

- لا أعرف .. لم تُعدم الرامية بعد ..

ولم أكد أكمل جملتي حتى فوجئتُ بسهم مشتعل ينطلق من الباحة إلى السماء تجاهنا ليعبر فوق رؤوسنا ويسقط بجوار الشعلة، ظننتُ أن عمي مَن أعطى أمرًا بذلك، لكن الذهول أصابني حين نظرتُ إلى المكان الذي أُطلق منه السهم، كان نسليًا مَن يمسك بالقوس الذي أطلق السهم المشتعل يحيطه عددٌ من النسالى في إطار دائري يشتبكون بقوة مع الأشراف ويمنعون بكل استبسال أي فرد من الوصول إلى ذلك النسلي، فيما كان بعض الجنود البعيدين يحاولون بصعوبة الوصول إليهم، قبل أن أجد ذلك النسلي يشعل سهمًا آخرًا ويرفع عينه إلينا، لتنتفض دقات قلبي وتندفع الدماء إلى عروقي وأنا أراه يشد وتر قوسه المُصوّب نحونا بتركيز شديد، لينطلق سهمه المشتعل تجاهنا، ويسقط هذه المرة بمنتصف الشعلة تمامًا، لتشتعل نيرانها العظيمة من خلفنا في لحظات ..

حدثتُ نفسي مذهولًا:

- ماذا يحدث؟! .. ما الذي يفكّر فيه النسالى؟!

بعد لحظات دوى أقوى صوت سمعتُه ﻓﻲ حياتي، صوت إطلاق القذائف الثقيلة .. ظلّت أصوات القذائف تتوالى لدقائق، ومع كل قذيفة كان بناء السجن يرتجّ من أسفلنا، إلى أن توقفت وكأن الدفعة الأولى من الضربات قد انتهت، لتصل حالة الهرج والمرج ﻓﻲ الباحة إلى ذروتها، وبدأ الكثيرون من الأشراف يندفعون إلى البوابات للخروج منها ﻓﻲ خوف شديد .. لكن الجميع لزم مكانه وتوقف كل شيء عن الحركة عندما سمعت آذاننا صوت دقات طبول تدق بإيقاع منتظم يأتي من بعيد من ناحية الجنوب .. كانت الدقات تتصاعد إلى عنان السماء دون توقف كأنها ترد على أصوات القذائف التي أُطلقت قبلها بقليل، لكن بإيقاع أكثر انتظامًا .. وجدتُ مساعد عمي يغمغم محدثًا نفسه:

- إنها دقات الشامو بإيقاع مختلف!!

قلتُ:

- الشامو؟! .. موسيقا الشامو؟!

قال الرجل ﻓﻲ توتر:

- يبدو أن هناك من وضع خطة لهذا اليوم غير الفارس كيوان ..

وصاح ﻓﻲ جنوده بوجه محتقن:

- صوّبوا أسلحتكم نحو رأس كل نسلي تراه أعينكم ..

كانت أصوات الطبول تتعالى أكثر وأكثر، يعطي إيقاعها المنتظم المتداخل مع صدى صوتها إحساسًا بالخوف كنت على يقين أنه بدأ ينتاب كل من يسمعه .. ثم بدأت المدافع تطلق قذائفها من جديد

ليغطّي صوتها أصوات الدقات، إلى أن انتهت من ضربتها الثانية .. انتظرت أن تدق الطبول من جديد، لكن الدقائق قد مرت دون أن تلتقط آذاننا أي صوت، فأغمضتُ عيني وتنفستُ الصعداء بعدما ظننت أن تلك الضربة قد قضت على النسالى حاملي تلك الطبول، لكني فتحت عيني رعبًا حينما سمعتُ أصوات الزئير تتعالى فجأةً في الأسفل .. ليتعالى معها صرخات الأشراف بدرجة غير مسبوقة ..

نظرتُ إلى الباحة وسقطتُ على ركبتي غير مصدقٍ عندما رأيتُ العشرات من النسالى يهاجمون الأشراف بأجساد صارت أكثر قوة وضخامة، وأصوات زائرة رهيبة ترج أرض الباحة، وأنياب بارزة كنت أراها من مكاني المرتفع .. كأنهم استحالوا لحيوانات مفترسة فجأة، أطلق عمي بعضًا من أعيرته النارية تجاه نسلي زائر كان يتسلق جانب المنصة، قبل أن يهرع إلى الخلف هو ومَن معه من السادة بعدما أحاطهم عشرات الجنود .. كانت النسلية الرامية لا تزال تقف بأغلال يدها على المنصة تشاهد ما يحدث في ثبات عجيب، ظننتُ أن عمي سيصوّب سلاحه نحوها ويقتلها قبل أن يغادر المنصة، لكنه نظر إليها وأكمل هرولته بظهره إلى السلّم الخلفي دون أن يفعل ذلك أو يأمر جنوده بإعادتها إلى السجن .. صرختُ في نفسي إليه:

- لماذا يا عمي .. اقتلها أرجوك .. إنها من سبّبت كل هذا .. ما الذي يحدث؟!!

كان النسالى المتحولون بالباحة يهاجمون الجنود والأشراف بضراوة شديدة وأنماط هجوم مختلفة كأنهم لا ينتمون إلى فصيلةٍ واحدة، ثم وجدتُ كثيرًا من الجنود يصعدون إلى سطح السجن،

وتراصوا متلاصقين على حافته المواجهة للباحة، قبل أن يصرخ قائدهم فيهم:

- صوّبوا إلى الباحة واقتلوا من تقتلوه وإن قتلتم الأشراف معهم .. لا تتركوا أي نسلي على قيد الحياة ..

في هذه اللحظة وجدتُ بضعة نسالى المتحولين يتركون مهاجمة الأشراف ويركضون بسرعة كبيرة إلى أمام المنصة مباشرة حيث تقف الصفوف الأمامية من الجماهير، لأجد النسلية الرامية تتحرك للمرة الأولى، وتجري بيديها المكبلتين نحو مقدمة المنصة وتقفز برشاقة إليهم دون خوف .. ليستقبلها اثنان منهم على أذرعهما، قبل أن يغطي جسدها الباقون ويتحركون ككتلة واحدة دون أن يظهر أي جزء من جسدها، وواصلوا تحركهم إلى البوابات الجنوبية للباحة بدون توقف، وإن أصابت طلقات الجنود النارية أجساد مَن يقومون بتغطية الرامية.

نظرتُ إلى باقي النسالى في الباحة، كان عدد المفترسين منهم لا يتجاوز الخمسين حين أحصيتهم سريعًا بعيني، أما النسالى الذين لم يتحولوا وبقوا كما هم يهاجمون الأشراف والجنود بأياديهم فكان عددهم يتجاوز المائتين، سقط منهم الكثيرون قتلى مع سيل الطلقات النارية المنهمر من جنود السطح بجواري، لم أستطع أن أحدد عدد القتلى من النسالى الزائرين لكني كنت أرى آثار البارود على أجسادهم واضحة وهم يواصلون افتراس من بقي في الباحة من الأشراف بدون رحمة، إلى أن رأيتُ أحدهم يسقط قتيلًا فصرختُ في الجنود بأن يواصلوا، وأن ينفّذوا ما أمرهم به القائد، إن قُتل هؤلاء المتوحشون ومعهم قلة من الأشراف خير من أن يبقوا ليقضوا على المزيد منا

.. لكن الدماء تجمدت في عروقي حين نظرت بعيدًا ناحية الجنوب بعدما دقّت الطبول من جديد بصوت أكثر قوة وكأنه صادرٌ من طبول عملاقة، قبل أن أجد الغبار يتصاعدً إلى السماء بعيدًا بتلك الناحيةً، وتختلط أصوات الطبول بأصوات الزائرين، وكأن جيشًا كبيرًا منهم كان في طريقه إلينا، أدركتُ وقتها أن البقاء في جويدا سيكون مصيره الفناء، وأسرعتُ إلى السلم لأهبطه ركضًا كي أعود إلى أمي وإخوتي على أمل أن يكون أبي قد سبقني إليهم ليحملنا بعيدًا عن تلك المدينة التي خارت قواها فجأة، لكن ما إن هبطت طابقًا واحدًا حتى سمعت صوت الزئير يتعالى بالأسفل، فتوقفتُ ومددتُ رأسي بخوف لأنظر عبر هوة السلم، كان ثلاثة منهم يركضون إلى الداخل بسرعةً كبيرة، ركضتُ عبر ممر الزنازين في ذلك الطابق بأقصى سرعة لديّ بدون أن أنظر خلفي .. كان صراخ الجنود يتعالى من خلفي مع زئير الوحش المتعالي، فانعطفتُ بين الممرات لأكثر من مرة بدون أن أعرف إلى أين تقودني، كان ثمة نوافذ قضبان حديدية تتواجد بجدران تلك الممرات لتضيئها بالكامل .. فتمنيتُ وأنا أركض لو كانت تلك الجدران مُصمتة مثل الزنازين السفلية لأختفي بين ظلامها .. ثم توقفتُ لألتقط أنفاسي، لكني تابعتُ الركض بعد لحظة واحدة عندما سمعتُ صوت زئير أحدهم يأتي بعيدًا من خلفي، بعدها وجدتُ أبواب الزنازين تُطرق بقوة من الداخل .. لكن ما كاد يوقف قلبي حقًا هو الزئير الذي بدأ يتعالى من داخل بعض الزنازين، فواصلتُ ركضي وانعطافي بين الممرات في رعب شديد، إلى أن توقفتُ مُجبرًا بعدما انتهى الممر أمامي بزنزانة كانً بابها مُغلقًا بمزلاج من الخارج، كنت أعرف أنني لن أستطيع العًودة مجددًا إلى خارجً ذلك الممر، وكنت أعرف أنهم قادمون لا محالة، فتقدمتُ بحذر نحو الزنزانة، ووضعت

أذني على بابها في خوف لأتأكد ما إن كان هناك زئيرٌ بداخلها أم لا، فلم أسمع شيئًا بداخلها .. ثم تعالى الزئير فجأة في الممر المجاور ففتحتُ مزلاج الباب بسرعة، ودفعتُ نفسي إلى داخل الزنزانة، وأسندتُ ظهري للباب مغلقًا له وأنا أحاول التقاط أنفاسي اللاهثة، لكن قلبي سقط في قدمي عندما وجدت أمامي رجلًا كان يقف أسفل نافذة الزنزانة، ينظر عبر قضبانها إلى السماء بالخارج، كان نصفه العلوي عاريًا كالنسالى، وكان شعره طويلًا أشعث كأنه لم يُحلق منذ سنوات، استدار ونظر نحوي فجأة فوجدتُ لحيته كثيفة للغاية وطويلة هي الأخرى، فأجفل جسدي وزاد رعبي رعبًا .. لكني هدأت قليلًا عندما لم أبصر على صدره وشم النسالى ..

كان زئير الوحوش يتعالى في الممر بالخارج، نظرتُ إليه في انتظار أي رد فعل منه، لكنه انحنى ومد يده إلى قميص مهترئ كان مُلقى بأحد أركان الزنزانة، وارتداه في هدوءٍ شديد .. ثم سألني:

- هل مات الكثيرون من الأشراف؟

هززتُ رأسي إيجابًا في خوف، فضمّ شفتيه، وسألني:

- والنسالى؟

قلتُ في توتر:

- إنهم قادمون يا سيدي .. ادفع معي الباب .. سيقتلوننا هنا ..

قال:

- هل يقتل الزائرون النسالى الباقين؟

قلتُ:

- لا .. إنهم يقتلون الأشراف فحسب .. لو ساعدتني سأخبر عمي كيوان بذلك .. سيعفو عنك بمجرد أن تمر هذه الكارثة ..

ابتسم وهو يومئ برأسه إيجابًا، قبل أن تزداد أصوات وقع الأقدام في الخارج، فقال:

- توارَ خلف الباب ولا تصدر صوتًا.

قلتُ هامسًا في رعب وأنا أبتلع ريقي:

- هل ستفتح لهم الباب؟!

قال:

- نعم.

قلتُ في رعب:

- هل أنت مجنون؟ .. سيقتلونك وسيقتلونني .. إنهم يقتلون الأشراف ..

قال بهدوئه الغريب:

- توارَ فحسب ..

ثم تابع بعد لحظة:

- أخبر عمك أن عهد القواعد قد ولّى ..

قبل أن يمد يده ليفتح الباب ويخطو إلى الخارج، فانزويتُ إلى ركن الزنزانة خلف الباب الموارَب وقلبي ينتفض رعبًا .. نظرتُ بعيني عبر الشق الرفيع بين الباب والحائط إليه وهو يتقدم نحوهم بثبات

كبير، وجدتُ أحد النسالى غير المتحولين ينظر في وجهه بتمعن، قبل أن يصرخ إلى الباقين فرحًا:

- إنه طبيب وادينا .. الطبيب فاضل ..

كان الكثير من السجناء النسالى يقتربون منه ليحتضنوه غير مصدقين، فيما كان نسلي زائر يقف مزمجرًا عند بداية الممر دون أن يهاجم بقية النسالى أو ذلك السجين كأنه يعرف أنهم قومه، همستُ إلى نفسي في ذهول وأنا أراهم يقتربون منه دون خوف:

- إنهم يفكّرون، ويعرفون من معهم ومن هم أعداؤهم .. ليسوا مجرد وحوش ..

بعدها غادروا ذلك الممر دون أن يخبرهم الطبيب عني، فأغلقتُ باب الزنزانة بحرص، وجلستُ مسندًا ظهري إليه أستمع بأنفاسٍ متباطئة إلى أصوات الزئير التي كانت تبتعد شيئًا فشيئًا، وعقلي يسترجعٍ ما حدث في الباحة بعد تصاعد دقات الشامو إلى السماء، ثم نظرتُ عبر قضبان النافذة إلى سماء جويدا التي بدأت تمطر، لأغوص بين أفكارى التي كانت تدور جميعها حول شيء واحد فقط هو أن ما مر علينا كأشراف چارتين قبل هذا اليوم شيء، وما هو آتٍ بعده سيكون شيئًا آخر تمامًا.



في مكان في الجنوب غير وادي النسالى، كان عشرات الآلاف من النسالى يقفون في صفوف كثيرة رجالًا ونساءً وأطفالًا، بينهم ريان والطبيب فاضل، تتقدمهم عشرات الصفوف من النسالى ذوي العضلات الضخمة والأنياب والعروق البارزة، ينظرون جميعًا في ترقب نحو منصة خشبية مرتفعة بدت أنها صُنعت خصيصًا من أجل ذلك اليوم، قبل أن تصعد غفران سلّمها الخلفي بفستان منزوع الكتف الأيسر، وتتحرك بخطى ثابتة إلى منتصفها، لتقف أمامهم، وتنظر نحوهم لثوانٍ في صمت، قبل أن ترفع ذراعها الأيسر بقبضة قوية مغلقة، ليلمع وشم كتفها مع أشعة الشمس، ويتعالى الزئير أمامها ليصل عنان السماء.

دقات الشامو

صارت الفوضى تعم كل شيء من حولنا، وصرتُ أنا والسيدة غفران والطبيب والقلة القليلة التي لم تتخلَّ عن مدرسة السيدة منبوذين في وادي النسالى .. انهار كل شيء فجأة، وعاد الوادي إلى ما كان عليه قبل سنوات، بل صار أسوأ من ذلك، وبدلًا من انتصار ثالث طمعنا في تحقيقه على أشراف چارتين يوم الغفران الأخير .. أُصبنا نحن بالضربة القاضية.

تصميم الغلاف كريم آدم

